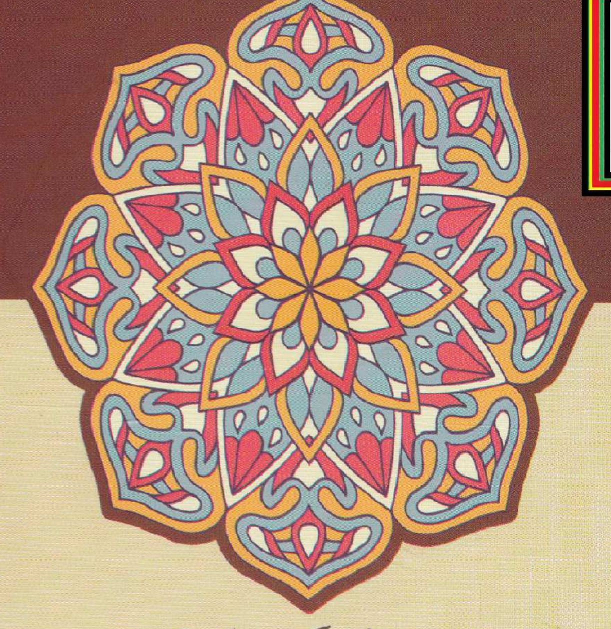


سبيل التقى بتقريب
ذم الهوى

تأليف

الإمام الحافظ
أبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي البغدادي

إشراف ومراجعة وتقديم

د. محمد يسري إبراهيم

إعداد

دار اليسر للبحوث العلمية والدراسات




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

سبيل التقى بتقريب ذم الهوى



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٣٩هـ-٢٠١٨ م

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي البغدادي (١١١٤ - ١٢٠١م)
سبيل التقى بتقريب ذم الهوى
تأليف أبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي البغدادي
إشراف ومراجعة وتقديم محمد يسري إبراهيم
القاهرة، دار اليسر ٢٠١٧م.
٢٢٥ص، ١٧ × ٢٤سم.
تدمك ٩٧٨٩٧٧٧٩٤٠٤٢٩
١- الأخلاق الإسلامية
٢- الوعظ والإرشاد
أ - إبراهيم - محمد يسري (مشرف ومراجع ومقدم)
ب - العنوان

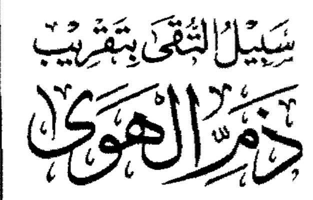
٢١٢

رقم الإيداع
٢٠١٧/١٤١٦٦

ترقيم دولي
978-977-794-042-9

٢٠ ش عبد العزيز عيسى، المنطقة التاسعة، الحي الثامن
مدينة نصر، القاهرة، جمهورية مصر العربية
تليفون: ٠٢ ٢٤٧٠٩٢٦٩ محمول: ٠١٠٦٢٢٤٧٦٢٠٨
فاكس: ٠٢ ٢٤٧١٤٨٠١ خدمة عملاء: ٠١١١٨٠٠٦٠٦٠

www.dar-alyousr.com
Email :alyousr@gmail.com
info@dar-alyousr.com



سبيل التقى بتقريب ذم الهوى

تأليف

الإمام الحافظ
أبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي البغدادي

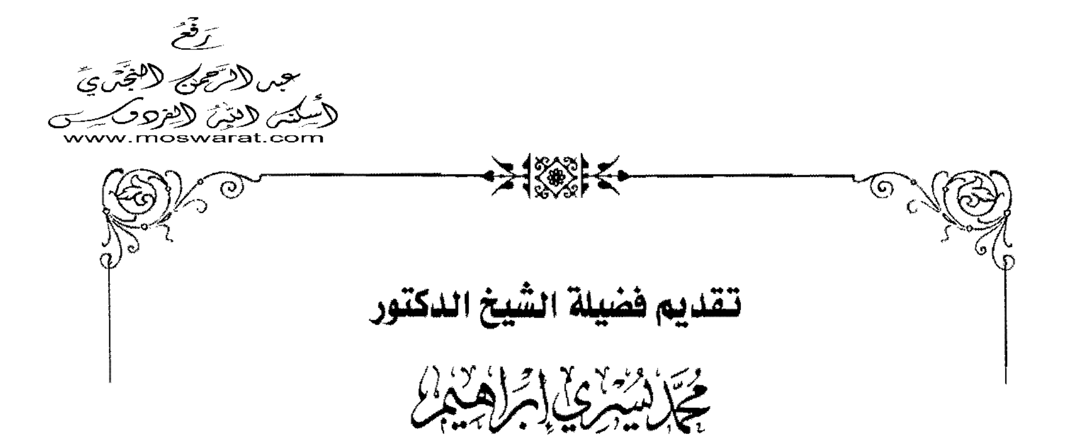
إشراف ومراجعة وتقديم

فضيلة الشيخ الدكتور
محمد يسري إبراهيم

إعداد
دار اليسر للبحوث العلمية والدراسات




بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم فضيلة الشيخ الدكتور

محمد يسري إبراهيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

أما بعد: فإن مصنفات ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٩٧ هـ)[1] كثيرة متنوعة الموضوعات بتنوع علومه الحديثية، والفقهية، والتفسيرية، والتاريخية، والوعظية وغيرها، فقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ آية في كثرة التصانيف وتوزُّعها على أبواب العلم كافة!

---

(١) انظر في ترجمته: البداية والنهاية، لابن كثير (١٣/ ٣٤)، سير أعلام النبلاء، للذهبي (٢١/ ٣٦٥)، وفيات الأعيان، لابن خلكان (٣/ ١٤٠).

وقد غلب عليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ الوعظ، مع الإفتاء على مذهب الحنابلة، وسارت بكتبه الوعظية الركبان، وهي كتب نافعة ماتعة في الجملة، لا تخلو من جِدَّة وابتكار وطرافة في معناها ومبناها، ولا تخلو - أحيانًا - مما قد يلاحظ، أو يؤاخذ عليه فيها!

ومن تلك الكتب النافعة الماتعة: كتاب «ذم الهوى»، وهو في معالجة من ابتلي بداء الهوى الدويِّ، وأعيته في دفعه الحيل، فجاء الكتاب جامعًا لأسباب مدافعته، مفصحًا عن طرق رفعه، متضمنًا علوم علماء الشرع، وجهابذة الفكر، وأرباب السلوك ورياضة القلوب، واكتملت عدَّةُ أبواب الكتاب خمسين بابًا، طال منها ما طال، وتشعَّث منها ما تشعَّث، وندَّت فيها عبارات، وطغا القلم بإشارات، واعتُمدت روايات واهيات، ومنامات وحكايات تائهات!

وقد أشار علينا بعض الفضلاء باختصار الكتاب وتقريبه، وحذف ما شذَّ وتَشْذِيبه، على منهجٍ يحفظ عبارة المصنف ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، مع التخفف من أسانيد تطول، وحذف ما كان موضوعًا واهيًا غير مقبول، وما قد يوهم الناشئ مشروعيته من فعل بعض عبَّاد بني إسرائيل، وطرح قصص عشاق تثير الهوى ولا تقمعه، وتحرك الكوامن ولا تدفعها.

وكان مما اقتضته صناعة المختصر: وضع عناوين جانبية لفقرات مهمة، مع تمييزها بوضعها بين معقوفين، ومثالها: [أقسام الصبر]، [ذكر ذم الهوى من طريق النقل].

ومتى كان الحديث في الصحيحين، أو في أحدهما اكتفي بالعزو إليهما، وإلا

يكن خُرِّج من السنن الأربعة، ومسند الإمام أحمد، وقد يزاد- أحيانًا- صحيح ابن حبان، ومستدرك الحاكم، ومعاجم الطبراني بحسب الحاجة.

واعتني بشرح المفردات، وغريب الكلمات، وتوجيه المعاني، ودفع الاستشكالات، مع التنبيه على المخالفات متى مسَّت إلى ذلك حاجة القارئ والناشئ، حتى يكتمل بهذا النصح لطالب السلامة من غائلة الهوى، وسبل الرَّدَى، ومن أجل ذلك سميته بعد هذا العمل: «سَبِيلُ التُّقَى بِتَقْرِيبِ ذَمِّ الْهَوَى».

فاللهم اجعل هوانا في رضاك، وسعينا في طلب جنتك، وحسن لقاك، وتقبل جهد إخواني في قسم التحقيق والبحث العلمي بدار اليسر، واشملني معهم بعفوك، واسترنا بسترك يا أكرم الأكرمين، ويا أرحم الراحمين.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

وكتبه

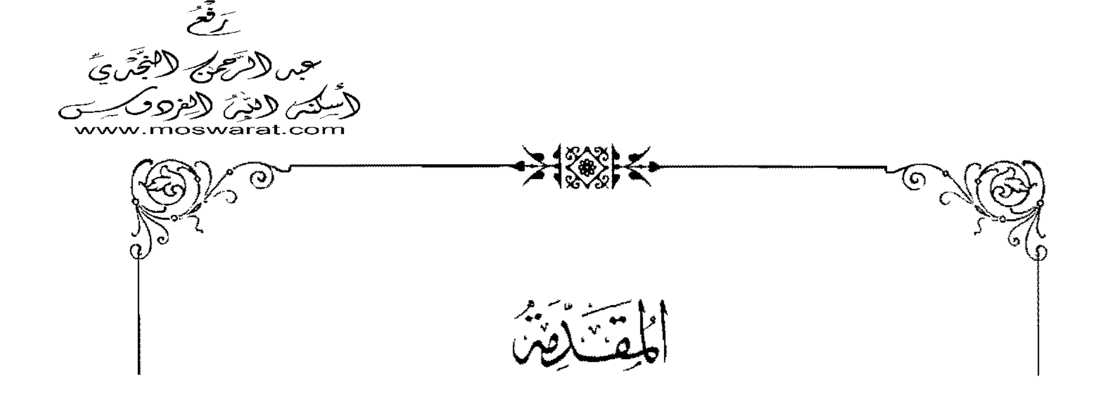
أبو عبد الله

محمد يسري إبراهيم

الدوحة

٧/١٢/١٤٣٨هـ- ٢٩/٨/٢٠١٧م





المقدمة

الحمد لله حمد الشاكرين، وصلواته على سيد المرسلين، محمدٍ النبيِّ الأميِّ وآله الطاهرين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

شكا إليَّ بعض من أثَّرتْ شكواه إثارة همتي في جمع هذا الكتاب، من بلاء ابتُلي به، وهَوًى هَوَى فيه، وسألني المبالغة في وصف دواء دائه، فأهديتُ له نصيحة وديدٍ لأوِدَّائه[1]، وقد أتيتُ بها على أبلغ ترتيب، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أنيب.

اعلم- يا أخي، وفَّقنا الله وإياك لمراضيه، وعصمنا وإياك عن معاصيه- أنك لم تشكُ إليَّ مرضك إلا وفيك بعدُ بقيةٌ تُرجى بها السلامة، فبادِرْ إلى استعمال الدواء، وبالِغْ في ملازمة الحمية، وقد رجوتُ لك العافية.

فأما إن كنتَ تمضي في تخليطك، ولا تصبر على مضض ما يوصف لك؛ فإنك تُتعبني وتَتعبُ.

واعلم أني قد نزلتُ- لأجلك- في هذا الكتاب عن يفاع[2] الوقار، إلى حضيض الترخُّص فيما أُورد؛ اجتذابًا لسلامتك، واجتلابًا لعافيتك، وقد مددتُ

---

(١) يقال: وِدُّكَ ووَديدُكَ، كما تقول: حِبُّكَ وحبِيبُكَ، والجمع: أوِدَّاء، لسان العرب (٣/ ٤٥٣).

(٢) اليفاع: ما علا من الأرض، مقاييس اللغة (٦/ ١٥٧).

فيه النَّفَسَ بعضَ المدِّ؛ لأن مثلك مفتقر إلى ما يلهيه من الأسمار[١]، عن الفكر فيما هو بصدده من الأخطار، فليكن هذا الكتاب سميرَكَ، واستعمال ما آمُرُكَ به فيه شُغْلَكَ، والله وليُّ صلاحك؛ فإنه لا عاصم إلا من رحم.

وقد ضمَّنت هذا الكتاب خمسين بابًا[٢]، وهذه تراجم الأبواب:

الباب الأول: في ذكر العقل وفضله وذكر ماهيته.

الباب الثاني: في ذم الهوى والشهوات.

الباب الثالث: في ذكر مجاهدة النفس ومحاسبتها وتوبيخها.

الباب الرابع: في مدح الصبر والحث عليه.

الباب الخامس: في حراسة القلب من التعرض للشواغل والفتن.

الباب السادس: في ذكر ما يصدأ به القلب.

الباب السابع: في ذكر ما ينفي عن القلوب صدأها.

الباب الثامن: في ذكر تقليب القلوب والرغبة إلى الله تعالى في إصلاحها.

الباب التاسع: في ذكر الواعظ من القلب.

الباب العاشر: في الأمر بتفريغ القلب من غير محبة الرب.

الباب الحادي عشر: في الأمر بغضِّ البصر.

الباب الثاني عشر: في ذمِّ فضول النظر.

الباب الثالث عشر: في التحذير من شرِّ النظر.

---

(١) مفردها: سَمَر ومُسامَرة، والسمر هو: الحديث بالليل، لسان العرب (٤/ ٣٧٧).

(٢) لاعتبارات مهمة فقد حَذفتُ في هذا المختصر بعضَ تلك الأبواب، فصارت عدة أبواب المختصر أربعة وأربعين بابًا.

فهذه جميع أبواب الكتاب، وصلى الله على سيدنا محمدٍ النبيِّ الأميِّ وعلى آله وسلم تسليمًا.



الباب الأول

في ذكر العقل وفضله وذكر ماهيته

اختلف الناس في ماهية العقل اختلافًا كثيرًا.

فقال قوم: «هو غريزة يتأتَّى معها دَرْكُ العلوم».

وقال آخرون: «هو قوة يفصَّل بها بين حقائق المعلومات».

وقال آخرون: «هو جوهر بسيط، وقال قوم: هو جسم شفاف».

وقال الحارث المحاسبي: «هو نور»[1]، وبهذا قال أبو الحسن التميمي من أصحابنا.

وروى إبراهيم الحربي عن أحمد أنه قال: «العقل غريزة»[2]، وقد رُوي عن المحاسبي - أيضًا - مثله.

والتحقيق في هذا أن يقال: العقل غريزة؛ كأنها نور يُقذَف في القلب، فيستعد لإدراك الأشياء، فيعلم جواز الجائزات، واستحالة المستحيلات، ويتلمَّح عواقب الأمور.

وذلك النور يَقِلُّ ويكثر، وإذا قوي ذلك النور قمع بملاحظة العواقب عاجل الهوى.

---

(١) ماهية العقل، للمحاسبي (ص٢٠٤).

(٢) العدة في أصول الفقه، لأبي يعلى (١/ ٨٥- ٨٦).

ذكر محلِّ العقل

أكثرُ أصحابنا يقولون: محله القلب، وهو مروي عن الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ودليلهم: قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، قالوا: المراد لمن كان له عقل، فعبَّر بالقلب عن العقل؛ لأنه محله.

ونقل الفضل بن زياد عن أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أن محله الدماغ، وهو اختيار أصحاب أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ.

ذكر فضل العقل من طريق النقل

والمنقول عن رسول الله ﷺ في فضل العقل كثير إلا أنه بعيد الثبوت، وقال أبو حاتم ابن حبان: «لست أحفظ عن النبي ﷺ خبرًا صحيحًا في العقل»[(١)].

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ليس العاقل من يعرف الخير من الشر، ولكنه الذي يعرف خير الشرين»[(٢)].

وعن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «يثغر الغلام لسبع سنين، ويحتلم لأربع عشرة، وينتهي طوله لإحدى وعشرين، وينتهي عقله إلى ثمان وعشرين، وما بعد ذلك تجارب»[(٣)].

---

(١) روضة العقلاء، لأبي حاتم ابن حبان البستي (ص١٦).

(٢) أخرجه الدينوري في المجالسة (٦٧٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٦/ ١٨٦) عن عمرو ابن العاص.

(٣) أخرجه أبو الحسين الطيوري في الطيوريات (١٢٥٢).

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «قد أفلح من جعل الله له عقلًا»(١).

وقال ابن عائشة: «وُلِد لكسرى مولود فأمر فجيء ببعض أهل الأدب، وجيء بالمولود، فَوُضع بين يديه، فقال له كسرى: ما خير ما أوتي هذا المولود؟ قال: عقل يولد معه، قال: فإنْ عَدِمَهُ؟ قال: أدب حسن يعيش به بين الناس، قال: فإن عدم ذلك؟ قال: صاعقة تحرقه».

وقال وهب بن منبه: «إني وجدتُ في بعض ما أنزل الله على أنبيائه: أن الشيطان لم يكابد شيئًا أشدَّ عليه من مؤمن عاقل، وأنه يكابد مائةَ جاهلٍ فيستجرهم حتى يركبَ رقابَهم، فينقادون له حيث شاء، ويكابد المؤمن العاقل فيصعب عليه، حتى ما ينال منه شيئًا من حاجته. قال وهب: ولَإِزالةُ الجبل صخرةً صخرةً وحجرًا حجرًا أشدُّ على الشيطان من مكابدة المؤمن العاقل، فإذا لم يقدر عليه تحوَّلَ إلى الجاهل، فيستأسره ويستمكن من قياده، حتى يُسلمه إلى الفضائح التي يتعجل بها في الدنيا الجَلْدَ، والحلقَ، وتسخيمَ الوجه(٢)، والقطع، والرجم، والصلب.

وإن الرجلين يستويان في أعمال البر، ويكون بينهما كما بين المشرق والمغرب- أو أبعد- إذا كان أحدهما أعقلَ من الآخر، وما عُبد الله بشيء أفضل من العقل»(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقل وفضله (١٢) مرفوعًا.

(٢) يقال: سخَّمَ الله وجهه، أي: سوَّده، وهو من السُّخام، وهو سواد القِدر، مقاييس اللغة (٣/ ١٤٦)، لسان العرب (١٢/ ٢٨٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٦).

وقال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو أن العاقل أمسى وأصبح وله ذنوب بعدد الرمل كان وشيكًا بالنجاة والسلامة والتخلص منها، ولو أن الجاهل أمسى وأصبح وله من الحسنات وأعمال البر عدد الرمل لكان وشيكًا ألا يَسلَمَ له منها مثقال ذرةٍ! قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن العاقل إذا زل تدارك ذلك بالتوبة والعقل الذي قسم له، والجاهل إنما هو بمنزلة الذي يبني ويهدم، فيأتيه من جهله ما يفسد صالح عمله».

وقال الحسن: «ما يتمُّ دين الرجل حتى يتم عقله، وما أودع الله امرءًا عقلًا إلا استنقذه به يومًا»[١].

وقيل لعطاء بن أبي رباح: «ما أفضل ما أُعطي الإنسان؟ قال: العقل عن الله تعالى»[٢].

وعن يوسف بن أسباط قال: «العقل سراج ما بطن، وملاك ما علن، وسائس الجسد، وزينة كل أحد، ولا تصلح الحياة إلا به، ولا تدور الأمور إلا عليه»[٣].

وسئل ابن المبارك: «ما خير ما أُعطِيَ الرجلُ؟ قال: غريزة عقل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أدب حسن، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخ صالح يستشيره، قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمت طويل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: موت عاجل»[٤].

---

(١) العقل وفضله، لابن أبي الدنيا (١٨).

(٢) روضة العقلاء (ص١٨).

(٣) العقل وفضله (٦٩).

(٤) روضة العقلاء (ص١٧).

ذكر فضيلة العقل من جهة الاستنباط

إنما تُتبين فضيلةُ الشيء بثمرته وفائدته، وقد عرفتَ ثمرة العقل وفائدته؛ فإنه هو الذي دلَّ على الإله، وأمر بطاعته، وامتثال أمره، وثبَّت معجزات الرسل وأمر بطاعتهم، وتلمَّحَ العواقبَ فاعتبرها فراقبها، وعمل بمقتضى مصالحها وقاوم الهوى فردَّ غَرْبَهُ[(١)]، وأدرك الأمور الغامضة، ودبَّر على استخدام المخلوقات فاستخدمها، وحث على الفضائل، ونهى عن الرذائل، وشدَّ أسر الحزم، وقوَّى أَزْرَ العزم، واستجلب ما يزين، ونفى ما يشين، فإذا تُرِكَ وسلطانه أسر فضولَ الهوى فحصرها في حبس المنع، وكفى بهذه الأوصاف فضيلة.

ولا ينبغي أن يدال[(٢)] الهوى عليه؛ فإنه عدوه، فيحطه عن رتبته، ويستنزله عن درجته، ولا يجوز أن يُجعل- وهو الحاكم عليه- محكومًا، ولا أن يصير- وهو الزِّمام-[(٣)] مزمومًا، ولا أن يعود- وهو المتبوع- تابعًا، فمن صبر على مضيض[(٤)] مشاورته اجتنى حلاوة المنى في عواقبه.

---

(١) الغَرْبُ: الحِدَّة، ومنه: غَرْب السَّيف، لسان العرب (١/ ٦٤١).

(٢) الإِدالةُ: الغلبة، يقال: أُدِيل لنا على أعدائنا، أي: نُصِرنا عليهم، لسان العرب (١١/ ٢٥٢).

(٣) الزِّمام: الخيطُ، أو الحبل يوضع في أنف الدابة تقاد منه، لسان العرب (١٢/ ٢٧٢).

(٤) المضيض: الحرقة، والهمُّ يَمُضُّ القلب، أي: يحرِقُه، لسان العرب (٧/ ٢٣٣).



الباب الثاني

في ذم الهوى والشهوات

اعلم أن الهوى ميلُ الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل قد خُلق في الإنسان لضرورة بقائه؛ فإنه لو لا ميله إلى المطعم ما أكل، وإلى المشرب ما شرب، وإلى المنكح ما نكح، وكذلك كل ما يشتهيه؛ فالهوى مستجلِب له ما يفيد، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذي؛ فلا يصلح ذمُّ الهوى على الإطلاق، وإنما يُذَمُّ المفرِّطُ من ذلك، وهو ما يزيد على جلب المصالح، ودفع المضارِّ.

ولما كان الغالب من موافق الهوى أنه لا يقف منه على حدِّ المنتفع أُطلِقَ ذمُّ الهوى والشهوات؛ لعموم غلبة الضرر؛ لأنه يبعد أن يفهم المقصود من وضع الهوى في النفس، وإذا فهم تعذر وجود العمل به ونَدُر، مثاله: أن شهوة المطعم إنما خُلقت لاجتلاب الغذاء فيندُرُ مَن يتناول بمقتضى مصلحته ولا يتعدى، فإن وُجد ذلك انغمَرَ ذِكر الهوى في حق هذا الشخص، وصار مستعمِلًا للمصالح، وأما الأغلب من الناس فإنهم يوافقون الهوى، فإن حصلت مصلحة حصلت ضمنًا وتبعًا، فلما كان هذا هو الغالب ذكرتُ في هذا الباب ذمَّ الهوى والشهوات مطلقًا، ووسمت كتابي بـ:(ذمِّ الهوى) لذلك المعنى.

وقد روي عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه قال: «ما ذكر الله ﷻ الهوى في موضع

من كتابه إلا ذمَّهُ»[١].

وقال الشعبي: «إنما سُمِّيَ هوًى؛ لأنه يهوِي بصاحبه»[٢].

[ذِكر ذمِّ الهوى من طريق الاستنباط]

اعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكرٍ في عاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلًا، وإن كانت سببًا للألمِ والأذَى في العاجل، ومنعِ لذَّاتٍ في الآجل.

فأما العاقل فإنه ينهى نفسه عن لذةٍ تُعقِبُ ألـمًا، وشهوةٍ تُورث ندمًا، وكفى بهذا القدر مدحًا للعقل، وذمًّا للهوى.

ألا ترى أن الطفل يؤثر ما يهوَى، وإن أدَّاه إلى التلف، فيفضل العاقل عليه بمنع نفسه من ذلك، وقد يقع التساوي بينهما في الميل بالهوى.

وبهذا القدر فُضِّلَ الآدميُّ على البهائم- أعني: ملكة الإرادة-؛ لأن البهائم واقفة مع طباعها، لا نظر لها إلى عاقبة ولا فكرٍ في مآلٍ؛ فهي تتناول ما يدعوها إليه الطبعُ من الغذاء إذا حضر، وتفعل ما تحتاج إليه من الروث والبول أيَّ وقتٍ اتَّفَقَ، والآدمي يمتنع عن ذلك بقهر عقله لطبعه.

وإذا عرف العاقل أن الهوى يصير غالبًا وجب عليه أن يرفع كل حادثة إلى حاكم العقل؛ فإنه سيشير عليه بالنظر في المصالح الآجلة، ويأمره عند وقوع الشبهة باستعمال الأحوط في كفِّ الهوى إلى أن يتيقن السلامة من الشر في العاقبة.

---

(١) أخرجه الثعلبي في تفسيره (٨/ ٣٦٢).

(٢) أخرجه الدارمي (٤٠٩).

وينبغي للعاقل أن يتمرَّن على دفع الهوى المأمون العواقب؛ ليستمر بذلك على ترك ما تؤذي غايته.

وليعلم العاقل أن مدمني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذونها، وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها؛ لأنها قد صارت عندهم كالعيش الاضطراري؛ ولهذا ترى مدمن الخمر والجماع لا يلتذُّ بذلك عُشْرَ التذاذ من لم يدمن، غير أن العادة تقتضيه ذلك، فيلقي نفسه في المهالك؛ لنيل ما يقتضيه تعوُّدُهُ، ولو زال رَيْنُ[1] الهوى عن بصرِ بصيرته لرأى أنه قد شقي من حيث قَدَّرَ السعادةَ، واغتمَّ من حيثُ ظَنَّ الفرح، وأَلِمَ من حيث أراد اللذة، فهو كالحيوان المخدوع بِحَبِّ الفخِّ؛ لا هو نال ما خُدعَ به، ولا أطاق التخلص مما وقع فيه.

[ذِكر سبعة أشياء تهوِّن الصبر والمجاهدة]

فإن قال قائل: فكيف يتخلَّص مِن هذا مَن قد نشب[2] فيه؟

قيل له: بالعزم القوي في هجران ما يؤذي، والتدرج في تركِ ما لا يُؤمن أذاه، وهذا يفتقر إلى صبرٍ ومجاهدة، يهوِّنُهما سبعةُ أشياءَ:

أحدها: التفكرُ في أن الإنسان لم يُخلَقْ للهوى، وإنما هُيِّئَ للنظر في العواقب، والعمل للآجل.

ويدل على هذا: أن البهيمة تصيب من لذة المطعم والمشرب والمنكح ما لا يناله الإنسانُ مع عيش هنيٍّ خالٍ عن فكر وهمٍّ؛ ولهذا تساق إلى منحرها وهي منهمكة على شهواتها لفقدان العلم بالعواقب.

---

(١) الرين: الغِطاء على الشيء، مقاييس اللغة (٢/ ٤٧٠).

(٢) نَشِبَ الشيء في الشيء نُشوبًا، أي: علِق فيه، لسان العرب (١/ ٧٥٧).

والآدمي لا ينال ما تناله البهيمة من اللذة لقوة الفكر الشاغل.

فلو كان نيلُ المشتهى فضيلةً لما بُخِسَ حظُّ الآدميِّ الشريف منه، وزِيدَ حظُّ البهائم، وفي توفير حظِّ الآدميِّ من العقل وبخس حظِّهِ من الهوى ما يكفي في فضلِ هذا وذمِّ ذلك.

والثاني: أن يفكر في عواقب الهوى؛ فكم قد أفات من فضيلة، وكم قد أوقع في رذيلة، وكم من مطعم قد أوقع في مرض، وكم من زلَّةٍ أوجبت انكسارَ جاهٍ، وقبحَ ذكرٍ مع إثمٍ، غير أن صاحبَ الهوى لا يرى إلا الهوى، فأقربُ الأشياء شبهًا به مَن في الـمَدْبَغَة؛ فإنه لا يجد ريحها حتى يخرج فيعلم أين كان!

والثالث: أن يتصور العاقل انقضاء غرضه من هواه، ثم يتصور الأذى الحاصل عَقِيب اللذة، فإنه يراه يُربِي[1] على الهوى أضعافًا، وقد أنشد بعض الحكماء:

وأفضلُ الناسِ مَن لم يرتكِبْ سببًا ... حتَّـى يُمَيِّـزَ مـا تجنِـي عواقِبُـهُ

والرابع: أن يتصور ذلك في حق غيره، ثم يتلمح عاقبته بفكره؛ فإنه سيرى ما يعلم به عيبه إذا وقف في ذلك المقام.

والخامس: أن يتفكر فيما يطلبه من اللذات؛ فإنه سيخبره العقل أنه ليس بشيء، وإنما عين الهوى عمياء!

وفي الحديث عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا أعجبت أحدكم امرأة فليذكر مناتنها»[2].

---

(١) رَبا الشيء يربو رُبُوًّا ورِباءً: زاد ونما، وأربيتُه: نَمَّيتُه، لسان العرب (١٤/ ٣٠٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٧٢٠٥) من قول إبراهيم النخعي، وأخرجه- أيضًا- (١٧٢٠١) عن ابن مسعود: «من رأى منكم امرأة فأعجبته، فليواطئ أهله، فإن معهن مثل الذي معهن».

وهذا أحسن من قول أبي الطيب:

لــو فكَّــرَ العاشــقُ في منتهَــى   حُسْــنِ الَّـذِي يُسْـبِيْهِ[1] لـم يُسْـبِهْ

لأن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ذكر الحال الحاضرة الملازمة، وأبو الطيب أحال على أمور متأخرة، إلا أن يكون أشار إلى هذا المعنى.

والسادس: أن يتدبر عزَّ الغلبة وذلَّ القهر؛ فإنه ما من أحدٍ غلب هواه إلا أحسَّ بقوَّةِ عزٍّ، وما من أحدٍ غلبَهُ هواه إلَّا وجد في نفسه ذلَّ القهرِ.

والسابع: أن يتفكر في فائدة المخالفة للهوى من اكتساب الذِّكْرِ الجميل في الدنيا، وسلامة النفس والعرض، والأجر في الآخرة.

ثم يعكس فيتفكر لو وافق هواه في حصول عكس ذلك على الأبد، وليفرض لهاتين الحالتين حالتي آدمَ ويوسفَ عليهما السلام في لقمة هذا، وصبر هذا.

[ذِكر أقسام الهوى وأيها المراد في كتابنا]

واعلم أن الهوى يسري بصاحبه في فنون، ويخرجه من دائرة العقل إلى دائرة الجنون.

وقد يكون الهوى في العلم فيخرج بصاحبه إلى ضد ما يأمر به العلم، وقد يكون في الزهد فيخرج إلى الرياء. وكتابنا هذا لذمِّ الهوى في شهوات الحسِّ، وإن كان يشتمل على ذمِّ الهوى مطلقًا.

وإذ قد ذكرنا في هذا الفصل من ذمِّ الهوى ما أملاه العقلُ؛ فلنذكر من ذلك ما يحويه النقلُ.

---

(١) السَّبيُ: النهب وأخذ الناس عبيدًا وإماءً، وسبيتُ قلبَه واستبَيتُه: فتنتُه، لسان العرب (١٤/ ٣٦٨).

[ذِكر ذمِّ الهوى من طريق النقل]

قد مدح الله ﷻ مخالفةَ الهوى، فقال: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، قال المفسرون: «هو نهي النفسِ عما حرَّم الله عليها».

قال مقاتل: «هو الرجل يهمُّ بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها»[(١)].

وقال ﷻ: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وقال: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

قال الحسن- في هذه الآية: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]-: «هو المنافق لا يهوى شيئًا إلا ركبه. وقال: المنافق يعبد هواه، لا يهوى شيئًا إلا ركبه»[(٢)].

وقال قتادة- في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]-: «إذا هوي شيئًا ركبه»[(٣)].

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»[(٤)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «**لَمَّا خَلَقَ الله ﷻ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ**- يعني: إلى الجنة- **فَقَالَ: انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَىٰ مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَجَاءَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَىٰ مَا أَعَدَّ الله ﷻ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ**

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٤٢١).
(٢) تفسير البغوي (٧/ ٢٤٥) بنحوه.
(٣) تفسير الطبري (٢١/ ٩٣).
(٤) أخرجه مسلم (٢٨٢٢).

لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَيهَا، فَرَجَعَ فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: لَقَدْ خَشِيْتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، قَالَ: فَانْظُرْ إِلَىٰ النَّارِ وَإِلَىٰ مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا فَجَاءَهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا، وَإِلَىٰ مَا أَعَدَّ لِأَهْلِهَا فِيْهَا، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا»(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُوْنَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»(٢).

وعن أبي بردة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيكُمْ شَهَوَاتُ الْغَيِّ فِي بُطُوْنِكُمْ وَفُرُوْجِكُمْ، وَمُضِلَّاتُ الْهَوَىٰ»(٣).

وعن عمرو بن عوف المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي حُكْمُ جَائِرٍ، وَزَلَّةُ عَالِمٍ، وَهَوًىٰ مُتَّبَعٌ»(٤).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًىٰ مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ»(٥).

---

(١) أخرجه أحمد (٨٣٩٨)، وأبو داود (٤٧٤٤)، والترمذي (٢٥٦٠)، والنسائي (٣٧٦٣).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٥)، والخطيب في تاريخ بغداد (٢٢٣٩)، والبغوي في شرح السنة (١٠٤).

(٣) أخرجه أحمد (١٩٧٧٢)، والبزار (٣٨٤٤).

(٤) أخرجه البزار(٣٣٨٤)، والخرائطي في اعتلال القلوب (٨٩).

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٤٥٢)، والبيهقي في الشعب (٧٣١).

وعن أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ**»[١].

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثَلاثٌ مُنْجِيَاتٌ، وَثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ، فَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ: فَتَقْوَىٰ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَالْقَوْلُ بالْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالسُّخْطِ، وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَىٰ وَالْفَقْرِ، وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ: فَهَوَىٰ مُتَّبَعٌ، وَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ، وَهِيَ أَشَدُّهُنَّ**»[٢].

وقال معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «المروءة تركُ اللذة، وعصيانُ الهوى»[٣].

وعن أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعملُهُ، فإنْ كان عملُهُ تبعًا لهواهُ فيومُهُ يومُ سوءٍ، وإنْ كان هواهُ تبعًا لعملِهِ فيومُهُ يومٌ صالحٌ»[٤].

وعن مالك بن دينار أنه قال: «بئس العبدُ عبدٌ همُّهُ هواهُ، وبطنُهُ»[٥].

وعن الأصمعي قال: «سمعتُ أعرابيًّا يقول: إذا أُشكِلَ عليك أمرانِ؛ لا تدري أيهما أرشدُ، فخالف أقربَهما مِن هواكَ؛ فإنَّ أكثرَ ما يكونُ الخطأُ مَعَ متابعةِ الهَوَى».

وعن ابن السماك قال: «إنْ شئتَ أخبرتُكَ بدائِكَ، وإنْ شئتَ أخبرتُكَ بدوائِكَ: داؤُكَ هواكَ، ودواؤكَ تركُ هواكَ».

وقال رجل للحسن: «يا أبا سعيدٍ، أيُّ الجهادِ أفضلُ؟ قال: جهادُكَ هواكَ».

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (١٠٥٠١).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٦٨٦٥).

(٣) أخرجه ابن المرزبان في المروءة (٦٩).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٨٤).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في الجوع (١٤٣).

وعن بشر قال: «اعلم أن البلاءَ كلَّه في هواكَ، والشفاءَ كلَّه في مخالفتِكَ إيَّاهُ».

وعن الفضيل بن عياض قال: «من استحوذت عليه الشهواتُ انقطعتْ عنه موادُّ التوفيق».

وعن إسحاق الموصلي قال: «قال لي المعتصم: يا إسحاق إذا نُصِرَ الهوى ذهب الرأي»[1].

وعن أبي سليمان الداراني- في قول الله ﷻ: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢] قال-: «صبروا عن الشهوات»[2].

وعن يحيى بن معاذ قال: «حُفَّتِ الجنةُ بالمكاره وأنت تكرهها، وحُفَّتِ النارُ بالشهوات وأنت تطلبها، فما أنت إلا كالمريضِ الشديدِ الداءِ؛ إن صبر نفسه على مضض الدواء اكتسب بالصبر عافيةً، وإن جزعت نفسه مما يَلْقَى طالت به عِلَّةُ الضَّنَى»[3].

وعن الحسن بن علويه قال: «سمعت يحيى بن معاذ- وقيل له: مَن أصح الناس عزمًا؟- قال: الغالب لهواه».

وعن الحسن بن محمد الجريري قال: «أسرعُ المطايا إلى الجنةِ الزهدُ في الدنيا، وأسرع المطايا إلى النار حبُّ الشهوات، فمن استوى على متن شهوة من الشهوات أسرع به القَوْدُ[4] إلى ما يَكرهُ».

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٧٣/ ٢٤٤) بنحوه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٦٨).

(٣) أخرجه ابن بشران في الأمالي (١٦٢٥).

(٤) القَوْدُ: نقيض السَّوق، يقود الدابَّة من أمامها ويسوقها من خلفها، وقاد البعير واقتاده معناه: جَرَّه خلفه، لسان العرب (٣/ ٣٧٠).

وقال ابن عطاء: «من غلب هواهُ عقلَه، وجزعُهُ صبرهُ افْتُضِحَ».

وعن أبي يحيى الوراق قال: «من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس في قلبه شجر الندامات»[١].

وعن الأصمعي والعتبي قالا: «سمعنا أعرابيًّا يقول: ما أشدَّ تحويلَ الرأي عند الهوى! هو الهوان، وإنما غُلِطَ باسمه فاشتُقَّ له من جنسه، وإنما يَعرف ما أقولُ، مَن أبكتْهُ المنازلُ والطُّلولُ»[٢].

وعن بشر بن الحارث قال: «لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطًا من حديد»[٣].

وقال أبو سليمان الداراني: «أفضل الأعمال خلاف هوى النفس»[٤].

وعن السَّرِيِّ أنه قال: «لن يكمل رجل حتى يؤثر دينه على شهوته، ولن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه»[٥].

وقال أحمد بن خضرويه: «لا نومَ أثقل من الغفلة، ولا رِقَّ أملك من الشهوة، ولولا ثقل الغفلة لم تظفر بك الشهوة»[٦].

وقال يوسف بن الحسين: «عين الهوى عوراء»[٧].

---

(١) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٣٥٦).

(٢) الطلول: جمع طلل، وهو الأثر الباقي من ديار القوم، لسان العرب (١١/ ٤٠٦).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٥٤).

(٤) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص٧٩).

(٥) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص٥٨).

(٦) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص٩٧).

(٧) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص١٥٤).

وقال أبو بكر الوراق: «أصل غلبة الهوى مقاربة الشهوات، فإذا غلب الهوى أظلم القلب، وإذا أظلم القلب ضاق الصدر، وإذا ضاق الصدر ساء الخُلُق، وإذا ساء الخُلُق أبغضه الخَلْقُ، وإذ أبغضه الخَلْقُ أبغضهم، وإذا أبغضهم جفاهم، وإذا جفاهم صار شيطانًا رجيمًا»[1].

وقال أبو علي الثقفي: «مَن غلبه هواه توارَى عنه عقلُهُ»[2]. وقال: «ليس شيء أولى بأن تمسكه من نفسك، ولا شيء أولى بأن تغلبه من هواك»[3].

وعن علي بن سهل قال: «العقل والهوى يتنازعان فمعين العقل التوفيق، وقرين الهوى الخذلان، والنفس واقفة بينهما، فأيهما ظفر كانت في حيزه»[4].

وعن أبي الحسين الوراق قال: «الشهوة أغلبُ سلطانٍ على النفس، ولا يزيلها إلا الخوف المزعج»[5].

وقال إبراهيم القصار: «أضعف الخلق مَن ضَعُف عن ردِّ شهوته، وأقوى الخلق من قوي على ردِّهَا»[6].

وقال المرتعش- وقيل له: إن فلانًا يمشي على الماء، فقال-: «إنَّ مَن مكَّنه الله مِن مخالفة هواه لهو أعظمُ من المشي على الماء»[7].

---

(١) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص٢٩).

(٢) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص٢٧٦).

(٣) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص٢٧٧).

(٤) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص١٨٩).

(٥) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص٢٣٠).

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣٥٤).

(٧) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص٢٦٧).

وعن أبي بكر ابن أبي الدنيا قال: «بلغني أن بعض الملوك قال- لبعض الحكماء-: العجب لمن عرف الله وجلاله كيف يخالف أمره، وينتهك حريمه؟! فقال الحكيم: بإغفال الحذر، وبسط أمد الأمل، وبعسى، وسوف، ولعلَّ. قال الملك: بم يُعتَصَمُ من الشهوة، وقد رُكِّبَتْ في أبدان ضعيفة؛ ففي كل جزء من البدن للشهوة حلول ووطن؟! قال الحكيم: إن الشهوة من نتاج الفكر، وقرينُ كلِّ فكرةٍ عِبرةٌ، ومع كل شهوة زاجرٌ عنها، فمن قَرَن شهواتِهِ بالاعتبارِ، وحاط نفسَه بالازدِجار، انحلَّت عنه رِبْقَةُ[1] العدوان، ودَحَض سيِّءَ فِكرِهِ بإيثار الصبر على شهوته؛ لما يرجو من ثواب الله على طاعته، ويخاف من عقابه على معصيته»[2].

وقال بشر الحافي- لحسن الفلاس-: «من جعل شهوات الدنيا تحت قدميه فَرَقَ الشيطان من ظله، ومن غلب علمه هواه فهو الصابر الغالب، واعلم أن البلاء كله في هواك، والشفاء كله في مخالفتك إياه».

وقيل للمهلب بن أبي صفرة: «بم نلتَ ما نلتَ؟ قال: بطاعة الحزم، وعصيان الهوى»[3].

وقال أبو علي الدقاق: «من ملك شهوته في حال شبيبته صيَّره الله مَلِكًا في حال كهولته؛ كيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]».

---

(١) الرِّبقة- في الأصل-: عُروة في حبل تُجعل في عنق البهيمة أو يدها تمسكها، لسان العرب (١٠/ ١١٣)، وتطلق مجازًا على كل ما يقيد المرء من القيود، حسية كانت أو معنوية.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة (٩٤).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقل وفضله (٩٢).

وقال عبد الصمد الزاهد: «من لم يعلم أن الشهوات فُخُوخٌ فهو لَعَّابٌ»[١].

وقال أعرابي- لابنه-: «يا بنيَّ من خاف الموتَ بادَرَ الفوتَ[٢]، ومن لم يَكبحْ نفسه عن الشهوات بادرتْ به إلى الهلكات، والجنة والنار أمامك».

وقال بعض الحكماء: «أعدل الناس من أنصف عقله من هواه»[٣].

وقال آخر: «العاقل من كان له على جميع شهواته رقيب من عقله».

وقال آخر: «الهوى مَلِكٌ عسوفٌ[٤]، وسلطان ظالم، دانت له القلوب، وانقادت له النفوس».

وقال آخر: «إن لكل شيء أبا جاد، وإن أبا جاد الحكمة: طردُ الهوى، ووزنُ الأعمال».

ذكر أشعار قيلت في ذمِّ الهوى

عن عامر بن صالح قال: «دخل الوليد بن يزيد بعض كنائس الشام فكتب في حيطانها بفحمة:

مـا أَرَى العـيشَ غيـرَ أنْ تُتْبِـعَ النْـ ـنَفْسَ هواهَـا فمخطئًـا أو مُصِـيبَا

فرأى ذلك البيتَ عبدُ الله بن علي فكتب تحته:

---

(١) المصدر السابق (ص٣١).

(٢) الفَوْتُ: الفَوات، وفاتَني كذا، أي: سبقني، لسان العرب (٢/ ٦٩)، والمقصود: أنه بادر وسبق ما يُخاف فواته من قربات، وأدَّى مراد الله من خلقه قبل موته.

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني (ص٢٥١).

(٤) فعول من العَسف: وهو ركوب الأمر بلا تدبير ولا رويَّة، لسان العرب (٩/ ٢٤٥).

إنْ كنتَ تعلمُ حينَ تُصبِحُ آمنًا ... أنَّ المنايَا إنْ أقمتَ تقيمُ

فالزَمْ هواكَ كَمَا رَضِيتَ فإنَّهُ ... لَا مِثْلَ ذلك في النعيمِ نعيمُ

ورأيتُ لبعض المتقدمين في هذا المعنى:

وبالناسِ عاشَ الناسُ قِدْمًا ولم يَزَلْ ... مِنَ النَّاسِ مرغوبٌ إليهِ وراغِبُ

ومَا يَستوي الصَّابِي[1] ومَن تَرَكَ الصِّبَا ... وإنَّ الصِّبَا لَلْعَيشُ لولَا العواقبُ

وعن الأصمعي قال: «سمعتُ رجلًا يقول:

إنَّ الهوانَ هو الهوَى قُلِبَ اسمُهُ ... فَإِذَا هَوِيتَ فقد لَقِيتَ هَوَانَا»[2]

قلت: وقد سئل ابن المقفع عن الهوى، فقال: «هوان سُرقت نونه، فنظمه شاعر، فقال:

نونُ الهوانِ مِنَ الهوَى مسروقةٌ ... فإذا هَوِيتَ فقد لَقِيتَ هَوَانَا»[3]

وعن أبي بكر القرشي قال: «أنشدني الحسن بن سلمان الأبلي:

كم أسيرٍ لشهوةٍ وقتيلِ ... أفٍّ للمشتهِي خلافَ الجميلِ

شهواتُ الإنسانِ تُورِثُهُ الذُّلْـ ... ـلَ وتُلْقِيهِ فِي البلاءِ الطويلِ»[4]

---

(١) هو من كانت له صبوة، والصبوة: جَهْلة الفتوة واللهو من الغزل، لسان العرب (١٤/ ٤٤٩).

(٢) أدب الدنيا والدين (ص٢٩).

(٣) الرسالة القشيرية (١/ ٢٨٧).

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٥/ ٣٠٦).

وأنشد علي بن عبد العزيز بن حاجب النعمان:

رُبَّ مستورٍ سَبَتْهُ صَبْوَةٌ فَتَعَرَّى سِتْرُهُ فَانْتُهِكَا
صاحبُ الشهوةِ عبدٌ فَإِذَا غَلَبَ الشهوةَ صارَ المَلِكَا

وقد أنشدوا لابن المبارك[1]:

ومِنَ البلاءِ وللبلاءِ علامةٌ أنْ لا يُرَى لك عن هواكَ نُزُوعُ
العبدُ عبدُ النفسِ في شهواتِهِ والحرُّ يَشْبَعُ تارةً ويجوعُ

ولمحمد بن عبد الله بن مناذر:

خيرُ مَا اجْتَنَّ[2] بِهِ المرءُ التُّقَى فَاتَّخِذْهَا عُدَّةً دونَ العُدَدْ
وأَرَى الشهوةَ مفتاحَ الرَّدَى فَاجْتَنِبْهَا وَانْأَ[3] عنها وابتعِدْ

ولصالح بن عبد القدوس:

عَاصِ الهوَى إنَّ الهوَى مركَبٌ يَصْعُبُ بعدَ اللِّينِ منه الذَّلِيلُ
إنْ يَجلِبِ اليومَ الهوَى لذَّةً ففي غدٍ منه البُكَا والعَوِيلُ
مَا بينَ مَا يُحمَدُ فيهِ ومَا يدعو إليكَ الذَّمَّ إلَّا القليلُ

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/ ٤٦٨).
(٢) الاجتنان: الاستتار، الصحاح (٥/ ٢٠٩٥).
(٣) نَأَى يَنْأَى: بَعُدَ، لسان العرب (١٥/ ٣٠٠).

ولابن الرومي:

اتْبَـعِ العقــلَ إنَّــهُ حــاكمُ اللَّـــ ـــهِ ولا تمـشِ في طريــقِ عنــادِهْ

مــا الهــوَى في لفيفِــهِ إنْ تأمَّلْـــ ـــتَ بقــرنٍ للعقــلِ في أجنــادِهْ

لا تُعَــرِّضْ ســدادَ رأيِـكَ للطَّعْـــ ـــنِ عليـهِ مِـن نـاقصٍ في سـدادِهِ

وقال آخر:

إذَا أنتَ لم تَعْصِ الهوَى قادَكَ الهوَى إلـى بعـضِ مـا فيـهِ عليـكَ مقـالُ

وقال غيره:

وأتــركُ الشيءَ أهواهُ ويُعجِبُني أخشَى عواقـبَ مـا فيـه مِنَ العَـارِ

وقال آخر:

وكـلُّ امـرئٍ يَـدْرِي مواقِـعَ رُشْـدِهِ ولكنَّـــهُ أعمَـــى أســـيرُ هـــواهُ

يُشيرُ عليـهِ الناصـحونَ بجهـدِهِمْ فيـأبَى قبـولَ النصـحِ وَهْـوَ يَـرَاهُ

هوَى نفسِهِ يُعْميهِ عَنْ قصدِ رُشْدِهِ وَيُبْصِــرُ عَــنْ فهــمٍ عيــوبَ سِــوَاهُ



الباب الثالث

في ذكر مجاهدة النفس ومحاسبتها وتوبيخها

اعلم- وفقك الله- أن النفس مجبولة على حب الهوى، وقد سبق بيان أذاه، فافتقرت لذلك إلى المجاهدة والمخالفة، ومتى لم تُزجر عن الهوى هجم عليها الفكر في طلب ما شغفت به، فاستأنست بالآراء الفاسدة، والأطماع الكاذبة، والأماني العجيبة، خصوصًا إنْ ساعَدَ الشبابُ- الذي هو شعبة من الجنون- وامتد ساعِدُ القدرة إلى نيل المطلوب.

عن شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وعَمِلَ لِـمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّىٰ عَلَىٰ اللهِ**»[1].

وقال أحمد بن يحيى النحوي: «الكَيِّسُ- عند العرب-: العاقل، والكَيْسُ: العقل. وأنشد:

فَكُنْ أَكْيَسَ الكَيْسَى إذا ما لقيتَهُمْ   وكُنْ جاهلًا إمَّا لقيتَ ذَوِي الجهْلِ

وقوله: (**مَنْ دَانَ نَفْسَهُ**) معناه: مَنِ استعبد نفسَه وأذلَّها لطاعة الله.

ومن روى: (**مَنْ أَدَانَ نَفْسَهُ**) معناه: أخذ لنفسه من نفسه؛ من صحته لسقمه، ومن غناه لفقره.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٢٣)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠).

قال الأعشى:

هــو دانَ الرِّبــابَ إذْ كرهــوا الــدينَ   دِرَاكًــــــا بغـــــــزوةٍ وَصِـــــيالِ

معناه: هو استعبد الرباب[1].

وعن فضالة بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[2].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ الشَّدِيْدُ مَنْ غَلَبَ النَّاسَ، وَلَكِنَّ الشَّدِيْدَ مَنْ غَلَبَ نَفْسَهُ**»[3].

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قدم النبيُّ ﷺ من غزاة له، فقال لهم رسول الله ﷺ: **قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ، وَقَدِمْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَىٰ الْجِهَادِ الأَكْبَرِ**، قالوا: وما الجهادُ الأكبر يا رسول الله؟ قال: **مُجَاهَدَةُ الْعَبْدِ هَوَاهُ**»[4].

[جهاد النفس الجهاد الأكبر]

اعلم أنه إنما كان جهاد النفس أكبر من جهاد الأعداء؛ لأن النفس محبوبة وما تدعو إليه محبوب؛ لأنها لا تدعو إلا إلى ما تشتهي، وموافقة المحبوب في المكروه محبوبة، فكيف إذا دعا إلى محبوب؟!

---

(١) دان الرِّبابَ، أي: أذلها، لسان العرب (١٣/ ١٦٩)، والدِّراك: اتباع الشيء بعضه على بعض في الأشياء كلها، لسان العرب (١٠/ ٤٢٠)، والصيال مصدر الفعل صال، وصال عليه، أي: استطال ووثب، مختار الصحاح (ص١٨٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٩٥١)، والترمذي (١٦٢١).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠١٥٦)، وابن حبان (٧١٧).

(٤) أخرجه البيهقي في الزهد (٣٧٣).

فإذ عُكِسَتِ الحالُ وخُولف المحبوبُ فيما يدعو إليه من المحبوب اشتد الجهاد، وصَعُبَ الأمرُ، بخلاف جهاد الكفار؛ فإن الطباع تحمل على خصومة الأعداء.

وقال ابن المبارك- في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨]، قال-: «هو جهاد النفس والهوى».

[حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا]

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حاسبوا أنفسَكم قبل أن تحاسبوا، وزِنُوا أنفسَكم قبل أن توزنوا؛ فإنه أهونُ عليكم في الحسابِ غدًا أن تحاسبوا أنفسكم يومَ القيامةِ، وتَزَيَّنُوا للعرضِ الأكبرِ، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]»[١].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سمعتُ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومًا، وخرجتُ معه حتى دخل حائطًا، فسمعته يقول- وبيني وبينه جدار-: عمر ابن الخطاب بخٍ بخٍ، والله بُنَيَّ الخطابِ، والله لَتَتَّقِيَنَّ اللهَ، أو ليعذِّبَنَّكَ»[٢].

عن الحسن قال: «أيسرُ الناس حسابًا يوم القيامة الذين يحاسبون أنفسهم لله ﷻ في الدنيا، فوقفوا عند همومهم وأعمالهم، فإن كان الذي هموا به لله ﷻ مضوا فيه، وإن كان عليهم أمسكوا. قال: وإنما يثقل الحساب يوم القيامة على الذين جازفوا[٣] الأمورَ في الدنيا واتخذوها على غير محاسبة، فوجدوا الله ﷻ قد أحصى عليهم مثاقيل الذر، ثم قرأ: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٦٣٣)، وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٢).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢٤).

(٣) المُجازَفَة: المخاطرة، يقال: جازف بنفسه، إذا خاطر بها، تاج العروس (١٢/ ١١٤).

وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]»[١].

وعنه قال: «إن المؤمن قوَّامٌ على نفسه، يحاسب نفسه لله ﷻ، وإنما خفَّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شقَّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة؛ إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه، فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات، حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء، فيرجع إلى نفسه، فيقول: ما أردت إلى هذا، ما لي ولهذا، والله لا أعود إلى هذا أبدًا- إن شاء الله- إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن، وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا، يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله ﷻ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه وجوارحه»[٢].

وعنه في وصية لقمان لابنه: «يا بني إن الإيمان قائد، والعمل سائق، والنفس حَرُونٌ[٣]، فإن فتر سائقها ضلَّت عن الطريق، وإن فتر قائدها حرنت، فإذا اجتمعا استقامت، إن النفس إذا أُطمِعتْ طمعتْ، وإذا فَوَّضتَ إليها أساءتْ، وإذا حملتها على أمر الله صلحت، وإذا تركتَ الأمرَ إليها فسدتْ، فاحذر نفسَكَ واتَّهِمْهَا على دينك، وأنزلها منزلةَ مَن لا حاجة له فيها، ولا بدَّ له منها، وإن الحكيم يذل نفسه بالمكاره حتى تعترف بالحق، وإن الأحمق يخير نفسه في الأخلاق، فما أحبَّتْ منها أَحَبَّ، وما كرهتْ منها كره»[٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (١٤٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٥٢٠٩).

(٣) يُقال: فرس حرون مِن خَيل حُرُنٍ: لا يَنقادُ، إذا اشتَدَّ به الجريُ وقف، لسان العرب (١٣/ ١١٠).

(٤) أخرجه الآجري في أدب النفوس (ص٢٧١).

وعن قتادة يقول: «يا ابنَ آدمَ، إن كنتَ تريد أن لا يأتي الخير إلا عن نشاط فإن نفسك إلى السآمة والفتور والملل أقرب، ولكن المؤمن هو العجَّاجُ[١]، والمؤمن هو المتوقِّي[٢]، والمؤمن هو المتشدد، وإن المؤمنين هم العجَّاجون إلى الله ﷻ بالليل والنهار، والله ما زال المؤمنون يقولون: ربنا ربنا- في السر والعلانية- حتى استجاب لهم»[٣].

وعن الحسن قال: «حادِثُوا هذه القلوبَ؛ فإنها سريعة الدثور[٤]، واقرعوا[٥] هذه الأنفس؛ فإنها طُلَعَةٌ[٦]، وإنها تنازع إلى شر غاية، وإنكم إن تقاربوها لم تُبقِ لكم من أعمالكم شيئًا؛ فتصَبَّروا وتشَدَّدُوا؛ فإنما هي ليالٍ تُعَدُّ، وإنما أنتم ركبٌ وقوفٌ يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت، فانقلبوا بصالح ما بحضرتكم. إن هذا الحق أجهد الناسَ، وحال بينهم وبين شهواتهم، وإنما صَبَرَ على هذا الحق من عرف فضله ورجا عاقبته»[٧].

وعن مجاهد- في قوله: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]- قال: «تندم على

---

(١) فعَّال من العجِّ، وهو: رفع الصوت، وقُيِّدَ بالدعاء والاستغاثة، الصحاح (١/ ٣٢٧)، لسان العرب (٢/ ٣١٨).

(٢) متفعِّل من: وَقَيتُ الشيء أَقِيه إذا صُنتُه وسترته عن الأذى، لسان العرب (١٥/ ٤٠١).

(٣) أخرجه الآجري في أدب النفوس (ص٢٦٧).

(٤) الدُّثُور: الدُّروس، ودثر الشيءُ يَدثر دُثورًا واندثَر: قدُم ودَرَسَ، لسان العرب (٤/ ٢٨٦).

(٥) قَرَعَ الشيءَ يَقرَعُهُ قَرعًا: ضربه؛ ولذلك قيل للتَّوبيخ: تقريعٌ، لسان العرب (٨/ ٢٦٣)، (١٥/ ٦٦).

(٦) النفس الطُّلَعَة هي: الكثيرةُ التطلُّعِ إلى الشيء، أي: أنها كثيرة الميل إلى هواها، لسان العرب (٨/ ٢٣٧).

(٧) أخرجه الآجري في أدب النفوس (ص٢٧٠).

ما فات وتلوم نفسها»[١].

وعن ميمون بن مهران قال: «لا يكون الرجل تقيًّا حتى يحاسب نفسه محاسبته لشريكه»[٢].

وعن سلمة بن منصور عن مولى لهم كان يصحب الأحنف بن قيس قال: «كنتُ أصحبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء، وكان يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه، ثم يقول: حس. ثم يقول: يا حنيف، ما حملك على ما صنعتَ يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعتَ يوم كذا؟»[٣].

وعن عبد الجبار بن النضر قال: «مرَّ حسان بن أبي سنان بغرفة، فقال: متى بنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه، فقال: تسألين عما لا يعنيك لأعاقبنك بصوم سنة فصامها»[٤].

وعن منكدر بن محمد عن أبيه: «أنَّ تميمًا الداري نام ليلة لم يقم يتهجد فيها، فقام سنة لم ينم فيها عقوبةً للذي صنع»[٥].

وقال معاوية بن هشام بن عبد الملك- لخالد بن صفوان-: «بم بلغ فيكم الأحنف بن قيس ما بلغ فذكر كلامًا طويلًا إلى أن قال: كان أشدَّ الناس على نفسه سلطانًا»[٦].

---

(١) المصدر السابق (ص٢٧١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٥٦٢٥)، ووكيع بن الجراح في الزهد (٢٣٩).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (١٣).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٥٣)، والبيهقي في الشعب (٤٧٣١).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٥٥)، والبيهقي في الشعب (٢٩٣٥).

(٦) صفة الصفوة (٢/ ١١٧).

وعن محمد بن سعيد الدارمي عن أبيه قال: «قيل لرجل: صف لنا الأحنف ابن قيس. فقال: ما رأيت أحدًا أعظم سلطانًا على نفسه منه. قال: قال سليمان ابن عبد الملك بن هشام- لخالد بن صفوان-: بم بلغ فيكم الأحنف بن قيس؟ قال: إن شئتَ أخبرتُك عنه ألفًا، وإن شئتَ حذفتُ القول فيه حذفًا. قال: بل احذفه حذفًا. قال: إن شئتَ ثلاثًا، وإن شئتَ اثنتين، وإن شئتَ واحدة. قال: هاتِ الثلاثَ. قال: كان لا يشره[1]، ولا يحيد[2]، ولا يمنع أحدًا من حق. قال: فهاتِ الاثنتين. قال: كان موفقًا للخير، معصومًا عن الشر. قال: فهاتِ الواحدة. قال: لم أَرَ أحدًا قط كان أقوى سلطانًا على نفسه منه»[3].

وعن ابن أبي شميلة قال: «دخل رجل على عبد الملك بن مروان- ممن كان يوصف بالعقل والأدب- فقال له عبد الملك: تكلم، فقال: بِمَ أتكلم، وقد علمت أن كل كلام يتكلم به المتكلم عليه وبال، إلا ما كان لله؟! فبكى عبد الملك، ثم قال: يرحمك الله لم يزل الناس يتواعظون ويتواصون. قال: يا أمير المؤمنين، إن للناس في القيامة جولةً لا ينجو من غصص مرارتها إلا من أرضى اللهَ بسخطِ نفسِهِ»[4].

وقال عبد الله بن الأهتم- لابنه-: «يا بني تَوَقَّ نفسك؛ فإن في خلافها رشدك»[5].

---

(١) مِن الشَّرَهِ: وهو غَلَبَةُ الحِرص، الصحاح (٦/ ٢٢٣٧).

(٢) حَادَ عن الشيءِ يَحيد حَيدًا: مال عنه وعدَلَ، لسان العرب (٣/ ١٥٩)، والمقصود: أنه لا يعدل عن الحق والصراط السوي.

(٣) العقد الفريد، لابن عبد ربه (٢/ ١٣٦).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (١٠٥).

(٥) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٧/ ١٠٩).

وعن وهب بن منبه: «أن رجلًا تعبَّد زمانًا، ثم بدت له إلى الله ﷻ حاجة فصام سبعين سبتًا يأكل في كل سبت إحدى عشرة تمرةً، ثم سأل حاجته، فلم يُعطَهَا، فرجع إلى نفسه، فقال: منك أُتيتُ، لو كان فيكِ خير أُعطيتِ حاجَتَكِ! فنزل إليه عند ذلك مَلَكٌ، فقال: يا ابنَ آدمَ، ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت، وقد قضى الله حاجتك»[١].

وقال محمد بن المنكدر: «إني خلَّفتُ زياد بن أبي زياد مولى ابن عياش، وهو يخاصم نفسه في المسجد يقول: اجلسي، أين تريدين؟ أين تذهبين؟ أتخرجين إلى أحسنَ من هذا المسجد؟! انظري إلى ما فيه، تريدين أن تبصري دار فلان ودار فلان. قال: وكان يقول لنفسه: ما لك من الطعام إلا هذا الخبز والزيت، وما لك من الثياب إلا هذين الثوبين، وما لك من النساء إلا هذه العجوز، أَفَتُحبِّينَ أن تموتي، فقالت: أنا أصبر على هذا العيش»[٢].

وقال حذيفة بن قتادة: «قيل لرجل: كيف تصنع في شهوتك؟ قال: ما في الأرض نفس أبغض إليَّ منها، فكيف أعطيها شهوتها؟!»[٣].

وعن عبد الله بن المبارك قال: «إن الصالحين- فيما مضى- كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفوًا[٤]، وإن أنفسنا لا تكاد تواتينا إلا على كره، فينبغي لنا أن نُكرِهَهَا»[٥].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٦٠).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (١٤٧).
(٣) المصدر السابق (٥٨).
(٤) المقصود: أن أنفسهم لما زَكَت واتَتهُم على أمور الخير بسهولة، ودون إكراه.
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (١٤٣).

وعن جميلة بن الحارث أنه كان يقول: «اعكسوا هذه الأنفس عكس الخيل باللجم، فوالذي نفسي بيده، إني لألبس ما يساوي ثلاثةَ دراهمَ، فأظلُّ أنظر في عطفيَّ[1]»[2].

وعن محمد بن سليمان بن بلال بن أبي الدرداء: «أن أمه عثامة كُفَّ بصرُهَا، فدخل عليها ابنها يومًا وقد صلى، فقالت: أصليتم بُنَيَّ، فقال: نعم، فقالت:

عثـــامِ مـــا لـــكِ لاهيـــهْ   حَلَّـــتْ بـــدارِكِ داهيـــهْ

ابكـــي الصـــلاةَ لوقتهـــا   إن كنـــتِ يومًـــا باكيـــهْ

وابكـــي القُـــرَآنَ إذا تُلِـــي   قـــد كنـــتِ يومًـــا تاليـــهْ

تتلينـــــه بتفكُّـــــرٍ   ودمـــوعُ عينـــكِ جاريـــهْ

فـــاليومَ لا تتلينَـــهُ   إلَّا وعنـــدَكِ تاليـــهْ

لهفـــي عليـــكِ صـــبابةً   مـــا عشـــتُ طـــولَ حياتيـــهْ»[3]

وقال عمر بن عبد العزيز: «أفضل الأعمال ما أُكْرِهَتْ عليه النفوسُ»[4].

وعن عمر بن واصل قال: سمعت سهلًا يقول: «من صحب نفسه هلك، ومن صحبته نفسه لم يسلم».

---

(١) عِطْفا الرجل: جانباه من لدن رأسه إلى وركيه، الصحاح (٤/ ١٤٠٥).
(٢) أخرجه الخرائطي في مساوئ الأخلاق (٥٧٤) غير أنه قال: عن حملة بن الحارث.
(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٩/ ٢٦٧).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (١١٣).

وعن أبي بكر الوراق قال: «استعن على سيرك إلى الله بترك مَنْ شغلك عن الله ﷻ، وليس بشاغل يشغلك عن الله ﷻ كنفسك التي هي بين جنبيك».

وعن أبي علي الروذباري قال: «النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب؛ فالنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة، والعبد مجتهد في ردها، فمتى أعانها فهو شريكها في فسادها»[١].

وعن خلف بن الحسن العباداني قال: سمعت سمنونًا المحب يقول: «أول وصال العبد للحق هجرانه لنفسه، وأول هجران العبد للحق مواصلته لنفسه»[٢].

وعن علي بن سعيد قال: «رأيتُ في النوم امرأة لا تشبه نساء الدنيا، فقلت: من أنتِ؟ قالت: حوراءُ، قلت: زوجيني نفسَكِ، فقالت: اخطبني إلى سيدي، قلت: فما مهرُكِ؟ قالت: حبسُ نفسِكَ عن مألوفاتها»[٣].

وقال الفضيل بن عياض- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] قال-: «لا تغفلوا عن أنفسكم؛ فإن من غفل عن نفسه فقد قتلها»[٤].

وعن أبي عمران الحديثي يقول: «ما مددتُ يدي مُذْ عقلتُ عن الله ﷻ بشيء[٥] ولنفسي فيه نصيب، ولولا أن الله ﷻ أودَعَنا هذه النفوسَ بحفظها له، لجعَلْنَا على ذروة كلِّ جبلٍ منها قطعةً».

وعن السري قال: «أقوى الفتوةِ غلبتُكَ نفسَكَ، ومن عجز عن أدب نفسه

(١) الرسالة القشيرية (١/ ٢٨٣).
(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣١١).
(٣) إحياء علوم الدين (٤/ ٥٠٨).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٩٥).
(٥) سقطت لفظة (بشيء) من الطبعتين السابقتين وهي ثابتة في مخطوط مكتبة (كوبريلي).

كان عن أدب غيره أعجزَ، ومن علامة الاستدراج: العمى عن عيوب النفس»[١].

عن حاتم الأصم قال: «الموت الأحمر مخالفة النفس»[٢].

وعن أحمد بن أبي الحواري قال: «من لم يعرف نفسه فهو من دينه في غرور»[٣].

وقال رجل لأحمد بن خضرويه: أوصني، فقال: «أَمِتْ نفسَكَ تُحْيِهَا»[٤].

وقال يحيى بن معاذ: «لا تربح على نفسك بشيءٍ أجلَّ مِن أن تشغَلَها في كلِّ وقتٍ بما هو أولى بها»[٥].

وعن أحمد بن حمدون قال: سمعت أبي يقول: «من استطاع منكم أن لا يعمى عن نقصان نفسه فليفعل»[٦].

وقال محمد بن الفضل: «أنزل نفسَكَ منزلةَ من لا حاجة له فيها، ولا بدَّ له منها؛ فإن من ملك نفسه عزَّ، ومن ملكته نفسه ذلَّ»[٧].

وقال أبو سعيد الخراز: «مثل النفس مثل ماء واقف طاهر صافٍ، فإنْ حرَّكْتَهُ ظهر ما تحته من الحمأة، وكذا النفس تظهر عند المحن والفاقة والمخالفة، ومن لم يعرف ما في نفسه كيف يعرف ربه؟!»[٨].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٢٤)، والبيهقي في الزهد الكبير (٣٥٠).
(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٧٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٣٢٢).
(٣) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص٩٣)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٧).
(٤) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص٩٧).
(٥) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص١٠٣).
(٦) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص١١٣).
(٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٣٣).
(٨) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص١٨٥).

وعن أبي محمد الجريري قال: «من استولت عليه النفس صار أسيرًا في حكم الشهوات، محصورًا في سجن الهوى، وحرم الله على قلبه الفوائد؛ فلا يستلذ كلامه ولا يستحليه، وإن كثر ترداده على لسانه»[١].

وقال محمد بن أحمد بن سالم البصري: «من صبر على مخالفة نفسه أوصله الله إلى مقام أنسه»[٢].

وقال أبو بكر ابن الضرير المقري: «دافعتُ الشهواتِ حتى صارت شهوتي المدافعة»[٣].

وعن الجنيد قال: «ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع، وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات»[٤].

ذكر أشعار قيلت في ذلك:

عن الحسين بن عبد الرحمن قال: «حجَّ سعيد بن وهبٍ ماشيًا فبلغ منه وجَهِدَ، فقال:

قدمَيَّ اعتَوِرَا رملَ الكَثِيبِ   واطْرُقَا الآجِنَ من ماءِ القليبِ[٥]

رُبَّ يومٍ رُحْتُما فيهِ على   زهرةِ الدنيا وفي وادٍ خصيبِ

(١) الرسالة القشيرية (١/ ١٠٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣٧٨).

(٣) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٣/ ٢٥١).

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٧٧)، والخطيب في تاريخ بغداد (٨/ ١٦٨).

(٥) الآجن: الماء المتغيِّر الطعم واللون، الصحاح (٥/ ٢٠٦٧)، القَلِيبُ: البئر، قبل أن تُطوَى، لسان العرب (١/ ٦٨٩).

وسماع حَسَنٍ من حَسَن ... صَخَب المِزْهَرِ كالظبيِ الربيبِ[1]

فاحسبا ذاك بهذا واصبرا ... وخذا من كل فنٍّ بنصيبِ

إنما أمشي لأني مذنب ... فلعلَّ اللهَ يعفو عن ذنوبي»

وأنشد أبو عبد الله محمد بن أحمد الشيرازي الواعظ:

«إذا ما أطعتَ النفس في كلِّ لذةٍ ... نُسبتَ إلى غير الحجا[2] والتَّكَرُّمِ

إذا ما أجبتَ النفس في كل دعوةٍ ... دعَتْكَ إلى الأمر القبيح المحرَّمِ»

وقال عبد الله بن المعتز:

«وكم دُهِيَ[3] المرء من نفسه ... فلا تؤكَلَنَّ بأنيابِهَا

وإن أمكنتْ فرصة في العدوْ ... وِ فلا يبد فعلُكَ إلا بِهَا

وإياك من ندم بعدها ... وتأميل أخرى وأنَّى بِهَا؟!»

وأنشدني أبو زيد بن الحسن الطبري:

---

(١) الصَّخَبُ: الصِّياح والجَلَبة، وشدة الصوت واختلاطه، لسان العرب (١/ ٥٢١)، المِزْهَرُ: العود الذي يُضرب به في الغناء، النهاية في غريب الحديث (٤/ ٣٢٥)، الرَّبائب: الغنم التي تكون في البيت، وليست بسائمة، واحدتها ربيبة، بمعنى: مربوبة؛ لأن صاحبها يربيها، لسان العرب (١/ ٤٠٢).

(٢) الحِجَا مَقصورٌ: العَقل والفطنة، لسان العرب (١٤/ ١٦٥).

(٣) دَهَى: إصابة الشيء بالشيء بما لا يسر، يقال: ما دهاه؟، أي: ما أصابه؟، ولا يقال ذلك إلا فيما يسوء، مقاييس اللغة (٢/ ٣٠٥).

«إذا طالبتك النفس يومًا بحاجة فكان عليها للقبيح طريقُ
فدعها وخالف ما هويتَ فإنما هواك عدوٌّ والخلافُ صديقُ

[موافقة الهوى تورث ذلًّا في النفس]

واعلم أن المغلوب بموافقة الهوى والنفس مقهور؛ ولذلك تجد في نفسه ذلًّا لمكان القهر، وغالِبُ الهوى ذو صَوْلة، ولذلك وقْعٌ عظيم في الشرع وعند الخلق.

أما في الشرع فإن قهر الهوى يوجب المباهاة.

عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ شَابٍّ لَيْسَ لَهُ صَبْوَةٌ**»(١).

وعن يزيد بن ميسرة قال: «إن الله ﷻ يقول: أيها الشاب التاركُ شهوَتَهُ من أجلي أنت عندي كبعض ملائكتي»(٢).

وأما عند الخلق فإنهم يعجبون من الزاهد، ويذلون له؛ لأنه قوي على حمل ما ضعفوا عنه، وهجر ما لا يستطيعون هجره.

وقد كان أهل الحزم يُعَوِّدون أنفسهم مخالفة هواها، وإن كان مباحًا؛ ليقع التمرين للنفس على ترك الهوى مطلقًا، وليطلب الأرباح في المعاملة بترك المباح.

وعن عبد الله بن أبي عثمان قال: «كان عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أعتق جاريته التي يقال لها رميثة، وقال: إني سمعت الله قال- في كتابه-: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وإني- والله- إن كنتُ لَأُحِبُّكِ في الدنيا،

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٣٧١)، والطبراني في الكبير (٨٥٣).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٣٧).

اذهبي فأنت حرة لوجه الله»[١].

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: «رأيتُ سفيان الثوري في المنام، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: لم يكن إلا أن وُضعتُ في اللحد حتى وقفتُ بين يدي الله تعالى فحاسبني حسابًا يسيرًا، ثم أمر بي إلى الجنة، فبينا أنا أدور بين أشجارها وأنهارها، ولا أسمع حِسًّا ولا حركةً؛ إذ سمعتُ قائلًا يقول: سفيان بن سعيد، فقلت: سفيان بن سعيد، قال: تحفظ أنك آثرت الله على هواك يومًا؟ قال: قلتُ: إي والله، فأخذتني صواني النُّثَارِ[٢] من جميع الجنة»[٣].

وقد قال بعض الحكماء: «ظاهر التقوى شرف الدنيا، وباطنها شرف الآخرة».

واعلم أنك إذا عكستَ هذه الحال في حق موافق الهوى والنفس رأيتَ الذل ملازمًا، والجاه منكسرًا، وكذلك الأمر عند المخلوقين في الأمرين جميعًا؛ فإنه من عُرف عندهم بقهر الهوى عظم، ومن نُبز بأنه مقهور الهوى أُهين؛ فالعجب من سكرة ذي الهوى كيف غلبتْ عليه، فلما أفاق لم يَرَ غير اللوائم».

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٩٥).

(٢) صواني الحلوى وما يقدم للضيف، لسان العرب (٥/ ١٩١).

(٣) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ٤٤٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥١/ ١٨٤).



الباب الرابع
في مدح الصبر والحث عليه

وإذ قد قدمنا ذمَّ الهوى وأَمَرْنا بمخالفة النفس، ولا إمكان لمخالفتها وتركِ هواها إلا بالصبر، فلنقل في فضله وشرفه والأمر به، والله الموفق.

الصبر- في اللغة-: الحبس، وكل من حبس شيئًا فقد صبَرَهُ، ومنه المصبورة التي نُهي عنها، وهي الدجاجة ونحوها تتخذ غرضًا وترمى حتى تقتل، وسمي رمضان شهر الصبر؛ لأنه شهر تحبس فيه النفس عما تنازع إليه من المطعم والمشرب والمنكح، والصابر حابس لنفسه عما تُنازع إليه من المُشتهَى أو شكوى ألم، وسمي الصابر في المصيبة صابرًا؛ لأنه حبس نفسه عن الجزع.

وحكى أبو بكر ابن الأنباري عن بعض العلماء أنه قال: «إنما سمي الصبر صبرًا؛ لأنَّ تمرُّرَهُ في القلب وإزعاجه للنفس كتمرُّر الصَّبِر(١) في الفم»(٢).

واعلم- وفقك الله- أن الصبر مما يأمر به العقل، وإنما الهوى ينهى عنه فإذا فوضلت فوائد الصبر وما تجلب من الخير عاجلًا وآجلًا بانت حينئذ فضائل العقل وخساسة الهوى.

[أقسام الصبر]

واعلم أن الصبر ينقسم قسمين: صبر عن المحبوب، وصبر على المكروه؛

---

(١) الصَّبِرُ: عُصارة شجر مُرٍّ، واحدته: صَبِرَة، وجمعه: صُبُور، لسان العرب (٤/ ٤٤٢).
(٢) شرح أدب الكاتب، لابن الجواليقي (ص٤٠).

فالطاعة مفتقرة إلى الصبر عليها، والمعصية مفتقرة إلى الصبر عنها.

ولما كانت النفس مجبولة على حب الهوى فكانت بالطبع تسعى في طلبه، افتقرت إلى حبسها عما تؤذي عاقبته.

ولا يقدر على استعمال الصبر إلا من عرف عيب الهوى وتلمَّح عقبى الصبر فحينئذ يهون عليه ما صبر عليه وعنه.

وبيان ذلك بمثلٍ وهو: أن امرأة مستحسنة مرت على رجلين فلما عرضت لهما اشتهيا النظر إليها فجاهد أحدهما نفسه وغض بصره، فما كانت إلا لحظة ونسي ما كان، وأوغل الآخر في النظر فعلِقت بقلبه، فكان ذلك سبب فتنته وذهاب دينه، فبان لك أن مدافعة المعصية حتى تذهب أسهل من معاناة التوبة حتى تقبل، وقد قال بعض السلف: «من تخايل الثواب خف عليه العمل».

[أحاديث وآثار في الأمر بالصبر]

قد حث الله ﷻ على الصبر في كتابه وأمر به ومدح أهله فهو مذكور في نحوٍ من سبعين موضعًا من القرآن وهو في الحديث المنقول كثير.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»(١).

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اعلموا أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ألا وإنه لا إيمان لمن لا صبر له»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصبر (٨).

وقال الأشعث بن قيس: «إنك إن صبرت إيمانًا واحتسابًا، وإلا سلوت[١] كما تسلو البهائم»[٢].

وعن ميمون بن مهران قال: «الصبر صبران: الصبر على المصيبة حسَنٌ، وأفضل من ذلك الصبر عن المعاصي، وما نال أحد شيئًا من جميع الخير- نبي فمن دونه- إلا بالصبر»[٣].

وعن سليمان بن القاسم قال: «كل عمل يُعرف ثوابه إلا الصبر قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] قال: كالماء المنهمِر»[٤].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ: قِلَّةُ الصَّبْرِ**»[٥].

وقال الحسن: «إنما يدرك ابن آدم حاجته في صبر ساعة».

وعن يعقوب بن إبراهيم الزهري عن أبيه قال: «جلس إليَّ يومًا زياد مولى ابن عياش، فقال: يا عبد الله، قلت: ما تشاء؟ قال: ما هي إلا الجنة والنار، قلت: والله ما هي إلا الجنة والنار، فقال: وما بينهما منزل ينزلُه العباد؟ قلت: وما بينهما منزل ينزله العباد، قال: فوالله إن نفسي لنفس أضِنُّ[٦] بها عن النار، ولَلصبر اليوم عن معاصي الله خير من الصبر على الأغلال»[٧].

---

(١) أي: صبرتَ، المصباح المنير (١/ ٢٨٧).

(٢) الآداب الشرعية، لابن مفلح (٢/ ١٩١).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصبر (١٨).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصبر (٢٠).

(٥) أخرجه الديلمي (٢/ ٧٧).

(٦) ضَنَّ بالشيء يَضَنُّ: بخِل به، المصباح المنير (٢/ ٣٦٥).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصبر (٥٤).

وقال الحارث المحاسبي: «لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر»[١].

وقال عمر بن عثمان المكي: «لقد وبَّخ الله التاركين للصبر على دينهم بما أخبرنا عن الكفار أنهم قالوا: ﴿ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٦] فهذا توبيخٌ لمن ترك الصبر من المؤمنين على دينه».

وسُئِل عبد الله الخزاز عن علامة الصبر، فقال: «تركُ الشَّكوى، وإخفاء الصبر والبلوى».

وقال أكثم بن صيفي: «حيلة من لا حيلة له الصبر»[٢].

وأنشد ابن مسروق:

إِذا طَالَعَـــك الكُـــرْهُ ... فَكُـــن بالصـــبرِ لَـــوَّاذَا

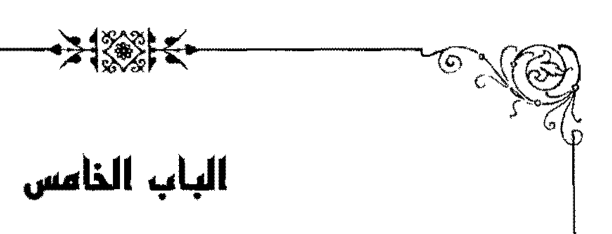
وإِلَّا ذَهَـــبَ الأَجـــرُ ... فـــلا هـــذَا ولا هـــذَا[٣]

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصبر (ص٦٢).

(٢) الأمثال، لابن سلام (ص١٦٢).

(٣) لَوَّاذ: فعَّال، من: لاذَ به لِواذًا ولِياذًا، أي: لجأ إليه، وعاذَ به، المصباح المنير (٢/ ٥٧٠).



الباب الخامس

في حراسة القلب من التعرض للشواغل والفتن

اعلم أن القلب في أصل الوضع سليم من كل آفة، والحواسُّ الخمس توصِل إليه الأخبار فترَقُمُ[1] في صفحته.

فينبغي أن يستوثق من سدِّ الطرق التي يُخشى عليه منها الفتن؛ فإنه إذا اشتغل بشيء منها أعرض عما خُلق له من التعظيم للخالق والفكرِ في المصالح، ورُبَّ فِتنَةٍ عِلقَ بهِ شَبَاهَا[2] فكانت سببًا في هلاكه.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ قَدْ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيْدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلَـمَّا يَبْنِ، وَلا آخَرُ قَدْ بَنَىٰ بُيُوْتًا وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُفَهَا، وَلا آخَرُ قَدِ اشْتَرَىٰ غَنَمًا، أَوْ خَلِفاتٍ، وَهُوَ يَنْتَظِرُ أَوْلادَهَا**»[3].

وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[4].

---

(١) رَقَمتُ الكتاب: كتبته فهو مرقوم، المصباح المنير (١/ ٢٣٦).
(٢) شباةُ كلِّ شيء: حدُّه، وطرَفُه، والجمع: الشَّبَا والشَّبوات، الصحاح (٦/ ٢٣٨٨).
(٣) أخرجه البخاري (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧).
(٤) أخرجه مسلم (١٥٩٩).

وعن وهيب: «أن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا باع جملًا، فقيل له: لو أمسكتَهُ، فقال: لقد كان موافقًا، ولكنه أذهب شعبة من قلبي، فكرهتُ أن أشغل قلبي بشيء»[١].

وعن الحارث بن نبهان قال: «قدمتُ من مكةَ فأهديتُ إلى مالك بن دينار رَكوةً[٢] فكانت عنده، فجئت يومًا فجلست في مجلسه فلما قضاه قال لي: يا حارث، تعالَ خذ تلك الركوة، فقد شغلتْ عليَّ قلبي، فقلت: يا أبا يحيى، إنما اشتريتها لك تتوضأ فيها وتشرب، فقال: يا حارث إني إذا دخلت المسجد جاءني الشيطان، فقال لي: يا مالك، إن الركوة قد سُرقت، فقد شغلتْ عليَّ قلبي»[٣].

وعن حارث بن أسد قال: «بلِيَّةُ العبد تعطيل القلب من فكر الآخرة، حينئذٍ تحدث الغفلة في القلب».

وعن ابن السماك عن امرأة كانت تسكن البادية قال: «سمعتها تقول: لو تطالعت قلوب المؤمنين بفكرها إلى ما ادخر لها في حجب الغيوب من خير الأجر لم يصفُ لهم في الدنيا عَيشٌ، ولم تَقرَّ لهم في الدنيا عين»[٤].

وقال أحمد بن خضرويه: «القلوب أوعية فإذا امتلأت من الحق أظهرت زيادة أنوارِها على الجوارح، وإذا امتلأت من الباطل أظهرت زيادة ظُلَمِها على الجوارح».

وقال أبو تراب: «ليس من العبادات شيء أنفع من إصلاح خواطر القلوب»[٥].

وقال إبراهيم بن أدهم: «طلبَ الملوكُ شيئًا ففاتهم وطلبناه فوجدناه، ما

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقاق (٥٣٦).

(٢) الرَّكوة: إناءٌ صغير من جلد يُشرب فيه الماء، والجمع ركوات، لسان العرب (١٤/ ٣٣٣).

(٣) صفة الصفوة (٢/ ١٦٨).

(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٢٤).

(٥) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص١٢٦).

يجوز همي كسائي هذا»[(١)].

وقال أبو محمد المرتعش: «ما نفعني من العبادات شيء ما نفعني جمع الهمَّة».

وسئل إبراهيم بن الحسن عن سلامة القلب، فقال: «العزلةُ، والصمتُ، وتركُ استماع خوض الناس، ولا يعقد القلب على ذنب ولا على حقد، ويهب لمن ظلمه حقه».

وقال أبو بكر محمد بن عمر العنبري وقد ودَّع محبوبًا له:

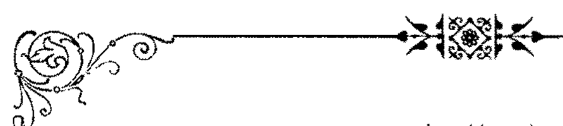
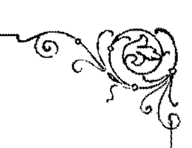
«أستودع اللهَ قلبًا مُذْ فُجِعتُ به ... وبالأحبةِ لم أسكُنْ إلى سَكَنِ

قد كان يحملُ مِن همِّي ومِن حَزَني ... مَا لَيسَ يحمِلُهُ رُوحِي ولا بَدَنِي

لَا عُدتُّ إنْ عاد لي قلبِي أعذِّبُهُ ... بالحُسنِ، كم مِن قبيحٍ جاءَ مِن حَسَنِ»

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٨٨).

الباب السادس
في ذكر ما يصدأ به القلب

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صَقُلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»(١).

وقال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء حتى يصير قلبه كالشاة الرَّبداء(٢)»(٣).

وعن عبد الله بن كثير أنه سمع مجاهدًا يقول: «الرين أيسرُ من الطبع، والطبع أيسرُ من الإقفال، والإقفال أشدُّ من ذلك(٤)»(٥).

وعن الأعمش قال: «كنا عند مجاهد، فقال: القلب هكذا وبسط كفه، فإذا أذنب الرجل ذنبًا قال هكذا، فعقد واحدًا، ثم إذا أذنب قال هكذا، وعقد اثنين،

---

(١) أخرجه أبو داود في الزهد (٢٧١)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٧٣).

(٢) الرَّبداء: السوداء، لسان العرب (٣/ ١٧٠).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٧٢).

(٤) قال أبو معاذ النحوي: «الرَّين: أن يسودَّ القلب من الذنوب، والطبع: أن يُطبع على القلب، وهو أشد من الرَّين، قال: وهو الخَتم، قال: والإقفال أشدُّ من الطبع، وهو أن يُقفل على القلب، وقال الزجَّاج: ران بمعنى: غطى على قلوبهم، يقال: ران على قلبه الذنب إذا غشي على قلبه»، لسان العرب (١٣/ ١٩٣).

(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/ ٢٥٩).

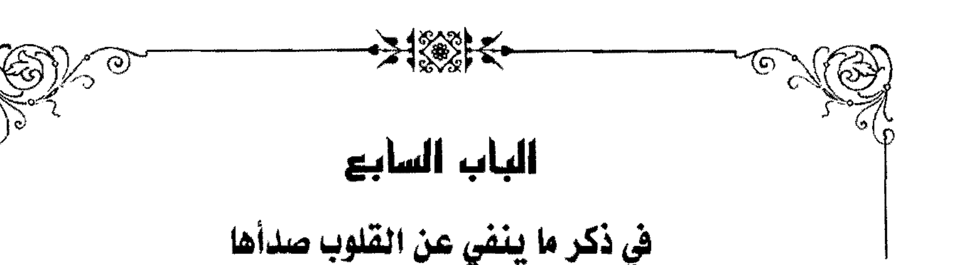
ثم ثلاثًا، ثم أربعًا، ثم ردَّ الإبهام على الأصابع في الذنب الخامس يطبع على قلبه، قال مجاهد: فأيكم يرى أنه لم يُطبع على قلبه»[1].

وقال يحيى بن معاذ: «سقمُ الجسد بالأوجاع وسقمُ القلوب بالذنوب، فكما لا يجد الجسد لذة الطعام عند سقمه، فكذلك القلب لا يجد حلاوة العبادة مع الذنوب.

وكان بعض الحكماء يقول: إذا لم يُستعمل القلب فيما خُلق له من الفكر في اجتلاب المصالح في الدين والدنيا، واجتناب المفاسد تعطَّل فاستَتَرت جوهرِيَّتُه، فإذا أُضيف إلى ذلك فعلُ ما يزيده ظلمةً؛ كشرب الخمر، وطول النوم، وكثرة الغفلة، صار كالحديد يغشاه الصَّدأ فيُفسده.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة (١٦٤).



الباب السابع

في ذكر ما ينفي عن القلوب صدأها

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوْبَ تَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيْدُ**، قيل: يا رسول الله، فما جلاؤها؟ قال: **تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ**»[1].

وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي، قال: «أَذِبْهُ من الذِّكْرِ»[2].

وسئل ابن المبارك: «ما دواء القلب؟ فقال: قِلَّة المُلاقاة»[3].

وعن عبد الله بن خبيق قال: «خلق الله القلوبَ مساكِنَ للذكر فصارت مساكنَ للشهوات، ولا يمحو الشهواتِ من القلوب إلا خوفٌ مزعجٌ، أو شوقٌ مقلقٌ»[4].

وعن إبراهيم الخوَّاص قال: «دواء القلب خمسةُ أشياءَ: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين»[5].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ١٩٧)، والبيهقي في الشعب (١٨٥٩).

(٢) أخرجه الخرائطي في اعتلال القلوب (٥٣).

(٣) صفة الصفوة (٤/ ٢٣٨).

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٣٨).

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٣٧)، وينسب كذلك ليحيي بن معاذ.



الباب الثامن

في ذكر تقليب القلوب والرغبة إلى الله تعالى في إصلاحها

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كانت يمين النبي ﷺ: **لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوْبِ**»(١).

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ قُلُوْبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**. ثم قال رسول الله ﷺ: **اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوْبِ اصْرِفْ قُلُوْبَنَا إِلَىٰ طَاعَتِكَ**»(٢).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان النبي يكثر أن يقول: **يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوْبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِيْنِكَ**. قال: فقلنا: يا رسول الله، آمنَّا بك وبما جئتَ به، فهل تخافُ علينا؟ فقال: **نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوْبَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ **يُقَلِّبُهَا تبارَكَ وَتَعَالَىٰ كَيْفَ يَشَاءُ**»(٣).

وعن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تُحَدِّثُ: «أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه أن يقول: **اللَّهُمَّ مُقَلِّبَ الْقُلُوْبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِيْنِكَ**»(٤).

وعن النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ جَلَّ وَعَزَّ إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ** وكان رسول الله ﷺ يقول: **يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوْبِ ثَبِّتْ قُلُوْبَنَا عَلَىٰ دِيْنِكَ**. قال **وَالْمِيْزَانُ**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٢٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٤).

(٣) أخرجه أحمد (١٢١٠٧)، والترمذي (٢١٤٠).

(٤) أخرجه أحمد (٢٦٥٧٦)، والطبراني الدعاء (١٢٥٨).

بِيَدِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ يَرْفَعُ أَقْوَامًا، وَيَخْفِضُ آخَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[١].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ بِأَرْضٍ فلاةٍ تُقَلِّبُهَا الرِّيَاحُ»[٢].

وعن المِقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَشَدُّ انْقِلَابًا مِنَ الْقِدْرِ إِذَا اجْتَمَعَتْ غَلْيًا»[٣].

وعن أحمد بن خضرويه قال: «القلوب جوالة إما أن تجولَ حول العرش، وإما أن تجولَ حول الحُشِّ[٤]»[٥].

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٣٠)، وابن ماجه (١٩٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٦٦١)، والبيهقي في الشعب (٧٥١).

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٨١٦)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٢٥٣).

(٤) الحَشُّ: البستان، قال أبو حاتم: يُقال لبستان النخل: حش، المصباح المنير (١/ ١٣٧).

(٥) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص٦٩).



الباب التاسع

في ذكر الواعظ من القلب

عن النواس بن سمعان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «ضَرَبَ الله مَثَلا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَىٰ جَنْبَيِّ الصِّرَاطِ سُوْرَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَىٰ الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَىٰ بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُوْلُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلا تَعْوَجُّوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ- يعني: العبد- أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ؛ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الإِسْلامُ، وَالسُّوْرَانِ حُدُودُ اللهِ، وَالأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللهِ ﷻ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقَ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»(1).

وعن خالد بن معدان قال: «ما من عبدٍ إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا فتح عينيه اللتين في قلبه، فأبصر بهما ما وعد الله بالغيب، وإذا أراد الله به غير ذلك تركه على ما فيه، ثم قرأ: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]»(2).

وقال أبو العتاهية: «لقيت أبا نواس في المسجد الجامع فعذلته، وقلت له:

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٣٤)، والحاكم (٢٤٥).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٣٧٤).

أما آن لك أن ترعوي[1] أما آن لك أن تزدجِرَ، فرفع رأسه إليَّ وهو يقول:

أتـــــراني يـــــا عتـــــاهي تاركًـــــا تلـــــك الملاهـــــي

أتـــــراني مفســـــدًا بالنُّسْـــــكِ[2] عنـــد القـــوم جـــاهي

قال: فلما ألححتُ عليه في العذل أنشأ يقول:

لـــن ترجـــع الأنفـــسُ عـــن غيِّهـــا مـــا لـــم يكـــن منهـــا لهـــا زاجـــرُ

فوددتُ أني قلتُ هذا البيتَ بكل شيءٍ قلته».

(١) ارعوى يرعوي، أي: كفَّ عن الأمور، لسان العرب (١٤/ ٣٢٨).

(٢) النسك: العبادة والطاعة، وكل ما يُتقرب به إلى الله تعالى، لسان العرب (١٠/ ٤٩٨).



الباب العاشر

في الأمر بتفريغ القلب من غير محبّة الربّ

عن أحمد ابن أبي الحواري قال: «سأل محمودٌ أبا سليمان- وأنا حاضر-: ما أقرب ما يُتَقَرَّبُ به إلى الله ﷻ؟ فبكى أبو سليمان، ثم قال: مثلي يُسأل عن هذا! أقرب ما تتقرب به إليه: أن يطلع على قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو»[1].

وعن يحيى بن معاذ قال: «النسك هو العناية بالسرائر، وإخراج ما سوى الله ﷻ من القلب».

وعن سهل بن عبد الله قال: «ما من ساعة إلا والله ﷻ مطلع على قلوب العباد فأي قلب رأى فيه غيره سلَّط عليه إبليس»[2].

وعن سهل قال: «من نظر إلى الله ﷻ قريبًا منه بعد عن قلبه كل شيء سوى الله ﷻ، ومن طلب مرضاته أرضاه الله ﷻ، ومن أسلم قلبه تولى الله ﷻ جوارحه»[3].

وقال ضَيغَم لكلاب: «إن حبه تعالى شغل قلوب محبيه عن التلذذ بمحبة غيره، فليس لهم في الدنيا مع حبه لذة تُداني محبته، ولا يأملون في الآخرة من كرامة الثواب أكبر عندهم من النظر إلى وجه محبوبهم. قال: فسقط كلاب

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٥٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٩٤).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٠٢).

مغشيًّا عليه».

وعن سهل بن عبد الله قال: «حرام على قلب أن يشتَمَّ رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير الله، وحرام على قلب أن يدخله النور وفيه شيء مما يكره الله ﷻ».

وسئل أحمد بن خضرويه: «أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ قال: رعاية السِّرِّ عن الالتفات إلى شيء سوى الله».

وقال أبو محمد المرتَعش: «سكونُ القلب إلى غير المولى تعجيلُ عقوبةٍ من الله في الدنيا»[1].

وسئل الشبلي عن قوله ﷻ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، فقال: «أبصار الرُّءُوس عما حرَّم الله، وأبصار القلوب عما سوى الله ﷻ»[2].

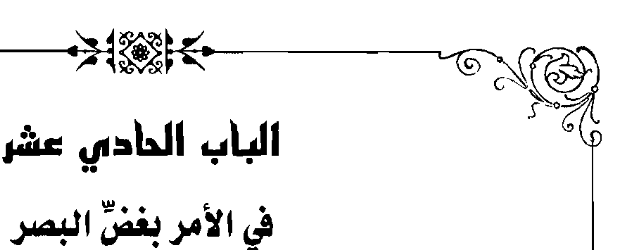
قال ابن جهضم: وسمعت ابن سمعون يقول- في مجلسه-: «ما سمعتَ قول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ، أَوْ تِمْثَالٌ**»[3]، فإذا كان المَلَكُ لا يدخل بيتًا فيه صورة أو تمثال، فكيف تدخل شواهد الحق قلبًا فيه أوصاف غيره من البشر؟!».

---

(١) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص٩٨).

(٢) تاريخ بغداد (٤/ ١٥٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٢٥)، من حديث أبي طلحة بلفظ: «**لا تَدْخُلُ المَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ، وَلا صُورَةُ تَمَاثِيلَ**».



الباب الحادي عشر
في الأمر بغضِّ البصر

اعلم- وفقك الله- أن البصر صاحب خبر القلب ينقل إليه أخبار المبصَرات، وينقش فيه صورها فيجول فيها الفكر فيشغله ذلك عن الفكر فيما ينفعه من أمر الآخرة.

ولما كان إطلاق البصر سببًا لوقوع الهوى في القلب أمرك الشَّرع بِغَضِّ البصر عما يُخاف عواقبه؛ فإذا تعرَّضت بالتخليط وقد أُمِرت بالحِمية فوقعتَ إذًا في أذًى فلِم تضِجَّ[1] من ألِيم الألم.

قال الله ﷻ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، ثم أشار إلى مسبب هذا السبب، ونبه على ما يئول إليه هذا الشر بقوله: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «سألتُ رسول الله ﷺ عن نظرة الفجاءة، فقال: **اصْرِفْ بَصَرَكَ**»[2].

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**اكْفُلُوا لِيْ بِسِتٍّ أَكْفُلْ لَكُمْ بِالْجَنَّةِ: إِذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَكْذِبْ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ فَلَا يَخُنْ،**

---

(١) ضَجَّ: إذا صاح مُستغيثًا، لسان العرب (٢/ ٣١٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٩١٩٧)، وأصله عند مسلم (٢١٥٩).

وَإِذَا وَعَدَ فَلَا يُخْلِفْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ»[1].

وعن ابن عباس عن أخيه الفضل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كنتُ رديفَ رسول الله ﷺ من جمعٍ[2] إلى منًى، فبينما هو يسير إذ عرض له أعرابي مردِفٌ ابنةً له جميلةً، وكان يسايره، قال: فكنتُ أنظر إليها، فنظر إليَّ النبي ﷺ فقلب وجهي عن وجهها، ثم أعدتُ النظر فقلب وجهي عن وجهها، حتى فعل ذلك ثلاثًا»[3].

وعن فتح بن شخرف قال لي عبد الله بن خبيق: «يا خراساني إنما هي أربع لا غير: عينك، ولسانك، وقلبك، وهواك؛ فانظر عينك لا تنظر بها إلى ما لا يحل، وانظر لسانك لا تقل به شيئًا يعلم الله خلافه من قلبك، وانظر قلبك لا يكون فيه غِلٌّ ولا حقد على أحد من المسلمين، وانظر هواك لا تهوَ شيئًا من الشر، فإذا لم يكن فيك هذه الأربع خصال فاجعل الرماد على رأسك فقد شقيتَ!»[4].

وعن أبي عصمة قال: «كنتُ عند ذي النون وبين يديه فتًى حسنٌ يملي عليه شيئًا، فمرَّتِ امرأة ذات حسن وجمال وخلق، فجعل الفتى يُسارِقُ النظر إليها، ففطن ذو النون، فلوى عنقَ الفتى، وأنشأ يقول:

دَعِ المَصُوغاتِ مِن ماءٍ ومِن طِينِ　　　واشغَلْ هواكَ بِحُورٍ خُرَّدٍ عِينِ»[5]

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٠١٨)، وفي الأوسط (٢٥٣٩).

(٢) جمع: هي المزدلفة.

(٣) أخرجه أحمد (١٨٠٥).

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ١٦٨).

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٣٧٥).

وقوله خُرَّد: جمع خَرِيدَة، والجارية الخريدة هي التي لم تُمَسَّ قطُّ. وحكى ابن الأعرابي: لؤلؤة خريدة: لم تُثقب. قال: وكل عذراء فهي خريدة، مقاييس اللغة (٢/ ١٧٦)، وقيل: هي الحيِيَّة من النساء، الصحاح (٢/ ٤٦٨).

وعن الجنيد قال: «اصرف همَّك إلى الله تعالى، وإيَّاك أن تنظر بالعين التي بها تشاهد الله ﷻ إلى غير الله ﷻ، فتسقط من عين الله ﷻ».

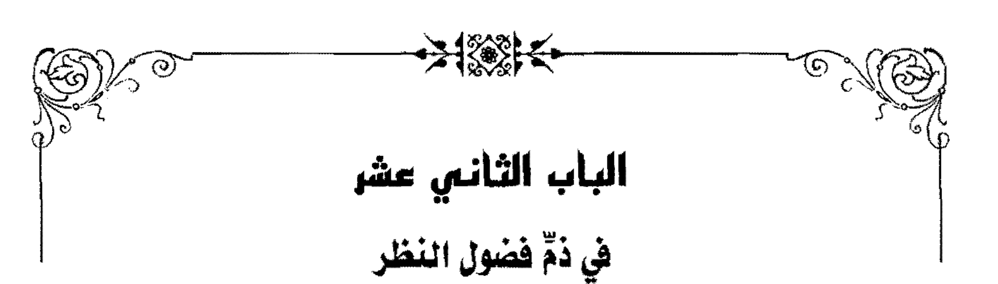
وعن أبي بكر المرُّوذِي قال: «قلتُ لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: رجل تاب وقال: لو ضُرِبَ ظهري بالسياط ما دخلتُ في معصية الله إلا أنه لا يدعُ النظر، فقال: أي توبة هذه؟!»[(١)].

قال جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجاءة، فقال: **اصْرِفْ بَصَرَكَ**»[(٢)].

---

(١) الورع، لأحمد، رواية المرُّوذي (ص١١٩).

(٢) سبق تخريجه (ص ٦٥).



الباب الثاني عشر

في ذمِّ فضول النظر

عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال: لي رسول الله ﷺ: «**لا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّ لَكَ الْأُوْلَىٰ، وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ**»[1].

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**يَا عَلِيُّ، إِنَّ لَكَ فِي الْجَنَّةِ كَنْزًا، وَإِنَّكَ ذُو قَرْنَيْهَا؛ فَلَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّ لَكَ الْأُوْلَىٰ، وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ**»[2].

وعن ابن بريدة عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّمَا لَكَ الْأُوْلَىٰ، وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ**»[3].

وعن عبد الله بن أبي الهذيل قال: «دخل عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على مريض يعوده، ومعه قوم، وفي البيت امرأة، فجعل رجل من القوم ينظر إلى المرأة، فقال عبد الله: لو انفقأتْ عينُكَ كان خيرًا لك»[4].

وقال رجل لداود الطائي: «لو أمرتَ بما في سقفِ البيتِ مِن نسجِ العنكبوتِ فَنُظِّفَ، فقال له: أما علمتَ أنه كان يكره فضول النظر. ثم قال داود الطائي:

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٩١).

(٢) أخرجه أحمد (١٣٧٣)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٣٤٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٩٧٤)، وأبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧).

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٢٩).

نبئت أن مجاهدًا كانت في داره عُلِّيَّة[١] ثلاثين سنة لم يشعر بها»[٢].

وعن محمد بن عبد الله الزراد قال: «خرج حسان إلى العيد، فقيل له- لما رجع-: يا أبا عبد الله، ما رأينا عيدًا أكثر نساءً منه، قال: ما لقيَتْنِي امرأة حتى رجعتُ!»[٣].

وعن غسان بن المفضل قال: حدثنا شيخ لنا، يقال له أبو حكيم، قال: «خرج حسان بن أبي سنان يوم العيد، فلما رجع قالت له امرأته: كم من امرأة حسنة قد نظرتَ اليوم؟ فلما أكثرتْ قال: ويحكِ ما نظرتُ إلا في إبهامي منذ خرجت من عندك حتى رجعتُ إليك»[٤].

وعن أبي جابر الضبي قال: «قدمَتْ بنو كلاب البصرة فأتيتُهُم، فإذا عجوز معها صبية لم أَرَ أجملَ منها، وأنا إذ ذاك غلام، فجعلت أُديمُ النظر إليها، وفطنت العجوز لنظري، فقالت لي: يا بني ما أحوجك إلى ما يكفُّ بصرك أما سمعتَ قول الشاعر:

ومن يُتْبِعْ عينيه في الناس لا يَزَلْ ... يرى حاجةً ممنوعةً لا ينالها

قال: فانصرفتُ والله لم أَحِرْ[٥] جوابًا، وفي قلبي مثل النار».

وعن سفيان الثوري- في قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] قال-: «المرأة تمرُّ بالرجل فلا يملك نفسه عن النظر إليها ولا ينتفع بها، فأي

---

(١) العِلِّيَّة والعُلِّيَّة: الغُرفة، لسان العرب (١٥/ ٨٦).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (٩٧٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١١٥).

(٤) المصدر السابق (٣/ ١١٥).

(٥) أي: لم أُرجِعْ، لسان العرب (٤/ ٢١٧).

شيء أضعف من هذا؟!»[١].

وأنشد مسكين الدارمي:

مَا ضَرَّ جَارًا لِي أُجَاوِرُهُ ... أن لا يكونَ لِبَابِهِ سِتْرُ

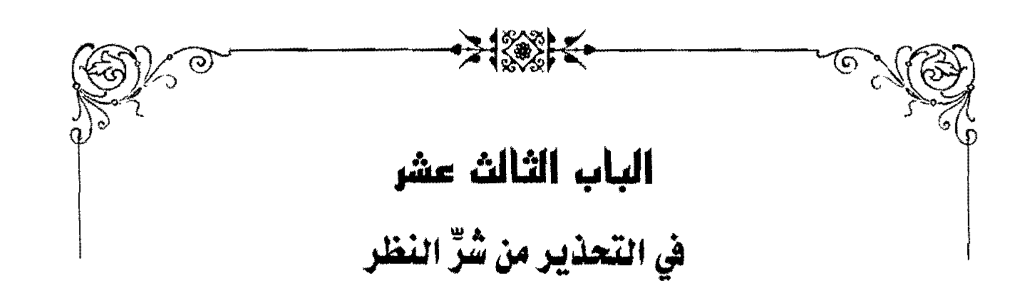
أعمى إذا ما جارتي خرجت ... حتى يوارِيَ جارتي الخِدْرُ

وتُصَمُّ عمَّا بينهم أُذُني ... حتى يصيرَ كأنه وَقْرُ[٢]

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٦٨).

(٢) الوَقْرُ: ثِقَلٌ في الأذن، وقيل: هو أن يذهب السمعُ كله، لسان العرب (٥/ ٢٨٩).



الباب الثالث عشر
في التحذير من شرّ النظر

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**الْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ، وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ**»[1].

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ**»[2].

وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَا عَلِيُّ، اتَّقِ النَّظْرَةَ بَعْدَ النَّظْرَةِ؛ فَإِنَّهَا سَهْمٌ مَسْمُومٌ يُورِثُ الشَّهْوَةَ فِي الْقَلْبِ**»[3].

وعن أنس قال رسول الله ﷺ: «**نَظَرُ الرَّجُلِ إِلَىٰ مَحَاسِنِ الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ**»[4].

وعن أبي الأحوص قال: قال عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما كان من نظرة فإن للشيطان فيها مطمعًا»[5].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «الشيطان من الرجل في ثلاثة منازل: في بصره، وقلبه، وذَكَره، وهو من المرأة في ثلاثة منازل: في بصرها، وقلبها، وعَجُزِها»[6].

---

(١) أخرجه أحمد (٨٥٢٦)، وأصله في الصحيحين.

(٢) أخرجه أحمد (١٩٥١٣)، والترمذي (٢٧٨٦).

(٣) أخرجه الخرائطي في اعتلال القلوب (٢٧٤).

(٤) أخرجه ابن بشران في أماليه (٢٣).

(٥) أخرجه أبو حاتم الرازي في الزهد (٣٢)، وهناد في الزهد (٢/ ٤٦٥).

(٦) أخرجه وكيع في الزهد (٤٨٥)، وهناد في الزهد (١٤٢٦).

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [غافر: ١٩] قال-: «الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها؛ فإن رأى منهم غفلة نظر إليها، فإن خاف أن يفطنوا إليه غض بصره، وقد اطَّلع الله ﷻ من قلبه أنه يود أنه نظر إلى عورتها»(١).

وعن عطاء قال: «كل نظرة يهواها القلب فلا خير فيها»(٢).

وقال الحسن: «من أطلق طَرْفَهُ طال أسفُهُ»(٣).

وعن العلاء بن زياد قال: «لا تتبع بصرك رداء امرأة؛ فإن النظرة تجعل في القلب شهوة»(٤).

وعن المرُّوذي قال: قلت لأبي عبد الله: «الرجل ينظر إلى المملوكة، قال: إذا خاف الفتنة لا ينظر، كم نظرة قد ألقت في قلب صاحبها البلابل(٥)»(٦).

وقال ذو النون: «اللحظات تورث الحسرات؛ أولها أسف، وآخرها تلف، فمن تابع طرفه تابع حتفه».

وقال بعض الحكماء: «أول العشق النظر، وأول الحريق الشرر»(٧).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٧٢٢٨).

(٢) أخرجه وكيع في الزهد (٤٨٢).

(٣) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص٤١) من قول إبراهيم بن أدهم، ومن طريقه البيهقي في الزهد الكبير (٤٦٨).

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٤٤).

(٥) البَلْبَلَة والبلابِل والبلبال: شدَّة الهمِّ والوسواس في الصدور وحديث النفس، لسان العرب (١١/ ٦٩).

(٦) الورع، لأحمد رواية المروذي (ص ١١٩).

(٧) الشرَارَة والشرَر: هو ما يتطاير من النار، الصحاح (٢/ ٦٩٥).

فاحذر- يا أخي، وفقك الله- من شر النظر، فكم قد أهلك من عابد، وفسخ عزم زاهد، وتلمَّحْ معنى النظر سهم مسموم؛ لأن السهم يسري إلى القلب، فيعمل في الباطن قبل أن يرى عمله في الظاهر، فاحذر من النظر؛ فإنه سبب الآفات، إلا أن علاجه في بدايته قريب، فإذا كُرِّر تمكن الشر فصعب علاجه.

وأضرب لك في ذلك مثلًا: إذا رأيت فرسًا قد مالت براكبها إلى درب ضيق فدخلت فيه ببعض بدنها، ولضيق المكان لا يمكن أن تدور فيه، فصِيحَ به: أرجعها عاجلًا قبل أن يتمكن دخولُها، فإنْ قبل ورَدَّها خطوة إلى ورائها سهُل الأمر، وإن توانى حتى ولجتْ، ثم قام يجذِبها بذنبها طال تعبه، وربما لم يتهيأ له.

[مضار إطلاق النظر على القلب]

وكذلك النظرة إذا أثَّرت في القلب فإن عجَّل الحازم بغضِّها، وحسم المادة من أولها سهل علاجه، وإن كرر النظر نقب عن محاسن الصورة، ونقلها إلى قلب متفرغ، فنقشها فيه، فكلما تواصلت النظرات كانت كالمياه تُسْقَى بها الشجرة، فلا تزال تنمي فيفسد القلب، ويُعرض عن الفكر فيما أمر به، ويخرج بصاحبه إلى المحن، ويوجب ارتكاب المحظورات، ويلقي في التَّلف.

والسبب في هذا الهلاك: أن الناظر أول نظرةٍ الْتَذَّ بها، فكررها يطلب الالتِذاذ بالنظر مستهينًا بذلك، فأعقبه ما استهان به التلف، ولو أنه غض عند أول نظرة لسلم في باقي عمره.

[أقوال الشعراء في فتنة البصر]

وقد أكثر الشعراء في وصف البلايا التي حلت بالناظرين، فقال الفرزدق:

«تـزوَّدَ منهـا نظـرةً لـم تَـدَعْ لـه فـؤادًا ولـم يشـعر بمـا قـد تـزوَّدَا

فلـم أَرَ مقتـولًا ولـم أَرَ قـاتلًا بغير سلاح مثلها حين أقصدَا»[١]

وقال إبراهيم بن العباس بن صول الكاتب:

«مَن كان يُؤْتَى مِن عدوٍّ وحاسدٍ فـإني مـن عينـي أُتيتُ ومـن قلبِـي

همـا اعتـوراني نظـرةً ثـم فكـرةً فما أبقيا لي من رقادٍ ولا لـبِّ»[٢]

وروى أبو بكر بن دريد عن عبد الرحمن عن عمه قال: «قعدتُ إلى أعرابي يقال له إسماعيل بن عمار، وإذا هو يفتل أصابعه ويتلهف، فقلت: علامَ تتلهف، فأنشأ يقول:

عينـاي مشـئومتانِ ويحَهُمـا والقلـبُ حيـرانُ مبتلًـى بِهِمـا

عرَّفَتَـاهُ الهـوى لِظُلمِهِمـا يـا ليتنـي قبلَهـا عَـدمْتُهُما

همـا إلـى الحَـينِ قادَتَـا وهُمَـا دلَّ علـى مـا أُجِـنُّ دمعُهُمَـا[٣]

سـاعدتا القلـبَ في هـواه فمـا سـببُ هـذا الـبلاءِ غيرُهُمـا»

---

(١) الإقصادُ: أن تضرب الشيءَ، أو ترميه فيموت مكانه، لسان العرب (٣/ ٣٥٦)، أقصده السهم: إذا أصابه فقُتل مكانه، مقاييس اللغة (٥/ ٩٥).

(٢) اعتوروا الشيء، أي: تداولوه فيما بينهم، الصحاح (٢/ ٧٦٢)، لُبُّ الرجل: ما جعل في قلبه من العقل، لسان العرب (١/ ٧٢٩).

(٣) الحَيْنُ- بالفتح-: الهلاك، يقال: حانَ الرجل، أي: هلك، الصحاح (٥/ ٢١٠٦)، جن الشيء يجنُّه جنا: ستره، ويقال في كل ما ستر: جنَّ وأجنَّ، لسان العرب (١٣/ ٩٢).

وأنشد الدولابي فقال:

«قلبي يقول: لطَرْفي هِجْتَ لي سقَمًا ... والعينُ تزعُمُ أنَّ القَلبَ أبكَاهَا[1]

والجسم يشهَدُ أنَّ العينَ كاذِبةٌ ... هي التي هيَّجَتْ للقَلبِ بَلوَاهَا[2]

لولا العيونُ وما تَجنيْنَ من سَقَمٍ ... ما كُنتُ مطَّرِحًا في سُرَّ مَن رَاهَا»[3]

وقال- أيضًا-:

«يقول قلبي لطَرْفِي إذ بكى جزعَا ... تبكي وأنت الذي حمَّلتني الوجَعَا

فقال طرفي له فيما يعاتِبُهُ ... بل أنت حمَّلتني الآمالَ والطمَعَا

حتى إذا ما خلا كلٌّ بصاحبِهِ ... كلاهما بطويلِ السقمِ قد قنَعَا

ناداهما كَبِدي لا تَتْلَفَا فلقدْ ... قَطَّعْتُماني بما لاَقيتُما قِطَعَا»

وأنشد أبو عبد الله المارستاني فقال:

«رماني بها طَرْفِي فلم يُخْطِ مقتَلِي ... وما كلُّ مَن يُرْمَى تُصابُ مَقاتِلُهْ

إذا مِتُّ فابْكُوني قتيلًا لطَرْفِهِ ... قتيلَ عدوٍّ حاضرٍ ما يُزَايِلُهْ»[4]

---

(١) هاج الشيء يهيج هيجًا وهَيَجانًا، أي: ثارَ، الصحاح (١/ ٣٥٢).

(٢) بَلَوْتهُ بَلْوًا وبلاءً، أي: اختبرته، والاسم: البَلوَى والبَلِيَّة، والبلاء: الغمُّ، كأنه يبلي الجسم، القاموس المحيط (ص١٢٦٤).

(٣) سُرَّ مَن رأى: مدينة كانت بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة، وفيها لغات: سامرَّاء- ممدود، وسامرًّا- مقصور، معجم البلدان (٣/ ١٧٣).

(٤) زَايَلَه مزايلة وزيالًا: إذا فارقه، لسان العرب (١١/ ٣١٧).

ومن ههنا قال ابن المعتز:

«مُتَيَّمٌ يرعَى نجوم الدُّجَى   يبكي عليه رحمةً عاذِلُهْ[1]

عيني أشاطَتْ بدمي في الهوَى   فابكوا قتيلًا بعضُهُ قاتِلُهْ»[2]

وقال المتنبي:

«وأنا الذي اجتَلَبَ المنيةَ طَرْفُهُ   فَمَنِ المطالَبُ والقتيلُ القاتلُ»

وقال ابن المعتز:

يَا رَبِّ مَاذَا جَنَتْ عَيْنِي عَلَى بَدَنِي   مِنَ السِّقَامِ فَلَيْتَ الْعَيْنَ لَمْ تَكُنِ

لَمْ تَذْهَبِ النَّفْسُ إلا عِنْدَ لَحْظَتِهَا   وَحَسْبُهَا أَنْ تَرَى الْمَمْلُوكَ يَمْلِكُنِي

جِسْمِي وَرُوحِي مَقْرُونَانِ فِي قَرَنِ   مُوَكَّلانِ بِطُولِ السُّقْمِ وَالْحَزَنِ»[3]

وسُمِع أبو طاهر البغدادي ينشد في مجلس وعظه:

«عاتبتُ قلبي لَمَّا   رأيتُ جسمي نحيلَا

فألزم القلبُ طَرْفي   وقال كنتَ الرسولَا

(١) مُتَيَّمٌ: مُعبَّد مُذلَّل، وتيَّمه الحبُّ إذا استولى عليه، لسان العرب (١٢/ ٧٥)، الدُّجَى: الظلمة، الصحاح (٦/ ٢٣٣٤)، اسم الفاعل مِن عَذَلَ يعْذِلُ عذلًا: لامَ، لسان العرب (١١/ ٤٣٧).

(٢) يقال: أَشاطَهُ، وأَشاطَ بدمه، وأشاط دمه، أي: عرَّضه للقتل، الصحاح (٣/ ١١٣٩).

(٣) مَقرُونَان ومُقتَرنَان، أي: مشدودَان أحدهما إلى الآخرِ بحبل، والقَرَن، بالتحريك: الحبل الذي يُشدَّان به، لسان العرب (١٣/ ٣٣٦)، السُّقمُ والسَّقَام: المرض، الصحاح (٥/ ١٩٤٩).

فقـــــال طَـــــرْفي لقلبـــــي بـــل أنـــت كنـــتَ الـــوكيلَا

فقلـــــت كُفَّـــا جميعًـــا تركتمــــــاني قتـــــيلَا»

وقال أبو عبد الله بن الحجاج:

يـــا مَـــن رَأى ســقمِي يزيـــدُ وعِلَّتـــي تُعْيِـــي طبيبِـــي

لا تَعجـــــبَنَّ فهكـــــذا تَجنِـي العيـونُ علـى القلـوبِ

وقال ابن الحريري:

فَتَبَصَّـرْ ولا تشِمْ كلَّ برقٍ رُبَّ بـرقٍ فيـه صـواعقُ حَـيْنِ

واغضُضِ الطرفَ تسترحْ مِن غَـرَا مٍ تكتســي فيه ثوبَ ذُلٍّ وشينِ

فـــبلاءُ الفَتَـــى موافقـــةُ النَّفْـــ ــسِ وبـدءُ الهـوَى طمـوحُ العينِ

قال لي بعض أهل هذا البلاء يومًا: قد سمعتُ منك تحريم النظر، وقد بالغتَ في التحذير من النظر، إني نظرت يومًا إلى امرأة نظرةً فهويتها وقوي كَلَفي[1] بها، فقالت لي النفس: إنك في بلاء عظيم مما لا تتيقنه؛ فإن أول نظرة لا تثبت الشخص، فلو أعدتَ النظر فربما أوجب التثبتُ السُّلُوَّ، فما تقول في هذه الحادثة؟

فقلت له: هذا لا يصلح لأربعة أوجه:

أحدها: أن هذا لا يحل.

والثاني: أنك لو نظرتَ فالظاهر تقوية ما عندك؛ فإن ما بهتك بأول نظرة

---

(١) يقال: كَلِفْتُ بهذا الأمر، أي: أُولِعتُ به، الصحاح (٤/ ١٤٢٣).

فالظاهر حسنه، فلا تحسن المخاطرة بتوكيد الأمر لك؛ لأنك ربما رأيت ما هو فوق ظنك فزاد عذابك.

والثالث: أن إبليس عند قصدك لهذه النظرة يقوم في ركائبه ليزين لك ما لا يحسن، ثم لا تعان عليه؛ لأنك إذا أعرضتَ عن امتثال أمر الشرع تخلَّت عنك المعونة.

والرابع: أنك الآن في مقام معاملة للحق ﷻ على تركِ محبوبٍ وأنت تريد أن تتثبت حتى إذا لم يكن المنظور مرضيًّا تركتَهُ؛ فإذن يكون تركه لأنه لا يلائم غرضك، لا لله تعالى، فأين معاملته بترك المحبوب لأجله، وقد قال سبحانه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا﴾ [الإنسان:٨]، وقال سبحانه: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، فإيَّاكَ إيَّاكَ.



الباب الرابع عشر

في النهي عن النظر إلى المُرْدَانِ ومجالستهم

اعلم- وفقك الله- أن هذا الباب من أعظم أبواب الفتن، قد أهمل كثير من الناس مراعاته؛ فإن الشيطان إنما يدخل على العبد من حيث يمكنه الدخول إلى أن يدرجه إلى غاية ما يمكنه من الفتن؛ فإنه لا يأتي إلى العابد فيحسن له الزنا في الأول، وإنما يزين له النظر، والعابد والعالم قد أغلقا على أنفسهما باب النظر إلى النساء الأجانب؛ لبعد مصاحبتهن وامتناع مخالطتهن، والصبي مخالط لهما فليحذر من فتنته، فكم قد زلَّ فيها قدم، وكم قد حلَّت من عزم، وقلَّ من قارب هذه الفتنة إلا وقع فيها.

وعلى منهج الحذر مضى سلف هذه الأمة، وبه أمر العلماء الأئمة.

عن عطاء الدمشقي عن بعض المشيخة قال: «كان يكره أن يُحِدَّ الرجلُ النظر إلى الغلام الجميل».

وقال بعض التابعين: «ما أنا بأخوف على الناسك من سَبُع ضَارٍ من الغلام الأمرد يقعد إليه».

وعن الحسن بن ذكوان قال: «لا تجالسوا أولاد الأغنياء؛ فإن لهم صورًا كصور النساء، وهم أشد فتنة من العذارى»[1].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (١٣٩).

قال النجيب: «وكانوا يكرهون أن يحد الرجل النظر إلى الغلامِ الجميلِ الوجهِ».

وعن إبراهيم النخعي قال: «كانوا يكرهون مجالسة أبناء الملوك، وقال: مجالستهم فتنة، وإنما هم بمنزلة النساء»[1].

وعن أحمد بن علي الحافظ قال: «بلغني أن أحمد بن صالح- وهو أبو جعفر المصري، وكان أحد حفاظ الأثر عالـمًا بعلل الحديث بصيرًا باختلافه، وقدم بغداد وجالس بها الحفاظ، وجرى بينه وبين أحمد بن حنبل مذاكرات، وكان أبو عبد الله يذكره ويثني عليه، وقد حدَّث عنه الأئمة: البخاري، وأبو داود، وغيرهما- كان لا يحدث إلا ذا لحية، ولا يترك أمردَ يحضر مجلسه، فلما حمل أبو داود السجستاني ابنه إليه ليسمع منه- وكان إذ ذاك أمرد- أنكر أحمد بن صالح على أبي داود إحضارَهُ ابنَهُ المجالِسَ، فقال له أبو داود:هو وإن كان أمردَ أحفظُ من أصحاب اللحى، فامتحِنْهُ بما أردتَ، فسأله عن أشياءَ أجابه عنها، فحدَّثه، ولم يُحَدِّثْ أمردَ غيره»[2].

وعن أبي علي الحسن بن علي بن بندار الزنجاني قال: «كان أحمد بن صالح يمتنع على المرد من رواية الحديث لهم تعففًا وتنزهًا ونفيًا للظِّنة عن نفسه، وكان أبو داود يحضر مجلسه، ويسمع منه، وكان له ابن أمرد يحب أن يسمعه حديثه، وعرف عادته في الامتناع، فاحتال أبو داود بأن شدَّ على ذقن ابنه قطعةً من الشعر؛ ليوهمه ملتحيًا، ثم أحضره المجلس وأسمعه جزءًا، فأُخبر الشيخ

---

(١) يحمل ذلك على المردان منهم والمستأنثين.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٧١/ ١٨٥).

بذلك، فقال لأبي داود: مثلي تعمل معه مثل هذا، فقال له: أيها الشيخ لا تنكر عليَّ ما فعلتُهُ، واجمعِ ابني مع شيوخ الفقهاء والرواة فإن لم يقاوِمْهم بمعرفته فاحرِمْهُ السماعَ، فاجتمع طائفة من الشيوخ فتعرَّض لهم هذا الابنُ مطارحًا، وغلب الجميع بفهمه، ولم يَروِ له مع ذلك الشيخ حديثًا من حديثه، وحصل له ذلك الجزء الأول، وكان ابن أبي داود يفتخر برواية هذا الجزء الواحد».

قال أبو علي: «وكان مالك بن أنس يمنع دخول المرد لمجلسه للسماع، فاحتال هشام بن عمار فدخل في غمار الناس مستترًا بهم، وهو أمردُ، فسمع معهم ستةَ عشرَ حديثًا، فأُخبر بذلك مالك فأحضره وضربه ستةَ عشرَ سوطًا، فقال هشام: ليتني سمعتُ مائة حديث وضربني مائة سوط».

وعن يعقوب بن سواك قال: «كنا عند أبي نصر ابن الحارث فوقفتْ عليه جارية ما رأينا أحسنَ منها، فقالت: يا شيخ أين مكان باب حرب، فقال لها: هذا الباب الذي يقال له: باب حرب، ثم جاء بعدها غلام ما رأينا أحسن منه فسأله، فقال: يا شيخ أين مكان باب حرب، فأطرق بشر فردَّ عليه الغلام السؤال، فغمض عينيه، فقلنا للغلام: تعالَ أي شيء تريد، فقال: باب حرب، فقلنا: بين يديك، فلما غاب قلنا: يا أبا نصر جاءتك جارية فأجبتَهَا وكلَّمْتَها، وجاءك غلام فلم تكلمه، فقال: نعم يُروَى عن سفيان الثوري أنه قال: مع الجارية شيطان، ومع الغلام شيطانان، فخشيتُ على نفسي من شيطانَيْهِ»[1].

وعن شجاع بن مخلد أنه سمع بشر بن الحارث يقول: «احذروا هؤلاء الأحداث».

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٢/ ٤٣٦).

وعن أبي علي الروذباري قال: «قال لي أبو العباس ابن أحمد المؤدب: يا أبا علي، من أين أخذ صوفية عصرنا هذا الأنسَ بالأحداث؟ فقلتُ له: يا سيدي أنت بهم أعرفُ، وقد تصحبهم السلامة في كثير من الأمور، فقال: هيهاتَ قد رأينا من هو أقوى إيمانًا منهم إذا رأى الحدث قد أقبل يَفِرُّ كفراره من الزحف، وإنما ذلك على حسب الأوقات التي تغلب الأحوال على أهلها، فتأخذها عن تصرف الطباع، ما أكثر الخطر، ما أكثر الغلط».

قال أبو علي: «وسمعت جنيدًا يقول: جاء رجل إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل ومعه غلام حسن الوجه، فقال له: من هذا؟ قال: ابني، فقال أحمد: لا تجِئ به معك مرةً أخرى، فلما قام قال له محمد بن عبد الرحمن الحافظ- وفي رواية الخطيب: قيل له-: أيد الله الشيخَ إنه رجل مستور، وابنه أفضل منه، فقال أحمد: الذي قصدنا إليه من هذا الباب ليس يمنع منه سترهما، على هذا رأينا أشياخنا، وبه خبرونا عن أسلافهم رَحِمَهُمُ اللَّهُ».

وعن أبي بكر المرُّوذي قال: «جاء حسن بن البزاز إلى أبي عبد الله- يعني: أحمد بن حنبل- ومعه غلام حسن الوجه، فتحدث معه، فلما أراد أن ينصرف قال له أبو عبد الله: يا أبا علي، لا تمشِ مع هذا الغلام في طريق، فقال له: إنه ابن أختي، قال: وإن كان، لا تؤثم الناس فيك».

وعن فتح الموصلي قال: «صاحبتُ ثلاثين شيخًا كانوا يُعَدُّون من الأبدال كلهم أوصوني- عند فراقي إياهم-: اتَّقوا معاشرةَ الأحداث».

وعن أحمد بن إبراهيم قال: «حدثنا أبو أسامة قال: كنا عند شيخ يُقرِئُ فبقي عنده غلام يقرأ عليه وأردت القيام، فأخذ بيدي وقال: اصبر حتى يفرغ هذا الغلام، وكره أن يخلو هو والغلام».

عن محمد بن أحمد ابن أبي القاسم قال: «دخلنا على محمد بن الحسين صاحب يحيى بن معين- وكان يقال: ما رفع رأسه إلى السماء منذ أربعين سنة- ومعنا غلام حدثٌ في المجلس بين يديه، فقال له: قم من حذاي فأجلسه مِن خلفه».

وعن أبي الفرج الرستمي الصوفي قال: «سمعتُ المحترق البصري يقول: رأيت إبليس في النوم، فقلت له: كيف رأيتَنا عزفنا عن الدنيا ولذاتها وأموالها، فليس لك إلينا طريق؟ فقال: كيف رأيتَ ما استملتُ به قلوبَكم باستماع السماع، ومعاشرة الأحداث».

وقال أبو سعيد: «وقلَّ مَن يتخلص مِن هذا مِن الصوفية»[1].

وقال مظفر القرميسيني: «من صحب الأحداث على شرط السلامة والنصيحة أدَّاه ذلك إلى البلاء، فكيف بمن صحبهم على غير وجه السلامة».

وعن أبي منصور عبد القاهر بن طاهر قال: «من صحب الأحداث وقع في الأحداث».

وقال إبراهيم الحربي: «جنبوا أولادَكم قرناءَ السوء، قبل أن تصبغوهم في البلاء، كما يصبغ الثوب. وقال: أول فساد الصبيان بعضهم من بعض».

[ذكر افتتان خلق كثير من الأفاضل بالأحداث]

وقد افتتن بالأحداث خَلْقٌ كثير من الأفاضل.

قال أبو حمزة الصوفي: «كان عبد الله بن موسى من رؤساء الصوفية ووجوههم فنظر إلى غلام في بعض الأسواق فبلي به، وكاد يذهب عقله عليه صبابةً وحبًّا،

---

(١) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص١٨٦).

وكان يقف في كل يوم على طريقه حتى يراه إذا أقبل وإذا انصرف، فطال به البلاء وأقعده عن الحركة، فكان لا يقدر أن يمشي خطوة، فأتيته يومًا لأعوده، فقلت: يا أبا محمد، ما قصتك، وما هذا الأمر الذي بلغ بك ما أرى؟ فقال: أمور امتحنني الله تعالى بها، فلم أصبر على البلاء فيها، ولم يكن لي بها طاقة، ورُبَّ ذنب استصغره الإنسان هو أعظم عند الله مِن ثبيرٍ[1]، وحقيقٌ لمن تعرَّض للنظر الحرام أن تطول به الأسقام، ثم بكا، فقلت: ما يبكيك؟ قال: أخاف أن يطول في النار شقائي. فانصرفتُ عنه، وأنا راحم له؛ لِمَا رأيتُ به من سوء الحال».

وعن القاضي أبي عمر محمد بن يوسف الأزدي قال: «كنتُ أساير محمد ابن داود بن علي ببغداد فإذا بجارية تغني بشيء من شعره، وهو:

أشـكو غليـلَ فـؤادٍ أنـتَ مُتْلِفُـهُ ... شـكوَى عليـلٍ إلـى إلـفٍ يُعَلِّلُـهُ

سـقمي تزيـدُ مـع الأيـامِ كثرَتُـهُ ... وأنـتَ في عُظْـمِ مـا ألقَـى تُقَلِّلُـهُ

الله حـرَّمَ قتلـي في الهـوَى سـفهًا ... وأنـتَ يـا قـاتِلي ظلمًـا تُحَلِّلُـهُ

فقال محمد بن داود: كيف السبيل إلى استرجاع هذا؟ فقال القاضي أبو عمر: هيهاتَ سارت به الرُّكْبانُ».

[شبهة جواز النظر إلى الأمرد والرد عليها]

فإن قال قائل: قد صرح محمد بن داود الأصبهاني بأن النظر مباح، فما تقول في ذلك؟

---

(١) ثَبِير: جبل بمكة، لسان العرب (٤/ ١٠٠).

فالجواب: أنه إنما يباح النظر إلى الأمرد مع عدم الشهوة، فإن عدمت لكنه يخاف أن تثور بالنظر فلأصحابنا فيه وجهان، ومتى كان الطبع صحيحًا فالشهوة قائمة، والتحريم ملازم، فمن ادَّعى أنه لا يشتهي فهو كذَّاب، فلو قدَّرنا صدقه كان بهيمةً لا آدميًّا، وظاهر قول ابن داود يدل على أنه لم ير النظرَ محرَّمًا.

ولقد أخطأ في ذلك وجرَّ عليه خطؤه التلف بعد اشتهاره بين الناس وافتضاحه؛ حتى كان أبو العباس ابن سريج إذا ناظره يقول له: «عليك يا ابن داود بكتاب الزهرة»[١]، ولو أن هذا الرجل غضَّ بصره أول مرة لتخلَّصَ، لكنه لم يَرَ أن الحرام سوى الفاحشة.

وقد يقع للنفس تأويل في مصاحبة الحدث الذي قد بدت زغبات الشعر على وجهه، فتقول النفس: هذا ليس بأمرد، وإنما هو رجل فلا بأس بصحبته، وإنما يقع لها هذا التأويل؛ لما ينظر من هواه، فيقال لها: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا، إن كان لكِ ميل إليه، وعندكِ التذاذ برؤيته، فحكمُهُ حُكْمُ الأمردِ؛ لأن المعنى في ذاك موجود في هذا، ولو أن إنسانًا التذَّ بالنظر إلى بنت شهرين لم يجز له النظر إليها، أو إلى ابن خمسين سنة، أما سمعتَ قول عائشة- وقد سألها نسوة عن المسكر، فقالت-: «لو ظنَّتْ إحداكُنَّ أن ماءَ حبها[٢] يُسكِرُها فلا تشربْهُ»[٣].

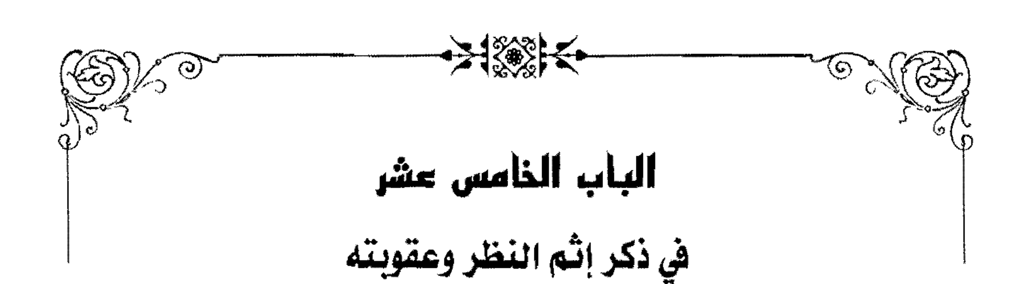
---

(١) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (٢/ ٣٢٧).

(٢) الحُبُّ: الجَرَّة، أو الضخمة منها، القاموس المحيط (ص٧١).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٧٠٦٢)، بلفظ: «إذا ظنت إحداكن أنه إذا نقعت كسرتها في الماء أن ذلك يسكرها فلتجتنبه».

واعلم أن كثيرًا من الصبيان تحسُنُ وجوهُهُم بخروج زغبات الشعر، فيزيدون بذلك في الحسن على المُرْدان، وقد افتتن بهم جماعة.



الباب الخامس عشر
في ذكر إثم النظر وعقوبته

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يتشلشل[1] دمًا، فقال له: **مَا لَكَ؟** قال: يا رسول الله، مرَّت بي امرأةٌ فنظرتُ إليها فلم أَزَلْ أُتْبِعُهَا بصري فاستقبلني جدارٌ فضربني فصنع بي ما تَرَى، فقال: **إِنَّ اللهَ** ﷻ **إِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَجَّلَ لَهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا**»[2].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَوِ اطَّلَعَ أَحَدٌ فِي بَيْتِكَ، وَلَمْ تَأْذَنْ لَهُ، فَحَذَفْتَهُ بِحَصَاةٍ فَفَقَأْتَ عَيْنَهُ مَا كَانَ عَلَيْكَ جُنَاحٌ**»[3].

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مَن تأمل خَلق امرأة من وراء الثياب فقد أبطل صومَهُ»[4].

وعن أبي الأديان قال: «كنت مع أستاذي أبي بكر الزقاق، فمرَّ حدثٌ فنظرتُ إليه فرآني أستاذي وأنا أنظر إليه، فقال: يا بني، لتجدنَّ غِبَّها، ولو بعد حين، فبقيتُ عشرين سنة، وأنا أراعي فما أجد ذلك الغِبَّ، فنمتُ ليلة وأنا متفكِّر فيه، فأصبحتُ وقد نسيت القرآن كله»[5].

---

(١) يتشلشل، أي: يتقاطر، النهاية في غريب الحديث (٢/ ٤٩٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٨٠٦)، والطبراني في الكبير (١١/ ٣١٣).

(٣) أخرجه ابن حبان (٦٠٠٣).

(٤) أخرجه هناد بن السري في الزهد (٢/ ٦٥٠).

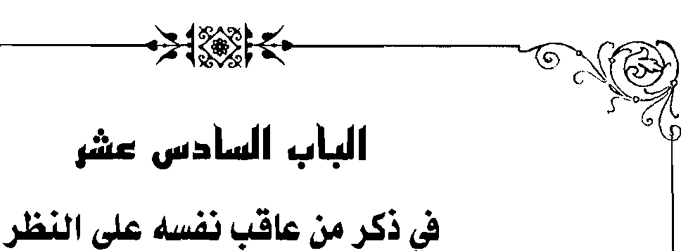
(٥) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٣/ ٤٦١).

وعن أبي بكر الكتاني قال: «رأيت بعض أصحابنا في المنام، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: عرض علي سيئاتي، وقال: فعلت كذا وكذا؟ فقلت: نعم، قال: وفعلت كذا وكذا؟ فقلت: نعم، ثم قال: فعلت كذا وكذا؟ فاستحييت أن أُقِرَّ، فقال: غفرتُ لك بما أقررتَ، فكيف بما استحييت؟! فقلت له: ما كان ذلك الذنب؟ فقال: مرَّ بي غلامٌ أمردُ حسن الوجه فنظرت إليه».

قال أبو الحسن الواعظ: «لما مات أبو نصر حبيب النجار الواعظ بالبصرة رُئِيَ في المنام ووجهه كدارةِ القمرِ في ليلة البدر، وفي وجهه نكتة سوداء، فقال له الذي رآه: حبيب! ما لي أرى في وجهك هذه النكتة؟ قال: قال لي: كنت مارًّا بالبصرة في بني عبس فرأيتُ غلامًا أمردَ عليه غلالة[1] يشرق منها بدنه، فنظرتُ إليه، فلما وصلتُ إلى ربي قال لي: حبيب، قلت: لبيك، قال: جُزْ على النار، فجزتُ عليها، فلفحتني هذه اللفحة، فقلت: أوه، فناداني: لفحة بلمحة، ولو زدتَ لزدناك!».

---

(١) الغِلالة: الثوب الرقيق الذي يُلبس تحت الثياب، لسان العرب (١١/ ٥٠٢).



الباب السادس عشر

في ذكر من عاقب نفسه على النظر

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «خرج عيسى ابن مريم يستسقي بالناس، فأوحى الله ﷻ إليه لا يستسقِ معك خطَّاءٌ، فأخبرهم بذلك، وقال: مَن كان مِن أهل الخطايا فليعتزلْ، فاعتزل الناسُ كلُّهم إلَّا رجلًا مصابًا بعينه اليمنى، فقال له عيسى: ما لك لا تعتزل؟! فقال: يا روحَ الله، ما عصيتُ اللهَ طرفةَ عينٍ، ولقد التفَتُّ فنظرتُ بعيني هذه إلى قدمِ امرأةٍ مِن غير أن كنتُ أردتُ النظر إليها، فقلعْتُهَا، ولو نظرتُ إليها باليسرى قلعْتُهَا. قال: فبكى عيسى حتى ابتلت لحيته بدموعه، ثم قال: ادعُ فأنتَ أحقُّ بالدعاء مني؛ فإني معصوم بالوحي، وأنت لم تُعصَمْ، فتقدم الرجل فرفع يديه، وقال: اللهمَّ إنك خلقتنا، وقد علمتَ ما نعمل من قبل أن تخلقنا، فلم يمنعْكَ ذلك أن تخلقنا، فكما خلقتنا وتكفَّلتَ بأرزاقنا، فأرسلِ السماءَ علينا مدرارًا؛ فوالذي نفسُ عيسى بيده ما خرجتِ الكلمةُ تامَّةً مِن فيه حتى أرختِ السماءُ عزاليها، وسُقِيَ الحاضرُ والبادِ»[1].

فإن قال قائل: هذا قد فعل معصية بقلع عين نفسه، فكيف صارت طاعة يتوسل بها؟

فالجواب: أنه إذا صح النقل عنه حُمل على أنه كان ذلك في شرعهم جائزًا، فأما في شرعنا فذلك حرام.

---

(١) أخرجه ابن سمعون في الأمالي (١٩٠).

وعن مالك بن ضيغم قال: «حدَّثتني خالتي حبابة ابنة ميمون العتكية قالت: رأيت أباكَ ضيغمًا نزل ذات ليلة من فوق البيت بكوز قد بُرِّدَ له حتى صبَّهُ، ثم اكتازَ من الحُبِّ ماءً حارًّا لا يُشربُ فقلت له بعد ذلك: إني قد رأيتُ الذي صنعتَ، فمِمَّ ذاك؟ قال: حانت مني نظرةٌ مرةً إلى امرأة، فجعلتُ على نفسي ألَّا تذوق الماء البارد أيام الدنيا؛ أُنَغِّصُ عليها الحياةَ».

وعن هارون بن رئاب: «أن غزوان كان في بعض مغازيهم، فكشفت جارية فنظر إليها غزوان فرفع يده، فلطم عينه حتى نفرَتْ[1] وقال: إنك لَلَحَّاظَةٌ إلى ما يضرك».

وقال عمرو بن مرة: «ما يسرني أني بصير، قَدْ كنتُ نظرت نظرة وأنا شاب»[2].

وعن وهب قال: «كان في بني إسرائيل ديرٌ، وكان فيه قوم عبَّادٌ، وكان لهم عيد يجتمعون فيه، فخرجوا يومًا في عيدهم، فنظر رجل من العبَّاد إلى جارية من بني إسرائيل متعبِّدة، فلمَّا رأته قد أَحَدَّ النظر إليها قالت- وهي لا توهمه أنه يريدها-: سبحان الذي أضاء العيون فأبصرَتْ، وهي متعرِّضة إلى ما حَرُمَ عليها، فخرَّ الحبر لوجهه ساجدًا، وجعل يقول: سيدي لا تسلبني بصري عقوبةً منك لنظري، فوَعِزَّتك لأبكين بعدها ما أطاقتِ البكاءَ عميَتْ أم لم تَعْمَ، فبكى حتى عمي».

وعن محمد بن عبد العزيز الواعظ قال: «سمعتُ خيرًا النساجَ يقول: كنت مع أبي حمزة بالشام، فإذا نحن بصومعة راهبٍ بين الرملة ومصر، فسمعتُ

---

(١) لطم عينه فنفرت، أي: وَرِمَت، لسان العرب (٥/ ٢٢٧).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٥١).

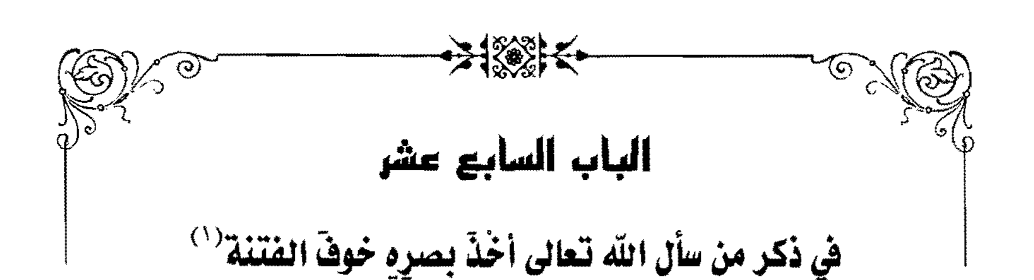
بكاءَهُ وشهيقَهُ فناداه أبو حمزةَ ثلاثًا فلم يُجِبْهُ، فقال له أبو حمزة: سألتُكَ بحقِّ مَن يجب له الحق عليكَ إلَّا كلمتني، فقال- بصوت ضعيف-: وما يدعوك إلى كلامي؟ فقال: أردت أن أسألك عن مسألة عرضتْ لي. فقال: إني لفي شغل عن مسألتك وكلامك فامضِ راشدًا، عافاك الله. فقال أبو حمزة: أرني وجهك، فقال: وما تصنع بالنظر إلى من أصيب من النظر؟ فقال: أحببتُ أن أشافِهَكَ بمسألتي إياك، فقال: إن كنت تريد جواب مسألتك، فاسأل حتى أخبركَ، وإن كنت تريد النظر فامضِ لشأنك، فقد أعلمتُكَ أن بي مصيبةً. قال: وما مصيبتك؟ فقال: إني اطَّلعتُ من صومعتي هذه منذ عشرين سنةً فوقعتْ عيني على شخص فأفسد قلبي، وأنا في علاجه وجهاده منذ ذلك اليوم إلى وقتي، ما علمتُ أني نظرتُ إلى أحد من الناس حتى كلمتني، فقال: لعمري لقد كان هذا نظر شؤم عليك ألبسك طول العناء، وأورثك إدمان البكاء. فقال: هذا لعمري كذاك، لقد بكيتُ حتى نفد دمعي وقلص، فما أقدر على قطرة إلا في بعض الأيام، فإذا بكيتُ وجدتُ لذلك راحةً وسلوانًا. قال: فما النظر الذي بلغ بك هذا كله؟ فقال: حضر بعض أعيادنا فأتاني جماعة وفيهم شخص حيَّرَ عقلي كمالُهُ فكررتُ النظرَ إليه مرارًا، فزرع في قلبي زرعًا لا تحصده المناجلُ، ولا تُسفيه الرياحُ، ولا يزداد على مرِّ الأيام إلا جِدَةً وثباتًا، فلما رأيتُ ذلك عاتبتُ قلبي كي يراجِعَني فأبى إلا التعلُّقَ به، والتعرُّضَ له، والتطلب لأسباب قربه، فلما رأيتُهُ مقيمًا على مخالفتي وماضيًا على عصياني عاهدتُ اللهَ أن لا أرى أحدًا ولا يراني، وهذه عقوبة كل طَرْفٍ مال إلى غير ما أمره الله حتى يرجعَ إلى ما أمره، أو يعلم أنه قد عَفَى له عما أجرم، ثم أخذ في البكاء، فانصرفنا وتركناه».

وعن أبي العمر حسام بن المضاء المصري قال: «غزوت في زمن الرشيد في بعض المراكب فلججنا[١] في البحر فَكُسِرَ بنا في بعض جزائر صقلية، فخرج مَن أفلتَ وخرجتُ معهم، فرأيتُ في بعض الجزائر رجلًا لا يملك دمعه من كثرة البكاء، فسألته عن حاله، وقلت له: ارفق بعينيك؛ فإن البكاء قد أضرَّ بهما، فقال: إلا ذلك، قلت: ما جنايتهما عليك حتى تتمنى لهما البلاء؟ فقال: جناية لا أزال إلى الله معتذرًا منها أيام حياتي، قلت: وما هي؟ قال: سرعة نظرهما إلى الأمور المحظورة عليهما، ولقد أوقعاني في ذنب نظرتُ إليه لولا الرجاءُ لرحمة الله ليئستُ أن يُعْفَى عنه لي، فبالله لو صفح الله لي عنه، وأدخلني الجنة، ثم تراءَى لي لاستحييتُ أن أنظر إليه بعينين عصتاه، ثم صعق وخرَّ مغشيًّا عليه».

وعن خير النساج قال: «كنتُ مع أمية بن الصامت الصوفي فنظر إلى غلام، فقرأ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، ثم قال: وأين الفرار من سجن الله، وقد حصنه بملائكة غلاظ شدادٍ: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾؟! [التحريم: ٦]، تبارك الله فما أعظم ما امتحنني به من نظري إلى هذا الغلام! ما شبهت نظري إليه إلا بنار وقعت على قصب في يوم ريح فما أبقتْ، ولا تركتْ، ثم قال: أستغفر اللهَ من بلاء جنته عيناي على قلبي وأحشائي، لقد خفتُ أن لا أنجوَ من معرَّتِهِ، ولا أتخلص من إثمه، ولو وافيتُ القيامةَ بعمل سبعين صِدِّيقًا، ثم بكى حتى كاد يقضي، فسمعته يقول- في بكائه-: يا طرف لأشغلنك بالبكاء عن النظر إلى البلاء».

---

(١) لَجَجَتِ السفينةُ، أي: خاضت اللُّجَّةَ، ولُجَّة الماء- بالضم-: معظمُه، الصحاح (١/ ٣٣٨).



الباب السابع عشر

في ذكر من سأل الله تعالى أخْذَ بصرِهِ خوفَ الفتنة[1]

عن يحيى قال: «بينما امرأة قائمة عند قنديل توقده؛ إذ نظر إليها رجل، ففطنتْ له وعرفت أنه قد تبيَّنَهَا، فالتفتت إليه وقالت له: تنظر ملءَ عينك إلى شيء لغيرك»[2].

وعن عقبة: أنه دعا ربَّهُ أن يُذهبَ بصره فذهب، فمكث عشرين سنةً أعمى لا يبصر، فلما كبُر دعا ربَّهُ أن يَرُدَّ عليه بصره، فردَّ الله عليه بصرَهُ. قال يحيى بن أبي كثير: «وأخبرني بعض من رآه بصيرًا قبل أن يعمَى فرآه شيخًا بصيرًا بعد ما عمي»[3].

وعن منصور بن إسماعيل قال: «كنتُ إذا نظرتُ إلى الشيء الحسن يأخذ مِن قلبي المأخذَ الشديدَ، فسألت الله ﷻ أن يُذْهِبَ بصري فذهب».

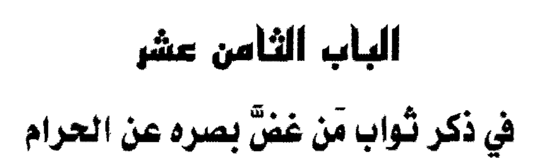
---

(١) لا يُعلم دليل شرعي يبيح مثل هذه الأدعية؛ بل ظاهر الشرع يمنعها.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣٠٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣٠٨).





الباب الثامن عشر
في ذكر ثواب مَن غضَّ بصره عن الحرام

عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «اكْفُلُوا لِي بِسِتٍّ أَكْفُلْ لَكُمْ بِالْجَنَّةِ: إِذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَكْذِبْ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ فَلَا يَخُنْ، وَإِذَا وَعَدَ فَلَا يُخْلِفْ، غُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ»(١).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «اكْفُلُوا لِي بِسِتٍّ أَكْفُلْ لَكُمْ بِالْجَنَّةِ: إِذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَكْذِبْ، وَإِذَا وَعَدَ فَلَا يُخْلِفْ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ فَلَا يَخُنْ، غُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَصِلُوا أَرْحَامَكُمْ»(٢).

قال ابن الأنباري: «قال اللغويون: غضَّ: تفسيره يَغُضُّ، يقال: قد غضضتُ من الرجل، إذا طعنت عليه ووضعت منه».

وعن الحسن بن مُجَاهِدٍ قال: «غض البصر عن محارم الله يورث حبَّ الله».

وعن أبي الحسين الوراق قال: «من غض بصره عن مُحَرَّم أورثه الله بذلك حكمة على لسانه يهتدي بها سامعوه، ومن غض بصره عن شبهة نوَّرَ الله قلبه بنور يهتدي به إلى طريق مرضاته».

فتفهَّمْ- يا أخي- ما أوصيك به، إنما بصرك نعمة من الله عليك؛ فلا تعصِهِ بنعمه، وعامِلْهُ بغضِّهِ عن الحرام تربحْ، واحذر أن تكون العقوبة سلب تلك

---

(١) سبق تخريجه (ص ٦٦).

(٢) أخرجه ابن شاهين في جزء من حديثه، جمع أبي الحسين بن المهتدي (١).

النعمة، وكل زمن الجهاد في الغض لحظة؛ فإن فعلتَ نلتَ الخيرَ الجزيل، وسلمت من الشر الطويل، ألم تسمع قول القائل:

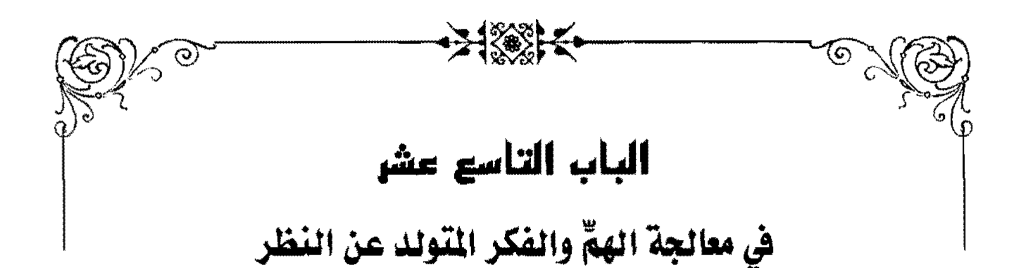
«إنـــــي إذَا ذلَّ الـحَـرِيْــــــ ـــصُ عــزَزتُ في ظــلِّ القناعَــهْ

وأقـــولُ للـــــنفسِ اطمئِنْــــــ ـــنِي فَالشـجاعَةُ صــبرُ ســاعَهْ»

وقال الآخر:

«صبرتُ عَنِ اللذاتِ حتى تولَّـتِ وألزمتُ نفسِي صبرَهَا فاستمَرَّتِ

وما النفسُ إلَّا حيثُ يجعلُهَا الفَتَى فـإنْ أُطمِعـتْ تاقَـتْ وإلَّا تسلَّتِ»



الباب التاسع عشر
في معالجة الهمّ والفكر المتولد عن النظر

اعلم- وفقك الله- أنك إذا امتثلت المأمور به من غضِّ البصر عند أول نظرةٍ سلمتَ من آفاتٍ لا تحصى، فإذا كررتَ النظرَ لم تأمن أن يزرع في قلبك زرعًا يصعب قلعه، فإن كان قد حصل ذلك فعلاجُهُ الحِمْيةُ بالغضِّ فيما بعد، وقطعُ مراد الفكر بسدِّ باب النظر؛ فحينئذٍ يسهل علاج الحاصل في القلب؛ لأنه إذا اجتمع سيل فَسُدَّ مجراه سهُل نَزْفُ الحاصل، ولا علاج للحاصل في القلب أقوى من قطع أسبابه، ثم زجر الاهتمام به خوفًا من عقوبة الله ﷻ، فمتى شرعتَ في استعمال هذا الدواء رُجي لك قربُ السلامة، وإن ساكنتَ الهمَّ تَرَقَّى إلى درجة العزم، ثم حرَّكَ الجوارحَ.

عن أبي تراب النخشبي قال: «احفظ همَّكَ؛ فإنه مقدمة الأشياء، فمن صحَّ له همُّهُ صحَّ له ما بعد ذلك من أفعاله وأحواله»(١).

وعن أبي بكر القرشي قال: «قيل لبعض الحكماء: ما سبب الذنب؟ قال: الخطرة، فإن تداركتَ الخطرةَ بالرجوع إلى الله ذهبتْ، وإن لم تفعل تولَّدَتْ عنها الفكرةُ فإن تداركتَهَا بالرجوع إلى الله بطلتْ، وإلا فعند ذلك تخالِطُ الوسوسةُ الفكرةَ فتولَدُ عنها الشهوةُ، وكل ذلك بَعدُ باطنٌ في القلب لم يظهر

---

(١) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص١٢٨).

على الجوارح، فإن استدركتَ الشهوةَ وإلا تولَّدَ منها الطلبُ، فإن تداركتَ الطلبَ وإلا تولَّدَ منه الفعلُ»[١].

فإن قال قائل: كيف أقدرُ على دفع خطرات تخطر لا أملكُهَا؟

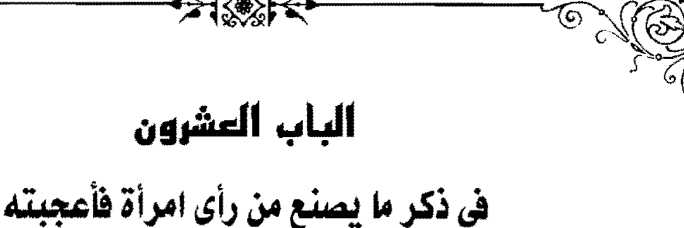
فالجواب: أنها ما لم تكن عزمًا لا تضرُّ، غير أنه ينبغي أن يزجر بالخوفِ ممن يعلم ماتخفي الصدورُ؛ لتشاغل القلب بوظائفَ بعيدةٍ تُلهيه عن الأمر الذي خُلق له، ومتى كففتَ جوارحَكَ ولم تعزم على الخطايا بقلبك فقد عُفي لك عن الوسواس والخواطر، فإذا زجرْتَهَا بالخوف فقد بالغتَ في النظافة.

وقال أبو العباس بن مسروق: «مَن راقب اللهَ في خطرات قلبه عصمَهُ الله في حركات جوارحه»[٢].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة (١٢٢).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٢١٩).



الباب العشرون

في ذكر ما يصنع من رأى امرأة فأعجبته

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنَّ رسولَ الله ﷺ رأى امرأة، فأعجبته، فأتى زينب، فقضى منها حاجته، وقال: إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، وَتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمُ امْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ»[1]. وقد نبه هذا الحديث على أمرين:

أحدهما: التسلِّي عن المطلوب بجنسه.

والثاني: الإعلام بأن سبب الإعجاب قوة الشهوة، فأمر بتنقيصها.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٠٣).



الباب الحادي والعشرون

في ذكر تحريم الخلوة بالأجنبية

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ، وَلَا تُسَافِرُ امْرَأَةٌ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ»[1].

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَخْلُوَنَّ بِامْرَأَةٍ لَيْسَ مَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ مِنْهَا؛ فَإِنَّ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ»[2].

وعن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «خطب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الناس بالجابية، فقال: إن رسول الله ﷺ قام في مثل مقامي هذا، فقال: أَلَا لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ؛ فَإِنَّ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ»[3].

وعن ميمون بن مهران قال: «ثلاثة لا تَبلونَّ نفسَك بهن؛ لا تدخلن على سلطان، وإن قلتَ: آمره بطاعة الله، ولا تدخلنَّ على امرأة، وإن قلتَ: أعلمها كتاب الله ﷻ، ولا تُصغِينَّ سمعَك لذي هوًى؛ فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه»[4].

وعنه قال: «أوصاني عمر بن عبد العزيز، فقال: يا ميمون لا تخلُ بامرأة لا تحل لك، وإن أقرأتها القرآن، ولا تتبع السلطان، وإن رأيتَ أنك تأمره بمعروف، أو تنهاه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٦)، ومسلم (١٤٠٣).

(٢) أخرجه أحمد (١٤٦٥١)، والترمذي (٤٨٠١).

(٣) أخرجه أحمد (١١٤)، والترمذي (٢١٦٥).

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٨٤).

عن منكر، ولا تجالس ذا هوًى فيلقي في نفسك شيئًا يسخط الله به عليك».

وعن حماد بن زيد قال: «قال لنا يونس بن عبيد: أوصيكم بثلاث؛ فخذوها عني- حييت، أو مت- لا تُمَكِّنْ سمعَك من صاحب لهوٍ، ولا تخلُ بامرأة ليست لك بحرمة، ولو أن تقرأ عليها القرآن، ولا تدخل على أمير، ولو أن تعظه».

وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: «قيل لأبي القاسم ابن النصراباذي: إن بعض الناس يجالس النسوان، ويقول: أنا معصوم في رؤيتهن، فقال: ما دامت الأشباح باقية، فإن الأمر، والنهي باقٍ، والتحليل، والتحريم مخاطَب به، ولن يجترئَ على الشبهات إلا من تعرض للمحرمات»[١].

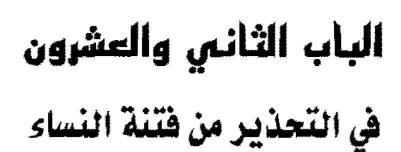
وعن وليد بن يعقوب قال: حدثني أبي قال: «دخل مسلمة بن عبد الملك على أخيه هشام بن عبد الملك، وعنده خادم جميل عليه عمامة سوداء، وثياب وشْيٍ[٢]، فقال مسلمة: يا أمير المؤمنين، أي فتياننا هذا؟ قال: هذا خادم لي، فقال: يا أمير المؤمنين يدخل على حرمك مثل هذا، قال: إنه مجبوب لا يقدر على النساء، قال: إنه إن لم يقدر عليها ذَكَّرَها الرجال، قال: فأخرجه هشام».

فاحذر- رحمك الله- من أن تتعرض بسبب البلاء، فبعِيدٌ أن يسلم مقارب الفتنة منها، وكما أن الحذر مقرون بالنجاة، فالتعرض للفتنة مقرون بالعطب، وندَر من يسلم من الفتنة مع مقاربتها، على أنه ما يسلم من فِكرٍ، وتَصوُّرٍ، وهَمَّةٍ، وكل هذا زلل، هذا لو كانت الخلوة بالأجنبية مباحة لم تسلم من هذه الآفات، فكيف، وهي محرمة؟!

---

(١) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص٣٦٤).

(٢) وَشى الثوبَ وشيًا وشِيةً: حَسَّنَه. ووَشَّاه: نَمْنَمَه ونقشه وحسَّنه، لسان العرب (١٥/ ٣٩٢).

الباب الثاني والعشرون

في التحذير من فتنة النساء

عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِيْ فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَىٰ الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»(١).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ ﷻ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيْهَا؛ لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُوْنَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، وَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيْلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»(٢).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «لما ثقل رسول الله ﷺ جاء بلال يؤذنه بالصلاة، فقال: مُرُوا أَبَا بَكْرٍ، فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ، قالت: فقلتُ: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى يقوم مقامك لا يُسمِعُ الناسَ، فلو أمرتَ عمرَ، فقال: مُرُوا أَبَا بَكْرٍ، فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ، قالت: فقلت- لحفصة-: قولي له، فقالت له حفصة، فقال: إِنَّكُنَّ لأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوْسُفَ!»(٣).

وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أردف رسولُ الله ﷺ الفضلَ، ثم سار حتى أتى الجمرةَ، فرماها، فأتته امرأة شابَّة من خثعم، فقالت: إن أبي شيخ كبير، وقد أدركته، فريضةُ الله تعالى في الحجِّ، فهل يجوز أن أحجَّ عنه؟ قال: نَعَمْ، قال:

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٤)، ومسلم (٤١٨).

ولوى عنق الفضل، فقال له العباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: يا رسولَ الله، ما لكَ لويتَ عنق ابنِ عمِّك؟! قال: **رَأَيْتُ شَابًّا، وَشَابَّةً، فَخِفْتُ الشَّيْطَانَ عَلَيْهِمَا**»[١].

وعن أميمة بنت رقيقة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أنها قالت: «أتيتُ رسول الله ﷺ في نسوة نبايعه، فقال: **إِنِّي لا أُصَافِحُ النِّسَاءَ**»[٢].

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: «لو أن رسول الله ﷺ رأى ما أحدث النساءُ اليومَ لنهاهن عن الخروج، أو حرَّم عليهن الخروجَ»[٣].

وعن عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي: النِّسَاءُ، وَالْخَمْرُ**»[٤].

وعن عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنهما قالا: «لما كثر بنو آدم، وعصوا دعت عليهم الملائكة، والسماء، والأرض، والجبال: ربنا أهلِكْهم، فأوحى الله ﷻ إلى الملائكة أني لو أنزلت الشهوة، والشيطان منكم بمنزلة بني آدم لفعلتم مثل ما يفعلون، فحدثوا أنفسهم أنهم لو ابْتُلوا اعتصموا، فأوحى الله ﷻ إليهم أن اختاروا من أفاضلكم مَلَكَينِ، فاختاروا هاروت، وماروت، وأُهبطا إلى الأرض حكمين، وأُهبطت الزهرة[٥] إليهما في صورة امرأة، فواقعا الخطيئة، وكانت الملائكة يستغفرون للذين آمنوا، فلما واقعا الخطيئة استغفروا لمن في الأرض»[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٥٦٢)، والترمذي (٨٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٠٠٦)، والنسائي (٤١٨١)، وابن ماجه (٢٨٧٤).

(٣) أخرجه مسلم (٤٤٥) بنحوه.

(٤) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١٦/ ١١٩).

(٥) الزُّهَرَةُ، بفتح الهاء: كوكب أَبيض، لسان العرب (٤/ ٣٣٢).

(٦) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢/ ٤٢٨).

وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ابتليتم بفتنة الضراء فصبرتم، وستبتلون بفتنة السراء، وأخوفُ ما أخاف عليكم فتنة النساء إذا تسوَّرْنَ الذهبَ، ولَبِسْنَ رِيَاطَ[١] الشام، وَعصْبَ[٢] اليمن، فأتعبنَ الغنيَّ، وكَلَّفْنَ الفقيرَ ما لا يجد»[٣].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «لم يكن كفرُ من قد مضى إلا من قبل النساء، وهو كائن كفر من بقي من قبل النساء»[٤].

وعن حسان بن عطية قال: «ما أُتِيَتْ أُمَّة قط إلا من قبل نسائهم»[٥].

وعن طاووس- في قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

قال-: «إذا نظر إلى النساء لم يصبر»[٦].

وعن سعيد بن المسيب قال: «ما يئس الشيطان من ابن آدم قط إلا أتاه من قبل النساء، وقال لنا سعيد- وهو ابن أربع وثمانين سنة، وقد ذهبت إحدى عينيه، وهو يعشو بالأخرى-: «وما شيء عندي أخوف من النساء»[٧].

وعن سعيد بن جبير قال: «لأن أوتمن على بيت من الدُّرِّ أحبُّ إليَّ من أن أوتمن على امرأة حسناء»[٨].

---

(١) الرَّيطةُ: كل ثوب لَيِّن دقيق، والجمع رَيطٌ ورِياطٌ، لسان العرب (٧/ ٣٠٧).

(٢) العَصْبُ: ضرب من برود اليمن، الصحاح (١/ ١٨٢)، والبُرد: ثوب فيه خطوط، لسان العرب (٣/ ٨٧).

(٣) أخرجه ابن بشران في الأمالي (١٦).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٧٦٤٣).

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٧٦).

(٦) أخرجه الخرائطي في اعتلال القلوب (١٩٩).

(٧) صفة الصفوة (١/ ٣٤٦).

(٨) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٧٥).

وعن ميمون بن مهران قال: «لأن أوتمن على بيت مال أحبُّ إليَّ من أن أوتمن على امرأة».

وعن يوسف بن أسباط قال: «لو ائتمنني رجل على بيت مال لظننتُ أن أؤدي إليه الأمانة، ولو ائتمنني على زنجية أن أخلو معها ساعة واحدة ما ائتمنت نفسي عليها، وقد سمعت الشيخ الصالح سفيان الثوري يقول: ما بعث الله ﷻ نبيًّا إلا وقد تخوف عليه الفتنة من النساء»(١).

وعن سفيان قال: «يقال: قال إبليس: سهمي الذي إذا رميتُ به لم أُخْطِئ: النساءُ»(٢).

وعن مسدد قال: حدثني عبد الوهاب- فيما أحفظ، أو غيره- قال: «كان زياد ابن مخراق يجلس إلى إياس بن معاوية، فقعد يومين، أو ثلاثة، فأرسل إليه، فوجده عليلًا، فأتاه فقال: ما بك؟ قال له زياد: علَّة أجدها، قال له إياس: والله ما بك حمى، ولا بك علة أعرفها، فأخبرني ما الذي تجده، فقال: يا أبا واثلة تقدَّمَتْ إليك امرأة، فنظرتُ إليها في نقابها حين قامت من عندك فوقعتْ في قلبي، فهذه العلة منها».

وأنشد ابن الأعرابي في صفة النساء:

هي الضِّلَعُ العوجاءُ لستَ تُقِيمُها ... ألا إن تقويم الضلوعِ انكسارُهَا

أيجمعن ضعفًا واقتدارًا على الفتى ... أليس عجيبًا ضعفُهَا واقتدارُهَا

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص١٦٤).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان (٣٧).



الباب الثالث والعشرون

في التخويف من الفتن ومكايد الشيطان

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «خرج رسول الله ﷺ من عندي ليلًا، فغرتُ عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: **مَا لَكِ يَا عَائِشَةُ أَغِرْتِ**، فقلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك، فقال: **أَفَأَخَذَكِ شَيْطَانُكِ**؟ فقلت: أَوَمعي شيطان؟ قال: **نَعَمْ**، قلت: ومع كل إنسان؟ قال: **نَعَمْ**، قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: **نَعَمْ، وَلَكِنَّ رَبِّي** عَزَّ وَجَلَّ **أَعَانَنِيْ عَلَيهِ حَتَّىٰ أَسْلَمَ**»[1]. انفرد بإخراجه مسلم، وجمهور الرواة يروون هذا الحديث: «**أَعَانَنِيْ عَلَيهِ فَأَسْلَمَ**»، على مذهب الفعل الماضي، يريدون: أن الشيطان قد أسلمَ، إلا سفيان بن عيينة، فإنه يقول: «**فَأَسْلَمُ**» أنا من شرِّه، وكان يقول: الشيطان لا يُسلم، وهذا الذي ذهب إليه سفيان مذهب حسن يُظهِر أثر المجاهدة، إلا أن مسلمًا قد روى في صحيحه من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِيْنُهُ مِنَ الْجِنِّ، وَقَرِيْنُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ**، قالوا: وإياك يا رسولَ الله، قال: **وَإِيَّايَ، وَلَكِنَّ اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ **أَعَانَنِي فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ**»[2].

وهذا يدل على أن الشيطان أسلم؛ لأنه لو لم يُسلم لما كان يأمر بالخير، وكفى بهذا ردًّا لقول ابن عيينة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨١٤).

وعن صفية بنت حُيي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَىٰ الدَّمِ**»[١].

وعن معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا بَلَاءٌ وَفِتْنَةٌ**»[٢].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خَطْمَهُ**[٣] **فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِنْ ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ، وَإِنْ نَسِيَ اللهَ الْتَقَمَ قَلْبَهُ**»[٤].

وعن يونس بن جبير قال: «شيعنا جندب بن عبد الله، فلما بلغ خص المكاتب قلنا له: أوصنا، قال: أوصيكم بتقوى الله ﷻ، والقرآن، فإنه نور الليل المظلم، وهدى النهار، فاعملوا به على ما كان من جهد وفاقة، فإن عرَضَ بلاءٌ، فعَرِّض مالك قَبلَ نفسك، فإن تجاوزه البلاء، فقدِّم مالك، ونفسَك دون دينك، فإن المحرُوب[٥] من حُرِب دينه، والمسلوب من سُلب دينه، إنه لا غنى بعد النار، ولا فاقة بعد الجنة، وإن النار لا يُفكُّ أسيرُهَا، ولا يستغني فقيرها»[٦].

وقال مطرف: «نظرت فإذا ابن آدم ملقى بين يدي الله ﷻ وبين إبليس، فإن شاء أن يعصمه عصمه، وإن تركه ذهب به إبليس»[٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٣٨)، ومسلم (٢١٧٤).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٨٥٣)، وابن ماجه (٤٠٣٥).

(٣) الخَطمُ من كل طائر: منقارُه، ومن كل دابة: مقدَّمُ أنفه وفمه، الصحاح (٥/ ١٩١٤).

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٦٨).

(٥) حَرَبَه يَحْرُبُه حَرَبًا: إذا أخذ ماله وتركه بلا شيء، لسان العرب (١/ ٣٠٤)، أي: أن المحروب الحقيقي هو من أُخذ دينه، وليس ماله.

(٦) أخرجه أحمد في الزهد (١١٢٦).

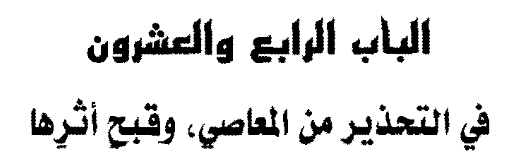
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان (٢٥).

وعن عبد الله بن المبارك- وكان عاقلًا- عن أشياخ أهل الشام قالوا: «من أَعطَى أسباب الفتنة من نفسه أولًا لم يَنْجُ آخِرًا، وإن كان جاهدًا»(١).

وعن سلمة الأفقم قال: «قلت لعبيدة بنت أبي كلاب: ما تشتهين؟ قالت: الموت، قلت: ولِمَ؟ قالت: لأني، والله في كل يوم أصبح أخشى أن أجني على نفسي جناية يكون فيها عطبي أيام الآخرة».

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٨/ ٨٥).

الباب الرابع والعشرون

في التحذير من المعاصي، وقبح أثرها

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ يَغَارُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ**»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»(٢).

وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، وَإِنَّ حِمَىٰ اللهِ مَا حَرَّمَ**»(٣).

وعن أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُوْدًا فَلَا تَعْتَدُوْهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوْهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لا عَنْ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا**»(٤).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قيل: يا رسول الله، أي الهجرة أفضل؟ قال: **أَنْ تَهْجُرَ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْكَ**»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٤) أخرجه الدارقطني (٤٣٩٦، ٤٨١٤).

(٥) أخرجه أحمد (١٥٢١٠).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ**»(١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «يا صاحب الذنب، لا تأمنن سوء عاقبته، ولَـمَا يتبع الذنبَ أعظمُ من الذنب إذا عملته: قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب، وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرتَ به أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب إذا ظفرتَ به، وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب إذا عملته»(٢).

وكتبت عائشة إلى معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أمَّا بعدُ، فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذامًّا»(٣).

وعن علي بن زيد قال: «شهدت عمر بن عبد العزيز يخطب، فسمعته يقول: إن أفضل العبادة أداء الفرائض، واجتناب المحارم»(٤).

وعن الأوزاعي قال: «سمعت بلال بن سعد قال: لا تنظر في صغر الخطيئة، ولكن انظر من عصيت».

وقال الحسن: «يا بن آدم تركُ الخطيئة أيسرُ من طلب التوبة»(٥).

---

(١) أخرجه أحمد (٨٠٩٥)، والترمذي (٢٣٠٥).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٢٤).

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (ص١٣٦).

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٩٦).

(٥) أخرجه أحمد في الزهد (١٥٩٧).

وعن المعتمر بن سليمان عن أبيه قال: «إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلَّته»[١].

وعن محارب بن دثار قال: «إن الرجل ليذنب الذنب فيجد له في قلبه وهنًا»[٢].

وقيل لوهيب بن الورد: أيجد طعم العبادة من يعصي؟ «قال: لا، ولا من همَّ بمعصية»[٣].

وقد روي عن الحسن البصري أنه كان إذا ذكر أهل المعاصي يقول: «هانوا عليه، فعصوه، ولو عَزُّوا عليه لعصمهم»[٤].

وقال الفضيل: «بقدر ما يصغر الذنب عندك كَذَا يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم عندك كَذَا يَصْغُرُ عِنْدَ اللهِ»[٥].

وقال بشر: «إن العبد ليذنب الذنب فَيُحْرَمُ به قيامَ الليل»[٦].

وعن بنان الحمَّال قال: «مَن كان يَسُرُّهُ ما يضرُّه متى يُفلح؟!»[٧].

وقال أبو الحسن المزين: «الذنب بعد الذنب عقوبة الذنب، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة»[٨].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٦٧).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة (١٣٠).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٤٤).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦٨٣٦)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٦١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٤/ ١٥١) بنحوه من قول أبي سليمان الداراني.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة (٦٤).

(٦) لطائف المعارف، لابن رجب (ص٤٦).

(٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣٢٥).

(٨) الرسالة القشيرية (١/ ١٢٥).

[ذكر قبح المعاصي وسوء مُنتَهاها]

واعلم- وفقك الله- أن المعاصي قبيحة العواقب سيئة المنتهى، وهي وإن سَرَّ عاجِلُها ضَرَّ آجِلُها، ولربما تعجل ضرها، فمن أراد طيب عيشه فليلزَمِ التقوى؛ فقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «**قَالَ رَبُّكُمْ** ﷻ: **لَوْ أَنَّ عِبَادِي أَطَاعُوْنِي لَسَقَيْتُهُمُ الْمَطَرَ بِاللَّيْلِ، وَأَطْلَعْتُ عَلَيْهِمُ الشَّمْسَ بِالنَّهَارِ، وَلَمْ أُسْمِعْهُمْ صَوْتَ الرَّعْدِ**»(١).

فمتى رأيت- وفقك الله- تكديرًا في حال، فتذكر ذنبًا قد وقع، فقد قال الفضيل بن عياض: «إني لأعصي الله، فأعرف ذلك في خُلُقِ دابَّتي، وجاريتي»(٢).

وقد روينا عن بعض الصالحين: «أنه انقطع شسع نعله في عَدْوِهِ إلى الجمعة، فقال: إنما انقطع لأني لم أغتسل للجمعة».

[التفكر في تبعات اللذات]

فتفكَّرْ- وفقك الله- في أن الذنوب تنقضي لذَّتُها، وتبقى تبعتها، وكان سفيان الثوري كثيرًا ما يتمثل:

تفنى اللذاذةُ ممن نال صفوتَها ... من الحرامِ ويبقى الإثمُ والعارُ
تبقى عواقبُ سوءٍ في مغبَّتها ... لا خيرَ في لذةٍ من بعدِها النارُ(٣)

---

(١) أخرجه أحمد (٨٧٠٨)، والحاكم (٣٣٣١)، وابن أبي الدنيا في المطر (٤٣).
(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٠٩).
(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٢١) من قول مسعر بن كدام.

وأنشد الحسين بن مطير:

ونفسكَ أكرم عن أُمورٍ كثيرةٍ فما لك نفس بعدها تستعيرُها[١]

ولا تقرَبِ الأمرَ الحرامَ فإنه حلاوته تفنى ويبقى مريرُها[٢]

ثم تفكَّرْ- وفقك الله- فيما أكسبك الذنب من الخجل، فقد قِيل للأسود بن يزيد- عند موته-: «أبشر بالمغفرة، فقال: وأين الخجل مما المغفرة منه؟!».

وكان بعض الحكماء يقول: «إنِ استطعتَ أن لا تسيءَ إلى من تحب فافعل، قيل له: كيف يسيء الإنسان إلى من يحب، فقال: إذا عصيتَ الله أسأتَ إلى نفسك، وهي أكبر محبوباتك».

وقيل لبعض الحكماء: «مَن أشدُّ الناس اغترارًا؟ فقال: أشدُّهم تهاونًا بالذنب، فقيل له: علامَ تبكي؟ فقال: على ساعات الذنوب، قيل: علامَ تأسف؟ قال: على ساعات الغفلة»[٣].

وكان بعض الحكماء يقول: «هَبْ أنَّ الْمُسِيءَ قَدْ عُفِيَ عَنْهُ، أليس قد فاته ثواب المحسنين»[٤].

---

(١) أَشَايَا جمع شيء، وكذلك أَشياواتٌ وأشاواتٌ وأَشاوَى، لسان العرب (١/ ١٠٤).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٤/ ٣٣٤).

(٣) التوبة، لابن أبي الدنيا (١٢١).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة (٦٩).



الباب الخامس والعشرون

في ذم الزنا

قال الله ﷻ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَسْرِقُ سَارِقٌ حِيْنَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَزْنِي زَانٍ حِيْنَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»(١).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «لِكُلِّ بَنِيْ آدَمَ حَظٌّ مِنَ الزِّنَا؛ فَالْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ، وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ، وَزِنَاهُمَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلَانِ تَزْنِيَانِ، وَزِنَاهُمَا الْمَشْيُ، وَالْفَمُ يَزْنِي، وَزِنَاهُ الْقُبَلُ، وَالْقَلْبُ يَهْوَىٰ وَيَتَمَنَّىٰ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ، أَوْ يُكَذِّبُهُ»(٢).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «الْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ، وَاللِّسَانُ يَزْنِي، وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ، وَالرِّجْلَانِ تَزْنِيَانِ، يُحِقُّ ذَلِكَ الْفَرْجُ، أَوْ يَكْفُرُ بِهِ»(٣).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، مَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَرَىٰ عَبْدَهُ، أَوْ أَمَتَهُ تَزْنِي»(٤).

وعن سمُرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ

---

(١) أخرجه أحمد (٨٢٠٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٧).

(٣) أخرجه أحمد (٨٨٤٣)، وأبو يعلى (٦٥٠١).

(٤) أخرجه البخاري (٥٢٢١).

أَتَيَانِي فَأَخْرَجَانِي، فَانطَلَقْتُ مَعَهُمَا، فَإِذَا بَيْتٌ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ بِنَاءِ التَّنُّورِ، أَعْلاهُ ضَيِّقٌ، وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ، يُوقَدُ تَحْتَهُ نَارٌ، فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، فَإِذَا أُوقِدَتِ ارْتَفَعُوا حَتَّىٰ يَكَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا، فَإِذَا أُخْمِدَتْ رَجَعُوا فِيهَا، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالا: الزُّنَاةُ»[١].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الإِيمَانَ سِرْبَالٌ يُسَرْبِلُهُ اللهُ مَنْ يَشَاءُ، فَإِذَا زَنَىٰ الْعَبْدُ نُزِعَ مِنْهُ سِرْبَالُ الإِيمَانُ، فَإِذَا تَابَ رُدَّ عَلَيْهِ»[٢].

وعن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ ذَنْبٍ- بَعْدَ الشِّرْكِ- أَعْظَمُ- عِنْدَ اللهِ- مِنْ نُطْفَةٍ وَضَعَهَا رَجُلٌ فِي رَحِمٍ لا يَحِلُّ لَهُ»[٣].

وعن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ أَتَانِي رَجُلانِ فَأَخَذَا بِضَبْعِيَّ[٤]، فَأَخْرَجَانِي، فَإِذَا أَنَا بِقَوْمٍ أَشَدِّ شَيْءٍ انْتِفَاخًا، وَأَنْتَنُهُ رِيحًا كَأَنَّ رِيحَهُمُ الْمَرَاحِيضُ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الزَّانُونَ، وَالزَّوَانِي»[٥].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا طَفَّفَ قَوْمٌ كَيْلًا، وَلَا بَخَسُوا مِيزَانًا إِلَّا مَنَعَهُمُ اللهُ الْقَطْرَ، وَلا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ الزِّنَا إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمُ الْمَوْتُ، وَلا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمُ الْخَسْفُ»[٦].

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أوحى الله ﷻ إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنا قاتل

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٦)، ومسلم (٢٢٧٥) مطوَّلًا.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٤٩٨١).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الورع (١٣٧).

(٤) الضَبعُ: العَضُد، والجمع أضباع، الصحاح (٣/ ١٢٤٧).

(٥) أخرجه النسائي في الكبرى (٧٦١١)، وابن خزيمة (١٩٨٦)، والحاكم (٢٨٣٧).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣٥).

القتالين، ومُفقِر الزناة»[١].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إن الإيمان نَزِهٌ[٢]، فمن زنا فارقه الإيمان، فإن لام نفسه ورجع راجعه الإيمان»[٣].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال- لعبيده-: «تزوجوا؛ فإن العبد إذا زنا نزع الله منه نور الإيمان، ردَّه الله إليه بعد، أو أمسكه»[٤].

وقال أحمد بن حنبل: «ليس بعد القتل أصعب من الزنا».

[الزنا ذنب عظيم، وأفحشه زنا المحارم]

واعلم أن الزنا من أعظم الذنوب، إلا أنه في نفسه يزيد بعضه على بعض، فمِن أفحشِهِ: زنا الرجل ببعض محارمه.

وسنذكر فيما يستقبل- إن شاء الله- قصص مَن حمله العشقُ على الزنا بالمحارم، ومِن أفحشِه: زنا الرجل بزوجة الرجل، فتختلط المياه والأنساب، وأفحش ذلك: أن تكون تلك المرأة امرأة جارٍ أو قرابة.

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: **أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا، وَهُوَ خَلَقَكَ**، قلت: ثم أي؟ قال: **أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**، قلت، ثم أي؟ قال: **أَنْ تُزَانِيَ حَلِيْلَةَ جَارِكَ**»[٥].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦١/ ١٥٢).

(٢) أصل النَّزِهِ: البُعد، والإيمان نَزِهٌ، أي: بعيد عن المعاصي، النهاية في غريب الحديث (٥/ ٤٣).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في الإيمان (١٩)، وابن بطه في الإبانة الكبرى (٥٥٥).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في الإيمان (٩٤)، والبيهقي في الشعب (٤٩٨٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢٣).

(٥) أخرجه البخاري (٧٥٣٢)، ومسلم (٨٦).

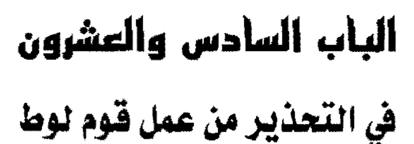
وعن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سئل رسول الله ﷺ عن الزنا، فقال: **حَرَامٌ حَرَّمَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**، فقال: **لِأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ**»[1].

وعن غزوان بن جرير عن أبيه: «أنهم تذاكروا عند علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الفواحشَ، فقال لهم: هل تدرون أي الزنا عند الله جل ثناؤه أعظم؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، كله عظيم، قال: ولكن سأخبركم ما أعظم الزنا عند الله تبارك وتعالى: هو أن يزني العبد بزوجة الرجل المسلم فيصير زانيًا، وقد أفسد على الرجل المسلم زوجته، ثم قال- عند ذلك-: إن الناس يرسل عليهم يوم القيامة ريح نتنة حتى يتأذَّى منها كلُّ بَرٍّ وفاجر، حتى إذا بلغت منهم وألمت أن تمسك بأنفاس الناس كلهم ناداهم منادٍ يُسمعهم الصوت، فيقول لهم: هل تدرون ما هذه الريح التي قد آذتكم؟ فيقولون: لا ندري، والله إلا أنها قد بلغت منا كلَّ مبلغٍ، فيقال: ألا إنها ريحُ فُرُوجِ الزناة، الذين لَقَوُا اللهَ بزناهم، ولم يتوبوا منه»[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٨٥)، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٣).

(٢) أخرجه الخرائطي في مساوئ الأخلاق (٤٥٥)، وفي اعتلال القلوب (١٦٢).

الباب السادس والعشرون

في التحذير من عمل قوم لوط

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَلْعُوْنٌ مَنْ عَمِلَ بِعَمَلِ قَوْمِ لُوْطٍ**»[1].

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوْطٍ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوْطٍ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوْطٍ**»[2].

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي عَمَلُ قَوْمِ لُوْطٍ**»[3].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَنْظُرُ اللهُ إِلَىٰ رَجُلٍ أَتَىٰ رَجُلًا، أَوِ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا**»[4].

واعلم أن المرأة مع المرأة كالرجل مع الرجل.

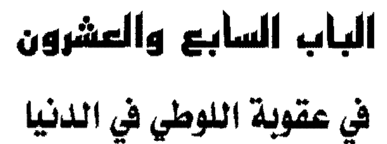
---

(١) أخرجه أحمد (١٨٧٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢٩١٣).

(٣) أخرجه أحمد (١٥٠٩٣)، والترمذي (١٤٥٧)، وابن ماجه (٢٥٦٣).

(٤) أخرجه أحمد (٢١٥٨)، والترمذي (١١٦٥).

الباب السابع والعشرون

في عقوبة اللوطي في الدنيا

اعلم أن الله ﷻ قصَّ علينا من قصة عمل قوم لوط إيثارَهم الفاحشة، وميلَهم إليها، وشرح عقابه إياهم في الدنيا، فأطال في ذكر ذلك مالم يطل في ذكر كفرهم، ومعلوم أن الكفر أعظم من الفاحشة، ولكنه أراد تحذيرنا من تلك الأفعال، وقصة القوم في القرآن في مواضع، وقد عرفنا منها: أنه عاقبهم في الدنيا بالرجم والحجارة، وقد رويت في عقوبة اللوطي في الدنيا أحاديث.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقْتُلُوا الْفَاعِلَ، وَالْمَفْعُوْلَ بِهِ**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الَّذِي يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ قَالَ: «**ارْجُمُوا الْأَعْلَىٰ وَالْأَسْفَلَ، ارْجُمُوهُمَا جَمِيعًا**»(٢).

ذكر ما روي عن أبي بكر الصديق وغيره من الصحابة رضي الله عنهم في ذلك

عن محمد بن المنكدر: «أن خالد بن الوليد كتب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه وجد رجلًا في بعض الأضاحي يُنكَحُ كما تُنكَح المرأة، فجمع أبو بكر رضي الله عنه لذلك أصحاب رسول الله ﷺ منهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال علي: إن هذا ذنب لم تعمل به إلا أمة واحدة، ففعل الله بهم ما قد علمتم؛ أرى أن

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٢٧)، وأبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٥٦٢).

تحرقه بالنار، فاجتمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ أن يحرق بالنار، فأمر به أبو بكر أن يحرق بالنار، قال: وقد حرقهم ابن الزبير، وهشام بن عبد الملك»[١].

وعن يزيد بن قيس: «أنَّ عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجم لوطيًّا»[٢].

وقد روي عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «من عمل عمل قوم لوط فاقتلوه»[٣].

عن سعيد بن يزيد قال: «سئل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ما حدُّ اللوطي؟ قال: يُنظر أعلى بيت في القرية فَيُرمَى منكَّسًا، ثم يُتبَعُ بالحجارة»[٤].

ذكر كلام التابعين، ومن بعدهم في ذلك

عن الشعبي قال: «يُقْتَلُ، أُحْصِنَ أو لم يحصن»[٥].

وعن سعيد بن المسيب قال: «على اللوطي الرجم، أحصن أو لم يحصن سُنَّة مَاضِيَة»[٦].

وعن حماد عن إبراهيم قال: «حد اللوطي حد الزاني»[٧].

وعن جابر بن زيد في اللوطي أنه يرجم[٨].

وعن الزهري قال: «يرجم إن أحصن، أو لم يحصن»[٩].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (١٤٠).
(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٥٦٥٢).
(٣) أخرجه الآجري في ذم اللواط (٤٣).
(٤) أخرجه الآجري في ذم اللواط (٣٠).
(٥) أخرجه الآجري في ذم اللواط (٢٨).
(٦) أخرجه الآجري في ذم اللواط (٤٠).
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (١٢٨).
(٨) أخرجه الآجري في ذم اللواط (٤٥).
(٩) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (١٣٧).

وعن إسحاق الكوسج قال: «قلت لأحمد بن حنبل: أَيُرجَمُ اللوطي أحصن، أو لم يحصن؟ قال: يرجم أحصن، أو لم يحصن»[١].

وقال النخعي: «لو كان أحد ينبغي أن يُرجم مرتين لكان ينبغي للوطي أن يُرجم مرتين»[٢].

---

(١) أخرجه الآجري في ذم اللواط (٥١).

(٢) المحلى، لابن حزم (١٢/ ٣٩٠).



الباب الثامن والعشرون
في ذكر عقوبة اللوطي في الآخرة

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «سَبْعَةٌ لا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلا يُزَكِّيْهِمْ، وَلا يَجْمَعُهُمْ مَعَ الْعَالَمِيْنَ، يَدْخُلُوْنَ النَّارَ أَوَّلَ الدَّاخِلِيْنَ، إِلَّا أَنْ يَتُوْبُوا، فَمَنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ: النَّاكِحُ يَدَهُ، وَالْفَاعِلُ، وَالْمَفْعُوْلُ بِهِ، وَمُدْمِنُ خَمْرٍ، وَالضَّارِبُ أَبَوَيْهِ حَتَّىٰ يَسْتَغِيْثَا، وَالْمُؤْذِي جِيْرَانَهُ حَتَّىٰ يَلْعَنُوْهُ، وَالنَّاكِحُ حَلِيْلَةَ جَارِهِ»(١).

وعن مجاهد قال: «لو أن الذي يعمل ذلك العمل- يعني: عمل قوم لوط- اغتسل بكل قطرة في السماء، وكل قطرة في الأرض لم يزل نجسًا»(٢).

وعن الفضيل بن عياض قال: «لو أن لوطيًّا اغتسل بكل قطرة من السماء لقي الله غير طاهر».

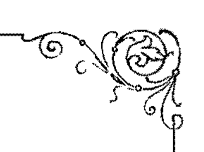
---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٥٠٨٧).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (١٣٦).







الباب التاسع والعشرون
في التحذير من العقوبات

اعلم أن العقوبة تختلف، فتارةً تتعجل، وتارةً تتأخر، وتارةً يظهر أثرها، وتارةً يخفى، وأطرف العقوبات ما لا يُحِسُّ بها المعاقب، وأشدُّها العقوبة بسلب الإيمان والمعرفة، ودون ذلك موت القلوب، ومحو لذة المناجاة منه، وقوة الحرص على الذنب، ونسيان القرآن، وإهمال الاستغفار، ونحو ذلك مما ضرره في الدين، وربما دَبَّتِ العقوبة في الباطن دبيبَ الظلمة إلى أن يمتلئ أفق القلب، فتعمى البصيرة، وأهون العقوبة ما كان واقعًا بالبدن في الدنيا، وربما كانت عقوبة النظر في البصر، فمن عرف لنفسه من الذنوب ما يوجب العقاب، فليبادر نزول العقوبة بالتوبة الصادقة عساه يردُّ ما يُرَدُّ.

عن أبي قلابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْبِرُّ لا يَبْلَى، وَالإِثْمُ لا يُنْسَى، وَالدَّيَّانُ لا يَنَامُ، فَكُنْ كَمَا شِئْتَ كَمَا تَدِيْنُ تُدَانُ**»[1].

وعن جبير بن نفير قال: «لما افتتح المسلمون قبرص، فُرِّقَ بين أهلها، فجعل بعضهم يبكي إلى بعض، فبكى أبو الدرداء، فقلت له: ما يبكيك في يوم أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله، وأذلَّ الشرك وأهله؟! قال: دعنا منك يا جبير، ما أهونَ الخلقَ على الله إذا تركوا أمره! بينا هي أمة قاهرة قادرة إذ تركوا أمر الله

---

(١) أخرجه معمر في الجامع (٢٠٢٦٢).

تعالى فصاروا إلى ما تَرَى»[١].

وعن هشام قال: «اغتمَّ ابن سيرين مرةً، فقيل له: يا أبا بكر ما هذا الغم؟ فقال: هذا الغمُّ بذنب أصبته منذ أربعين سنة»[٢].

وعن ابن أبي نجيح: «أن إسافًا ونائلة رجل وامرأة حجَّا من الشام، قَبَّلَها وهما يطوفان، فمُسخا حجرين، فلم يزالا في المسجد حتى جاء الله بالإسلام، فأُخرِجَا»[٣].

وعن المُقَتِّل العقيلي قال: «نتحدث عندنا بالبادية أن مجنون بني عامر لما قال:

قضاها لغيري وابتلاني بحبِّها فهلَّا بشيء غير ليلى ابتلانيا

ذهب بصره».

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢١٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٧١).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣٠٤).



الباب الثلاثون

في الحث على التوبة والاستغفار

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ أنه قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»[1].

وعن الأغرِّ المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ لَيُغَانُّ عَلَىٰ قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»[2].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «إنْ كنا لنعدُّ أن رسول الله ﷺ يقول في المجلس: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ، مائة مرة»[3].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «للهُ ﷻ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ مِنْ رَجُلٍ خَرَجَ بِأَرْضٍ دَوِيَّةٍ[4] مُهْلِكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ، وَشَرَابُهُ، وَزَادُهُ، وَمَا يُصْلِحُهُ، فَأَضَلَّهَا فَخَرَجَ فِي طَلَبِهَا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ، وَلَمْ يَجِدْهَا قَالَ: أَرْجِعُ إِلَىٰ مَكَانِيَ الَّذِي أَضْلَلْتُهَا فِيهِ، فَأَمُوتُ فِيهِ، فَأَتَىٰ مَكَانَهُ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ فَاسْتَيْقَظَ، فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ وَزَادُهُ وَمَا يُصْلِحُهُ»[5].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢).

(٣) أخرجه أحمد (٥٥٦٤)، والترمذي (٣٤٣٤).

(٤) الدَّوِّيَّة: المنسوبة إلى الدَّوِّ، وهي: الفَلاة الواسعة، لسان العرب (١٤/ ٢٧٦).

(٥) أخرجه أحمد (٣٦٢٧).

وقد رَوَى هذا المعنى عن حديث رسول الله ﷺ البراءُ بن عازب، والنعمان بن بشير، وأبو هريرة، وأنس بن مالك عن شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قال: قال رسول الله ﷺ: «**سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي، وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَىٰ عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ[1] لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي؛ فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، مَنْ قَالَهَا بَعْدَمَا يُصْبِحُ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا بَعْدَ مَا يُمْسِيَ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»[2].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: بِعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ لا أَبْرَحُ أُغْوِي بَنِي آدَمَ مَا دَامَتِ الْأَرْوَاحُ فِيهِمْ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ: فَبِعِزَّتِي وَجَلَالِي لا أَبْرَحُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي**»[3].

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «من ذكر خطيئة عملها، فوجل قلبه منها، فاستغفر الله عَزَّ وَجَلَّ لم يحبسها شيء حتى تُمحَى»[4].

وقد روينا عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إني لأعلم آيتين لا يقرؤهما عبد عند ذنب يصيبه، ويستغفر الله إلا غفر له: قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ [النساء:١١٠] الآية، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ [آل عمران:١٣٥] الآية»[5].

---

(١) أَبُوء: ألتزم وأرجع وأُقِرُّ، وأصل البَوَاء اللُّزُوم، النهاية في غريب الحديث (١/ ١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

(٣) أخرجه أحمد (١١٢٤٤).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة (١١٧).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة (٢٠).

وعن مالك بن دينار قال: «البكاء على الخطيئة يحطُّ الخطايا كما يحطُّ الريحُ الورقَ اليابس»[١].

وعن يحيى بن معاذ قال: «الذي حجب الناس عن التوبة: طولُ الأمل، وعلامة التائب: إسبال الدمعة، وحب الخلوة، والمحاسبة للنفس عند كل همة»[٢].

وعن يحيى بن معاذ الرازي قال: «المغبون من عطَّل أيامه بالبطالات، وسلط جوارحه على الهلكات، ومات قبل إفاقته من الجنايات»[٣].

وعن أبي بكر النجاد قال: «من نقَّر[٤] على الناس قلَّ أصدقاؤه، ومن نقَّر على ذنبه طال بكاؤه، ومن نقَّر على مطعمه طال جوعه»[٥].

---

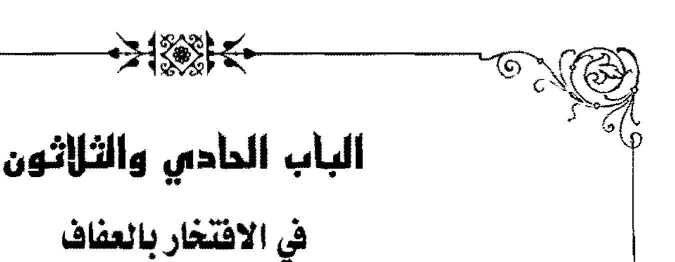
(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة (١٩١).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٢٩٢).

(٣) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٧٧٨).

(٤) نقرتُ الرجل نقرًا: عِبتُه، الصحاح (٢/ ٨٣٤).

(٥) صفة الصفوة (١/ ٥٤٧).



الباب الحادي والثلاثون

في الافتخار بالعفاف

عن عوانة بن الحكم قال: «كان عبد المطلب لا يسافر سفرًا إلا ومعه ابنه الحارث، وكان أكبر ولده، وكان شبيهًا به جمالًا وحسنًا، فأتى اليمن، وكان يجالس عظيمًا من عظمائها، فقال له: لو أمرتَ ابنَكَ هذا يجالسني، وينادمني، فعشقَتِ امرأتُه الحارثَ، فراسلته، فأبى عليها، فألحَّت عليه، فبعث إليها:

لا تطمعــي فيمــا لــدي فــإنني ... كــرمٌ منـادمتي عفيـفٌ مئـزري[1]

أسـعى لأدرك مجـد قـوم شـاده ... عمرٌو قطينُ البيتِ عند المشعرِ[2]

فاقْنَــي حياءَك واعلمــي أني امرُؤٌ ... آبـى لنـفسـي أن يُعَيَّر معشري[3]

أني أُزَنُّ بجــارتي أو كنَّتـــي ... أو أن يقالَ صبا بعِرسِ الحميرِي[4]

---

(١) نادَمَ الرجلَ منادمة ونِدامًا: جالسه على الشَّراب، لسان العرب (١٢/ ٥٧٣)، فلان عفيف المِئزر وعفيف الإزار إذا وُصف بالعفة عما يحرُم عليه من النساء، لسان العرب (٤/ ١٧).

(٢) القَطِينُ: الساكن في الدار، من قَطَن بالمكان يَقْطن قُطُونًا: أقام به وتوطَّن، لسان العرب (١٣/ ٣٤٣).

(٣) قَنِيتُ حَيائي، أي: لَزِمته، لسان العرب (١٥/ ٢٠١)، المَعشر والنَّفَر والقَوم والرَّهط بمعنى: الجمعُ، ولا واحد لأي منها من لفظها، وتقال للرجال دون النساء، لسان العرب (٤/ ٥٧٤).

(٤) يقال: فلان يُزَنُّ بكذا وكذا، أي: يُتَّهم به، لسان العرب (١٣/ ٢٠٠)، الكَنة بالفتح: امرأة الابن، وتُجمع على كنائن، الصحاح (٦/ ٢١٨٩)، العِرسُ بالكسر: امرأةُ الرجُل، الصحاح (٣/ ٩٤٧).

وأخبر بذلك أباه، فلما يئست منه سَقَتْهُ سُمَّ شهرٍ، فارتحل عبد المطلب حتى إذا كان بمكةَ مات الحارث».

وعن هشام بن محمد عن أبيه قال: «كان عبد المطلب بن هاشم إذا أتى اليمن نزل على بعض ملوكها، وإنه أتى مرةً، فنزل على بعض ملوكها، كما كان يفعل، فأرسل إليه ذلك الملك لينادمه، ويتحدث معه، وكان عبد المطلب لا يشرب الشراب، فأرسل إليه ذلك الملك أن ابعث إلينا بالحارث يتحدث معنا، فأرسله عبد المطلب، فلما جاء رأته امرأة الملك فعشقته، وراسلته تريده نفسَهَا، فأبى أن يفعل ذلك وكَرُمَ، فسقته شربةً فيها سُمُّ شهرٍ. قال الكلبي: ويكون عند الملوك السُّمُّ لسنةٍ، ولشهرٍ، وليومٍ، ولساعةٍ فسقط لذلك الحارث، فانصرف به عبدالمطلب إلى مكة، فلما كان قبل دخوله مكة مات الحارث، فدخل به مكة فدفنه، ورثاه عبد المطلب في قصيدة:

والحارثُ الفيَّاضُ ولَّى ماجِدًا أيامَ نازعَهُ الهمامُ الكاسَا»[1]

وعن الوليد بن عبد الله بن نافع بن دريد عن أبيه قال: «قدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبد الملك، فخرجت برجله قرحة الآكلة، فاجتمع رأي الأطباء على نشرها، وأنه إن لم يفعل قتلته، فأرسل إلى الوليد يسأله أن يبعث إليه بالأطباء، فأرسلني بهم إليه، فقالوا: نسقيك مُرَقِّدًا، قال: ولم؟ فقالوا: لئلَّا تُحِسُّ بما يُصنَعُ بك، قال: بل شأنكم بها، قال: فنشروا ساقه بالمنشار، قال: فما زال

(١) رَجلٌ فَيضٌ وفَيَّاضٌ: كثير المعروف، لسان العرب (٧/ ٢١٢)، الهُمام اسم من أسماء المِلِك؛ لعِظَمِ هِمَّته، لسان العرب (١٢/ ٦٢١).

عضو من عضو حتى فرغوا منها، ثم حسموها[1]، فلما نظر إليها في أيديهم تناولها، وقال: الحمد لله، أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيتُ بك إلى حرام قط!».

وفي رواية أخرى: أنه قال: «إن مما يطيب نفسي عنك أني لم أنقلك إلى معصية الله قط!».

وعن أبي سفيان بن العلاء قال: «بَصرَتِ الثريا بعمر بن أبي ربيعة، وهو يطوف حول البيت فتنكَّرت، وفي كفِّها خَلوق، فزحمته، فأثَّرَ الخلوقُ في ثوبه، فجعل الناسُ يقولون: يا أبا الخطاب، ما هذا زي المحرِم، فأنشأ يقول:

أدخل اللهُ ربُّ موسى وعيسى   جنةَ الخلدِ مَن مَلَاني خلوقَا

مسحتْ كفَّها بجيبِ قميصي   حين طُفنا بالبيت مسحًا رفيقَا

فقال له عبد الله بن عمر: مثل هذا القول تقول في هذا الموضع؟! فقال له: يا أبا عبد الرحمن، قد سمعتَ مني ما سمعتَ، فوربِّ هذه البنيةِ ما حللتُ إزاري على حرام قط».

وعن عمارة بن ثور قال: سمعتُ ذا الرمة- لـمَّا حضرته الوفاة- يقول: «لقد مكثت مُتيَّمًا بِمَيّ عشرين سنة في غير ريبة ولا فساد».

وعن شعيب بن صخر قال: «كان في تميم خصلتان قد غلبوا الناس عليهما: الحلم، والعفاف».

وعن نسر بن الوليد الكندي قال: «سمعت أبا يوسف يقول- في مرضه الذي

---

(١) الحَسْمُ: القطع، وحسمَ العِرقَ: قطعه، ثم كواه؛ لئلَّا يسيل دمه، لسان العرب (١٢/ ١٣٤).

مات فيه-: اللهم إنك تعلم أني لم أطأ فرجًا حرامًا قط، وأنا أعلم، اللهم إنك تعلم أني لم آكل درهمًا حرامًا قط، وأنا أعلم».

وعن إبراهيم بن أبي بكر بن عياش قال: «شهدتُ أبي عند الموت، فبكيتُ، فقال: يا بني ما يبكيك؟ فما أتى أبوك فاحشة قط!»[١].

وعن عمر بن حفص بن غياث قال: «لما حضرت أبي الوفاةُ أُغمِي عليه، فبكيتُ عند رأسه فأفاق، فقال: ما يبكيك؟ قلت: أبكي لفراقك، ولِمَا دخلتَ فيه من هذا الأمر- يعني: القضاء- فقال: لا تبكِ؛ فإني ما حللتُ سراويلي على حرام قط»[٢].

وعن سفيان المصيصي قال: «شهدتُ الهيثم بن حميد، وهو يموت قد سُجِّيَ نحو القبلة، قال: فقامت جاريته تغمز رجله، فقال: اغمزيها، فإنه يعلم أنهما ما مشتا إلى حرام قط».

وعن محمد بن إسحاق قال: «نزل السَّرِي بن دينار في دار بمصر كانت فيه امرأة جميلة تفتن الناس بجمالها، فعلمتِ المرأة، فقالت: لأفتننه، فلما دخلت من باب الدرب كشفت، وأظهرت نفسها، فقال السَّري: ما لك؟ قالت: هل لك في فراشٍ وطيٍّ، وعيشٍ رخيٍّ، فأقبل عليها، وهو يقول:

وكم ذي معاصٍ نال منهن لذَّةً ... ومات، فخلَّاها وذاق الدَّوَاهِيَا

تَصَرَّمُ لذَّاتُ المعاصي وتنقضي ... وتبقَى تباعاتُ المعاصي كما هِيَا[٣]

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١٦/ ٥٤٣).

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ٦٨).

(٣) الصَّرمُ: القطع البائن، وعَمَّ بعضهم به القطعَ أيَّ نوع كان، لسان العرب (١٢/ ٣٣٤).

فيا سوأتا والله راءٍ وسامعٌ لعبدٍ بعينِ الله يغشَى المعاصِيَا»

وعن عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي عن عمه قال: «عشق رجل من النُّسَّاكِ جاريةً من البصرة، فبعث يخطبها فأبت، وقالت: إن أردتَ غير ذلك فعلتُ، فأرسل إليها: سبحانَ الله أيتها المرأة أدعوك إلى الأمر الصحيح، والحلال الذي لا عيب فيه، ولا وزر، وتدعينني إلى ما لا يصلح لي ولا لك؟! قال: فأرسلتْ إليه قد أخبرتُكَ بالذي عندي، فإن أردتَ فتقدَّمْ، وإن كرهتَ فتأخَّرْ، فأنشأ الفتى يقول:

أُسائلها الحلالَ وتَدْعُ قلبي إلى ما تشتهيه من الحرامِ

كداعي آل فرعونٍ إليه وهم يدعونه نحو الغرامِ[1]

فظلَّ منعَّمًا في الخلد يسعَى وظلوا في الجحيم وفي السَّقَامِ

فلما علمت أنه قد امتنع عليها من الفاحشة أرسلتْ إليه أنا بين يديك على الذي تحب، فكتب إليها هيهاتَ لا حاجةَ لي فيمن دعاني إلى المعصية، وأنا أدعوه إلى الطاعة، وقال:

لا خيرَ فيمن لا يراقِبُ ربَّهُ عند الهوى ويخافُه أحيانَا

إنَّ الذي يبغِي الهوى ويريدُه كمُؤاجرٍ شيطانَه شيطانَا

---

(١) الداعي هو مؤمن آل فرعون الذي قال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤١]، الغرام: الشر الدائم والعذاب، الصحاح (٥/ ١٩٩٦).

حَجَبَ التُّقَى بابَ الهوَى فأخُو التُّقَى   عـفٌّ الخليقـةِ زائـدٌ إيمانَـا»[١]

وعن علي بن الحسن الإسكافي أنشد:

«مـا إن دعـاني الهـوى لفاحشـة   إلا نهـاني الحيـاءُ والكَـرَمُ

فـلا إلـى فـاحشٍ مـددتُ يـدي   ولا مشـتْ لـي بريبـةٍ قَـدَمُ»

وأنشدني الحسن بن عمرو الرقي للعباس بن الأحنف:

«أما والذي نادى من الطور عبدَهُ   وأنزل فرقانًا وأوحى إلى النحلِ

لقـد ولـدتْ حـواءُ منـك بليـةً   عليَّ أُقاسِيها وخبلًا من الخبلِ

وإني وإياكم- وإن شفَّني الهوى-   لأهلُ عفافٍ لا يُدَنَّسُ بالجهلِ»[٢]

ومما أنشدوا في المبالغة في وصف العفيف:

«يَقَظَاتُـهُ ومنـامُـهُ شَـرْعٌ   كـلٌّ بكـلٍّ فَهْـوَ مشـتَبِهُ[٣]

إنْ هَـمَّ في حُلْـمٍ بفاحشـةٍ   زجـرتْهُ عفّتُـهُ فينتَبِـهُ»

---

(١) الخَلِيقة: الطبيعة التي يخلق بها الإنسان، لسان العرب (١٠/ ٨٦).

(٢) شَفَّ عليه ثوبه يَشِفُّ شُفوفًا، أي: رَقَّ حتى يُرى ما خلفه، لسان العرب (٩/ ١٨٠)، وشفَّهُ الهوى، أي: كشف ما بداخله من مشاعر.

(٣) يقال: والناسُ في هذا شَرْعٌ- بسكون الراء، وقد تُحرَّك-، أي: سواء، القاموس المحيط (ص٧٣٣).



الباب الثاني والثلاثون

في فضل من ذكر ربَّه؛ فترك ذنبَهُ

ذكر ثواب من فعل ذلك في الآخرة:

قال الله ﷻ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦].

وعن مجاهد- في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ قال-: «هو الذي إذا همَّ بمعصيةٍ ذكر مقام الله عليه فيها فانتهى»[1].

وعن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه- في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ قال: «جنتان من ذهب للسابقين، وجنتان من فضة للتابعين»[2].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لَا تَعْلَمُ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مُنْصَبٍ وَجَمَالٍ إِلَىٰ نفسها، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ**»[3].

وعن ميمون قال: «الذِّكر ذِكرانِ، فذكر الله ﷻ باللسان حسن، وأفضل منه أن

---

(١) أخرجه أحمد في الورع (٣٧٢).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٨١٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

يذكر الله عندما يشرف عليه من معاصيه»[١].

عن يحيى بن أبي كثير قال: «لا يُحْمَدُ- أو يَحسُنُ- ورعُ امرئٍ حتى يُشفِي على طمع، ويقدر عليه، فيتركه- حين يتركه- لله ﷻ»[٢].

وعن قتادة أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «ذُكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: **لَا يَقْدِرُ رَجُلٌ عَلَىٰ حَرَامٍ، ثُمَّ يَدَعُهُ لَيْسَ بِهِ إِلَّا مَخَافَةُ اللهِ إِلَّا أَبْدَلَهُ اللهُ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ذَلِكَ**»[٣].

وعن عبيد بن عمير قال: «من صِدق الإيمان وبرِّه: أن يخلوَ الرجل بالمرأة الحسناء فيدعها، لا يدعها إلا لله ﷻ»[٤].

قد كان يغلب الخوف عند القدرة على الذنب تارةً على الرجال فيكون الامتناع منهم، وتارةً على النساء فيكون الامتناع منهن.

[ذكر أخبار من امتنع من الرجال عن الذنوب مع القدرة عليها]

وهذا سياق أخبار الرجال الذين امتنعوا من الذنوب مع القدرة عليها:

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن رسول الله ﷺ قال: «**بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَاشَوْنَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَمَالُوا إِلَىٰ غَارٍ فِي الْجَبَلِ، فَانْحَطَّتْ عَلَىٰ فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا لِلَّهِ**

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الورع (٤٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الورع (١٧٧).

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٤/ ٥٩٣).

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٢٦٨).

صَالِحَةً، فَادْعُوا اللهَ بِهَا لَعَلَّهُ يَفْرُجُهَا، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ، كُنْتُ أَرْعَىٰ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ فَحَلَبْتُ بَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ أَسْقِيهِمَا قَبْلَ وَلَدِي، وَإِنَّهُ نَاءَ بِيَ الشَّجَرُ[١]، فَمَا أَتَيْتُ حَتَّىٰ أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا، أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَبْدَأَ بِالصِّبْيَةِ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّىٰ طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا فُرْجَةً نَرَىٰ مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللهُ لَهُمْ فُرْجَةً حَتَّىٰ رَأَوا مِنْهَا السَّمَاءَ، وَقَالَ الثَّانِي: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ أُحِبُّهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، فَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّىٰ آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَسَعَيْتُ حَتَّىٰ جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَلَقِيتُهَا بِهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ، اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ فَقُمْتُ عَنْهَا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي قَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا، فَفَرَجَ لَهُمْ فُرْجَةً، وَقَالَ الْآخَرُ: إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ[٢] أَرُزٍّ فَلَمَّا قَضَىٰ عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَقَّهُ، فَتَرَكَهُ وَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّىٰ جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَظْلِمْنِي وَأَعْطِنِي حَقِّي، فَقُلْتُ: اذْهَبْ إِلَىٰ ذَلِكَ الْبَقَرِ وَرَاعِيهَا، فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَهْزَأْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَهْزَأُ بِكَ، فَخُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرَاعِيَهَا، فَأَخَذَهَا، وَانْطَلَقَ بِهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ

---

(١) المراد: أنه استطرد مع غنمه في الرَّعي إلى أن بعُد عن مكانه فأبطأ، فتح الباري (٦/ ٥٠٨).

(٢) الفَرْقُ والفَرَق: مكيال معروف بالمدينة، وهو ستة عشر رطلًا، الصحاح (٤/ ١٥٤٠).

وَجْهِكَ فَافْرُجْ مَا بَقِيَ، فَفَرَجَ الله عَنْهُمْ»[١].

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لقد سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا لو لم أسمعه إلا مرة، أو مرتين حتى عدَّ سبع مرار، ولكن قد سمعته أكثر من ذلك قال: كَانَ الكِفْلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيْلَ لا يَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ، فَأَعْطَاهَا سِتِّينَ دِينَارًا عَلَىٰ أَنْ يَطَأَهَا، فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنْ امْرَأَتِهِ أَرْعَدَتْ وَبَكَتْ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكِ أَكْرَهْتُكِ؟ قَالَتْ: لا، وَلَكِنَّ هَذَا عَمَلٌ لَمْ أَعْمَلْهُ قَطُّ، وَإِنَّمَا حَمَلَنِي عَلَيْهِ الحَاجَةُ، قَالَ: أَفَتَفْعَلِينَ هَذَا، وَلَمْ تَفْعَلِيْهِ قَطُّ؟! قَالَ: ثُمَّ نَزَلَ، فَقَالَ: اذْهَبِي، وَالدَّنَانِيْرُ لَكِ، ثُمَّ قَالَ: وَاللهِ لا يَعْصِي اللهَ الْكِفْلُ أَبَدًا، فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ، فَأَصْبَحَ مَكْتُوبًا عَلَىٰ بَابِهِ: قَدْ غَفَرَ اللهُ لِلْكِفْلِ!»[٢].

وعن الحسن قال: «كان شابٌّ على عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ملازمًا المسجد والعبادة، فعشقته جارية، فأتته في خلوة فكلَّمته، فحدث نفسه بذلك، فشهق شهقة، فغُشي عليه، فجاء عمٌّ له، فحمله إلى بيته، فلما أفاق قال: يا عم، انطلق إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأقرئه مني السلام، وقل له: ما جزاءُ من خاف مقام ربه؟ فانطلق عمه، فأخبر عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأتاه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد شهق الفتى شهقة، فمات منها، فوقف عليه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: لك جنتان»[٣].

وعن عبد الله بن مسلم العجلي قال: «كانت امرأة جميلة بمكة، وكان لها زوج، فنظرتْ يومًا إلى وجهها في المرآة، فقالت لزوجها: أترى أحدًا يرى هذا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٣٣)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٩٦)، والحاكم (٧٦٥١).

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٥/ ٤٥٠).

الوجه لا يفتن به؟ قال: نعم، قالت: من؟ قال: عبيد بن عمير، قالت: فائذن لي فيه، فلأَفْتِنَنَّهُ قال: قد أذنتُ لكِ، قال: فأتته كالمستفتية، فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام، قال: فأسفرت عن مثل فلقة القمر، فقال لها: يا أمة الله، قالت: إني قد فُتنتُ بك، فانظر في أمري، قال: إني سائلك عن شيء، فإن أنت صدقتيني نظرتُ في أمركِ، قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك، قال: أخبريني لو أن مَلَكَ الموت أتاك ليقبض روحك، أكان يَسُرُّكِ أني قضيتُ لكِ هذه الحاجةَ؟ قالت: اللهمَّ لا، قال: صدقتِ، قال: فلو أُدخِلْتِ في قبركِ، وأُجلِسْتِ للمساءلة، أكان يسرُّكِ أني قضيتُ لكِ هذه الحاجة؟ قالت: اللهمَّ لا، قال: صدقتِ، قال: فلو أن الناس أُعطوا كتبَهُم، ولا تدرين تأخذين كتابَكِ بيمينِكِ، أم بشمالِكِ، أكان يسرُّكِ أني قضيتُ لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهمَّ لا، قال: صدقتِ، قال: فلو جيءَ بالموازين، وجيءَ بِكِ لا تدرينَ تَخِفِّينَ، أم تَثْقُلينَ، أكان يسرُّكِ أني قضيتُ لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهمَّ لا، قال: صدقتِ، قال: فلو، وقفتِ بين يدي الله للمساءَلة، أكان يسرُّكِ أني قضيتُ لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهمَّ لا، قال: صدقتِ، قال: اتقي الله يا أَمَةَ الله، فقد أنعم الله عليك، وأحسن إليك، قال: فرجعتْ إلى زوجها، فقال: ما صنعتِ؟ قالت: أنت بطَّال، ونحن بطَّالون، فأقبلتْ على الصلاة، والصوم، والعبادة، قال: فكان زوجها يقول: ما لي، ولعبيد ابن عمير؟! أفسد عليَّ امرأتي، كانت في كل ليلة عروسًا، فصيَّرَها راهبةً»[١].

---

(١) معرفة الثقات، للعجلي (٢/ ١١٩- ١٢٠).

﴿[ذكر أخبار من امتنعت من النساء عن الذنوب مع القدرة عليها]﴾

سياق أخبار النساء اللواتي امتنعن عن الفاحشة مع القدرة عليها:

وعن محمد بن سلام الجمحي قال: «سمعتُ خارجةَ بنَ زياد- رجل من بني سليمة- يَذكُرُ قال: هَوِيْتُ امرأةً من الحي، فكنتُ أتبعها إذا خرجت من المسجد، فعرفتْ ذلك مني، فقالت لي- ذات ليلة-: ألك حاجة؟ قلت: نعم، قالت: وما هي؟ قلت: مودتك، قالت: دَعْ ذلك ليومِ التغابُنِ قال: فأبكتني، والله، فما عدتُ إلى ذلك».

وعن عبد السلام بن عبيد عن أعرابي قال: «خرجت في بعض ليالي الظلمة، فإذا أنا بجارية كأنها علم، فأردتها على نفسها، فقالت: ويلك أما لك زاجر من عقل؟! إذا لم يكن لك ناهٍ من دين! فقلت لها: إيهًا! والله ما يرانا إلا الكواكبُ، قالت: فأين مكوكبها».

وعن أبي محمد الشيباني قال: «كان بالبصرة رجل له أكَّار[1]، وكانت له امرأة جميلة حسناء كثيرة اللحم فوقعت في نفسه، فركب زُبيديّته إلى قصره، وقال: للأكَّار القط لنا من الرطب، وصيره في الدواخل[2]، ثم قال له: إيت به فلانًا وفلانًا، فذهب به، فلما مضى قال لامرأته: أغلقي باب القصر فأغلقته، ثم قال لها: أغلقي كل باب، ففعلتْ، فقال لها: هل بقي باب لم تغلقيه؟ قالت: نعم، باب واحد لم أغلقه، قال: وأي باب هو؟ قالت: الباب الذي بيننا وبين الله ﷻ، فبكا، ثم قام عَرِقًا وانصرف، ولم يواقع الخطيئة».

---

(١) الأُكَرُ: الحفر في الأرض، واحِدتها أُكرة. والأَكَّارُ: الحرَّاث، لسان العرب (٤/ ٢٦).

(٢) الدَّوْخَلَّة والدَّوخَلَة: نسيجة من خوص يوضع فيها التمر والرُّطب، لسان العرب (١١/ ٢٤٣).



الباب الثالث والثلاثون

في الحثّ على النكاح

عن عبد الرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنا مع رسول الله ﷺ شبابًا ليس لنا شيء، فقال: **يا معشرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ**»[(١)].

قال الخطابي: «الباءة: كناية عن النكاح، وأصل الباءة: الموضع الذي يأوي إليه الإنسان، ومنه اشتق مباءَة الغنم، وهو المراح الذي تأوي إليه بالليل، والوِجاءُ: رَضُّ الأنثيينِ، والخصاءُ: نزعُهُما، وفي الحديث دليل على جواز التعالج لقطع الباءة بالأدوية؛ لقوله: فليصُمْ»[(٢)].

وعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أراد عثمان بن مظعون أن يتبتل، فنهاه النبي ﷺ، ولو أجاز له ذلك لاختصينا»[(٣)].

والتبتل: الانقطاع إلى العبادة عن النكاح، ومنه: طلقة بتلة، وقيل لمريمَ: البتولُ؛ لانقطاعها عن الأزواج.

وعن طاوس قال: «المرأة شطرُ دينِ الرجل»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠).

(٢) معالم السنن (٣/ ١٧٩).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٧٣)، ومسلم (١٤٠٢).

(٤) الورع، لأحمد بن حنبل (ص١٢٤).

قال المرّوذِي: وسمعت أبا عبد الله يقول: «ليس العزوبية من أمر الإسلام في شيء، النبي ﷺ تزوَّجَ أربعَ عشرةَ، ومات عن تسعٍ، ثم قال: لو كان بشر بن الحارث قد تزوَّج كان قد تمَّ أمرُهُ كلُّه، لو ترك الناسُ النكاحَ لم يَغْزُوا، ولم يَحُجُّوا، ولم يكن كذا، ولم يكن كذا، فقد كان النبي ﷺ يُصبح وما عندهم شيء، ويمسي وما عندهم شيء، ومات عن تسعٍ، وكان يختار النكاحَ، ويحثُّ عليه، ونهى النبي ﷺ عن التبتل، فمن رغب عن فعل النبي ﷺ فهو على غير الحق، ويعقوب في حزنه قد تزوَّج، وَوُلِدَ له، والنبي ﷺ قال: **حُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ**»[1].

قلت: فإن إبراهيم بن أدهم يُحكى عنه أنه قال لروعة: «صاحب عيال، فما قدرت أن أتم الحديث حتى صاح بي، وقال: وقعنا في بُنيات الطريق[2] انظر - عافاك الله - ما كان عليه محمد، وأصحابه، وقال - لَبُكَاءُ الصبيِّ بين يدي أبيه متسخطًا يطلب منه خبزًا أفضل من كذا وكذا -: أين يلحق به المتعبدُ الأعزبُ؟!»[3].

[ذكر ما يستحب لمن أراد النكاح]

ويستحب لمن أراد النكاحَ النظرُ إلى المنكوحة، فقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأَةً فَلْيَنْظُرْ مِنْهَا مَا يَدْعُوهُ إِلَىٰ نِكَاحِهَا؛ فَذَلِكَ أَحْرَىٰ أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَهُمَا**»[4].

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٩٣)، والنسائي (٣٩٤٠).

(٢) بُنَيَّاتُ الطريق هي: الطُّرق الصِّغار تتشعب من الجادة، وهي الترهات، الصحاح (٦/ ٢٢٨٧).

(٣) الورع، لأحمد بن حنبل (ص ١٢٦).

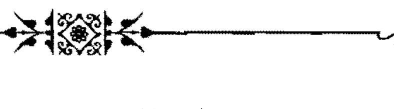
(٤) هذا الحديث جمع فيه المصنف بين حديثين؛ الأول: حديث جابر مرفوعًا: «**إِذَا خَطَبَ أَحَدُكُمُ الْمَرْأَةَ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ مَا يَدْعُوهُ إِلَىٰ نِكَاحِهَا فَلْيَفْعَلْ**» أخرجه أحمد =

وينبغي له أن يتخير صاحبة الدين مع الحُسن، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّيْنِ تَرِبَتْ يَدَاكَ»[١].

فأمَّا من ابتُلي بالهوى فأراد التزويج، فليجتهد في نكاح المرأة التي ابتُلي بها، إن صح له ذلك وجاز، وإلا فليختر ما يظنه مسلِّيًا له عن ذلك، وهو ما يقع بقلبه عند رؤيته، وعلامة ذلك: أنه إذا رأى الشخص تشبث بقلبه، وجمد نظره عليه، فلم يكد يقلع عنه، فهذه علامة المحبة.

= (١٤٥٨٦)، وأبو داود (٢٠٨٢)، والثاني: حديث المغيرة بن شعبة مرفوعًا: «اذْهَبْ، فَانْظُرْ إِلَيْهَا؛ فَإِنَّهُ أَحْرَىٰ أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا» أخرجه أحمد (١٨١٥٤)، والترمذي (١٠٨٧)، وحسنه.

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦).



الباب الرابع والثلاثون
في ذمِّ من خبَّبَ امرأةً على زوجها

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ خَبَّبَ**[1] **امْرَأَةً عَلَىٰ زَوْجِهَا فَلَيْسَ مِنَّا**»[2].

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ، وَمَنْ خَبَّبَ عَلَىٰ امْرِئٍ زَوْجَتَهُ، أَوْ مَمْلُوكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا**»[3].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَفْسَدَ امْرَأَةً عَلَىٰ زَوْجِهَا فَلَيْسَ مِنِّي، وَمَنْ أَفْسَدَ عَبْدًا عَلَىٰ سَيِّدِهِ فَلَيْسَ مِنِّي**»[4].

عن أبي البختري عن سلمان قال: «كان في بني إسرائيل امرأة ذات جمال، وكانت عند رجل يعمل بالمسحاة[5]، وكان إذا جاء بالليل قدمت طعامه، وفرشت له فراشه، فبلغ خبرها ملك ذلك العصر، فبعث إليها عجوزًا من بني إسرائيل، فقالت لها: ما تصنعين بهذا الذي يعمل بالمسحاة، لو كنتِ عند الملك لكساك الحرير، وفرشك الديباج، فلما وقع الكلام في مسامعها جاء زوجها بالليل، فلم تقدم له طعامه، ولم تفرش له فراشه، فقال لها: ما هذا الخلق يا

---

(١) التَّخبِيبُ: إفساد الرجل عبدًا أو أمةً لغيره؛ يُقال: خبَّبها فأفسدها، لسان العرب (١/ ٣٤٢).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٨٣٧)، وفي الصغير (٦٩٨).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٩٨٠)، وأبو داود (٣٢٥٣).

(٤) أخرجه أحمد (٩١٥٧)، وابن حبان (٥٥٦٠،٥٦٨)، والبيهقي في الشعب (٥٠٤٩).

(٥) المِسْحَاة: هي المِجرفة من الحديد، لسان العرب (٢/ ٥٩٨).

هنتاه[١]، فقالت: هو ما ترى، فقال: أُطَلِّقُكِ؟ قالت: نعم، فطلقها، فتزوجها ذلك الملك، فلما زُفت إليه نظر إليها فعَمِيَ، ومدَّ يده إليها فجفَّتْ، فرفع نبيُّ ذلك العصر خبرَهما إلى الله ﷻ، فأوحى الله تعالى إليه: أَعْلِمْهُما أني غير غافر لهما، أما عَلِمَا أن بعَيني ما عَمِلا بصاحبِ المسحاةِ!»[٢].

وعن عثمان بن عطاء عن أبيه قال: «كان أبو مسلم الخولاني إذا انصرف من المسجد إلى منزله كَبَّرَ على باب منزله، فَتُكَبِّرُ امرأته، فإذا كان في صحن داره كبَّر فتجيبه امرأته، فإذا بلغ باب بيته كبَّر فتجيبه امرأته، فانصرف ذات ليلة فكبَّر عند باب داره، فلم يجبه أحد، فلما كان في الصحن كبَّر، فلم يجبه أحد، فلما كان في باب بيته كبَّر، فلم يجبه أحد، وكان إذا دخل بيته أخذت امرأته رداءه، ونعليه، ثم أتته بطعامه، قال: فدخل فإذا البيت ليس فيه سراج، وإذا امرأته جالسة في البيت منكسة تنكت بعود معها، فقال لها: ما لك؟ فقالت: أنت لك منزلة من معاوية، وليس لنا خادم، فلو سألتَهُ فَأَخْدَمَنَا، وأعطاك، فقال: اللهمَّ من أفسد عليَّ امرأتي فأعْمِ بصره، قال: وقد جاءتها امرأة قبل ذلك، فقالت: زوجك له منزلة من معاوية، فلو قلت له: يسأل معاوية يُخْدِمُهُ، ويعطيه، عِشتم[٣]، قال: فبينا تلك المرأة جالسة في بيتها؛ إذ أنكرت بصرها، فقالت: ما لسراجكم طُفِئ؟! قالوا: لا، فعرفت ذنبها، فأقبلتْ إلى أبي مسلم تبكي تسأله أن يدعوَ الله ﷻ لها يرد عليها بصرها، قال: فرحمها أبو مسلم، فدعا اللهَ ﷻ لها فردَّ عليها بصرها»[٤].

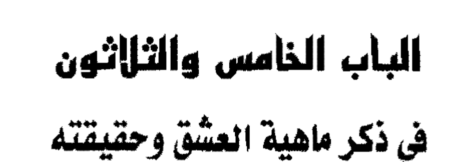
---

(١) يَا هَنْتَاه، أي: يا هذه، وقيل: معنى يا هنتاه: يا بلهاء، كأنها نسبت إلى قلة المعرفة بمكايد الناس وشرورهم، لسان العرب (١٥/ ٣٦٩).

(٢) أخرجه السراج القاري في مصارع العشاق (١/ ٦٧).

(٣) أي: عِشتم عيشة هنيئةً.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٢٩).

الباب الخامس والثلاثون
في ذكر ماهية العشق وحقيقته

وقد اختلف كلام الناس في ذلك، وأكثرُهم سمَّوه باسم سببه، أو باسم ما يؤول إليه.

ذكر كلام الأوائل في ذلك

قال أفلاطون: «العشق حركة النفس الفارغة بغير فكرة».

وسئل يوذجانس عن العشق، فقال: «سوء اختيار صادف نفسًا فارغة».

وقال أرسطاطاليس: «العشق هو عمى الحس عن إدراك عيوب المحبوب».

وقال فيثاغورس: «العشق طمع يتولد في القلب، ويتحرَّك، وينمى، ثم يتربى، ويجتمع إليه مواد من الحرص، فكلما قوي ازداد صاحبه في الاهتياج، واللجاج، والتمادي في الطمع، والفكر في الأماني، والحرص على الطلب حتى يؤديه ذلك إلى الغم المقلق».

وفي هذا المعنى قال المتنبي:

وما العِشْقُ إلاَّ غِرَّةٌ[1] وَطَماعَةٌ   يُعَرِّضُ قلبَ نفسِهِ فيصابُ

عن أبي بكر بن المرزبان قال: «قال سقراط الحكيم: العشق جنون، وهو ألوان كما أن الجنون ألوان».

---

(١) الغِرَّة: الغفلة، الصحاح (٢/ ٧٦٨).

وعن المظفر بن يحيى قال: «قال بعض الفلاسفة: لم أَرَ حقًّا أشبه بباطل، ولا باطلًا أشبه بحق من العشق، هزله جد، وجده هزل، وأوله لعب، وآخره عطب».

وعن ابن عائشة قال: «قلت لطبيب كان موصوفًا بالحذق: ما العشق؟ قال: شغل قلب فارغ»، قلت: وقد ذهب بعضهم إلى أنه مرض وَسْواسي شبيه بالماليخوليا[1].

ذكر كلام الإسلاميين في ذلك

قال عبد الله بن جعفر المديني: «قلت لأبي زهير المديني: ما العشق؟ قال: الجنون، والذل، وهو داء أهل الظرف»[2].

وعن أبي الفضل الـمَرْوَرُّوذِي قال: «وصف أعرابي الحبَّ، فقال: إن لم يكن جنسًا من الجنون، إنه لعصارة من السحر!».

وروي عن الأصمعي أنه قال: «لقد أكثر الناس في العشق، فما سمعت أوجز، ولا أجمل من قول بعض نساء العرب- وسئلت عن العشق، فقالت-: ذلٌّ، وجنون».

قلت: هذه صفة ثمرة العشق، ومآله.

والتحقيق: أن العشق شدة ميل النفس إلى صورة تلائم طبعها، فإذا قوي فكرها فيها تصورت حصولها، وتمنَّت ذلك، فيتجدد من شدة الفكر مرض.

[ذكر مراتب العشق]

أول ما يتجدد الاستحسان للشخص، ثم يجلب إرادة القرب منه، ثم

---

(١) الماليخوليا: تشويش الظنون، وميل الفكر إلى الفساد والخوف، فهو مرض عقلي. معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، للسيوطي (ص١٨٦).

(٢) الظَّرفُ حسن العبارة، وقيل: حُسن الهيئة، وقيل: الحِذق بالشيء، لسان العرب (٩/ ٢٢٨).

المودة، وهو أن يود أن لو ملكه، ثم يقوى الودُّ فيصير محبة، ثم يصير خُلَّة، ثم يصير هوى فيهوي بصاحبه في محابِّ المحبوب من غير تمالك، ثم يصير عشقًا، ثم يصير تَتَيُّمًا، والتَّتَيُّم حالة يصير بها المعشوق مالكًا للعاشق، لا يوجد في قلبه سواه، ومنه تيم الله، ثم يزيد التَّتَيُّم فيصير ولَـهًا، والوَلَهُ: الخروج عن حدِّ الترتيب، والتعطل عن أحوال التمييز، وقال بعض العلماء: أول مراتب العشق: الميل إلى المحبوب، ثم يستحكم الهوى فيصير مودة، ثم تزيد بالمؤانسة- وتَدْرُسُ[1] بالجفاء، والأذى- ثم الخلة، ثم الصبابة، وهي رقةُ الشوق يولدها الألفة، ويبعثها الإشفاق، ويهيجها الذِّكر، ثم يصير عشقًا، وهو أعلى ضرب، فمبتدؤه يصفِّي الفهم، ويهذِّب العقل، كما قال ذو الرياستين لأصحابه: اعشقوا، ولا تعشقوا حرامًا؛ فإن عشق الحلال يُطلِقُ اللسانَ العَيِيَّ، ويرفع التبلُّدَ، ويُسخِي كفَّ البخيل، ويبعث على النظافة، ويدعو إلى الذكاء، فإذا زاد مَرِضَ الجسدُ، فإذا زاد جَرَحَ القلبَ، وأزال الرأي، واستهلك العقل، ثم يترقى فيصير ولـهًا، ويسمى ذو الوله مُدلَّـهًا[2]، ومُستَهامًا[3]، ومستهترًا، وحيرانَ، ثم بعده التَّتَيُّم، فيدعى متيمًا، والتَّتَيُّم: نهايةُ الهوى، وآخِرُ العشق، ومن التَّتَيُّم يكون الدَّاءُ الدويُّ، والجنون الشاغل.

وقال بعض الحكماء: «أول الحب: العلاقة، وهو شيء يحدثه النظر، أو السمع فيخطر بالبال، ويعرض للفكر، ويرتاح له القلب، ثم ينمى بالطبع

---

(١) دَرَسَ الأثر يدرس دُروسًا ودرسته الريح تدرسه درسًا، أي: محته، لسان العرب (٦/ ٧٩).

(٢) التَّدَلُّهُ: ذهاب العقل من الهوى، لسان العرب (١٣/ ٤٨٨).

(٣) هامَ على وجهه يهيم هَيمًا وهَيَمانًا: ذهب من العشق أو غيره. وقلب مستهام، أي: هائم، الصحاح (٥/ ٢٠٦٣).

واللجاج، وإدمان الذكر، ثم يقوى فيصير حبًّا، ثم يصير هَوًى، ثم خلة، ثم عشقًا، ثم ولهًا فيسمى صاحبه مدلَّهًا، ومستهامًا، ومستهترًا، وهائمًا، وحيرانَ، ثم يصير تتيُّمًا، وهو أرفع منازل الحب؛ لأنَّ التَّتَيُّمَ: التعبدُ، والوَجْدَ: ألمُ الحب، والهَيَمانَ: الذهابُ في طلب غرض لا غاية له، والكَلَفَ والشَّغَفَ: اللَهَجُ بطلب الغرض».

قال الفراء: «اللوعة: حرقة القلب من الحب».

وقال أبو عبيد القاسم بن سلَّام: «العلاقة: الحب الملازم للقلب، والجوى: الهوى الباطن، واللوعة: حرقة الهوى، واللاعج: الهوى المحرق، والشغف: أن يبلغ الحب شغاف القلب، وهو جلد دونه، والتَّتَيُّم: أن يستعبده الهوى، ومنه تيم الله، ورجل متيم، والتَّبل أن يُسْقِمَه الهوى، يقال: رجل متبول، والتدليه: ذهاب العقل من الهوى، يقال: مدلَّه، والهيوم: أن يذهب على وجهه، والشغف: إحراق الحب القلب مع لذة يجدها، وهو شبيه باللوعة»[١].

وقال أبو بكر ابن الأنباري: «ويقال: استهتر الرجل بكذا إذا ذهب عقله فيه، وانصرفت همته إليه»[٢].

وقال أبو عبد الله ابن عرفة: «الإرادة قبل المحبة، ثم المحبة، ثم الهوى، ثم العشق، ثم التَّتَيُّم، وأنشد لنفسه:

يا لقوم كم يُعْذَلُ المشتاقُ ... والمُعَنَّى إلى الهوى ينساقُ

رحمتي رأفة وحبِّيَ عشقٌ ... واشتياقي صبابةٌ لا تطاقُ»

---

(١) الغريب المصنف (٢/ ٤١١).

(٢) الزاهر في معاني كلمات الناس (١/ ٤٦١).

قال ابن دريد: «الصبابة: رقة الهوى، واشتقاق الحب من أَحَبَّ البعيرُ إذا برك من الإعياء»[١].

[العشق من أنواع المحبة]

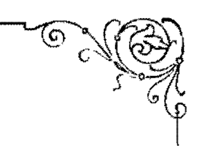
واعلم أن المحبة جنس، والعشق نوع؛ فإن الرجل يحب أباه، وابنه، ولا يبعثه ذلك على تلف نفسه بخلاف العاشق، وقد نُقل أن بعض العشاق نظر إلى جارية كان يهواها فارتعدت فرائصه، وغُشِيَ عليه، فقيل لبعض الحكماء: ما الذي أصابه؟ فقال: نظر إلى من يحبه فانفرج قلبه، فتحرك الجسم لانفراج القلب، فقيل له: نحن نحب أهالِيَنَا، ولا يصيبنا ذلك، فقال: تلك محبة العقل، وهذه محبة الروح.

عن الجاحظ قال: «كل عشق يسمَّى حبًّا، وليس كل حب يسمى عشقًا؛ لأن العشق: اسم لما فضل عن المحبة، كما أن السّرف: اسم لما جاوز الجود، والبخل: اسم لما نقص عن الاقتصاد، والجبن: اسم لما فضل عن شدة الاحتراس، والهوج: اسم لما فضل عن الشجاعة»[٢].

---

(١) جمهرة اللغة (١/ ٦٤)، (٢/ ١٠٢٤).

(٢) رسائل الجاحظ (٣/ ١٣٩).

الباب السادس والثلاثون

في ذكر سبب الحب والعشق

﴿ذكر حكماء الأوائل أن النفوس ثلاث﴾

نفس **ناطقة**، ومحبتها منصرفة إلى المعارف واكتساب الفضائل.

ونفس **حيوانية عصبية**، فمحبتها منصرفة نحو القهر والغلبة والرياسة.

ونفس **شهوانية**، فمحبتها منصرفة إلى المآكل والمشارب والمناكح، ونحن الآن مبتدئون لنشرح عشق هذه النفس الشهوانية، فنقول:

سبب العشق: مصادفة النفس ما يلائم طبعها فتستحسنه، وتميل إليه، وأكثر أسباب المصادفة النظر، ولا يكون ذلك باللمح، بل بالتثبت في النظر، ومعاودته، فإذا غاب المحبوب عن العين طلبته النفس، ورامت القرب منه، ثم تمنَّت الاستمتاع به فيصير فكرها فيه، وتصويرها إياه في الغيبة حاضرًا، وشغلها كله به فيتجدد من ذلك أمراض لانصراف الفكر إلى ذلك المعنى، وكلما قويت الشهوة البدنية قوي الفكر في ذلك.

﴿[أسباب العشق]﴾

ومن **أسباب العشق**: سماع الغزل، والغناء؛ فإن ذلك يصور في النفوس نقوشَ صورٍ فتتخمر خميرة صورة موصوفة، ثم يصادف النظر مستحسنًا، فتتعلق النفس بما كانت تطلبه حالة الوصف.

[ذكر بعض الحكماء أنه لا يقع العشق إلا لمجانس]

وقد ذكر بعض الحكماء أنه لا يقع العشق إلا لمجانس، وأنه يضعف ويقوى على قدر التشاكل، واستدل بقول النبي ﷺ: «**الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**»[1].

قال: وقد كانت الأرواح موجودة قبل الأجسام فمال الجنس إلى الجنس، فلما افترقت في الأجساد بقي في كل نفس حب ما كان مقاربًا لها، فإذا شاهدت النفسُ من نفسٍ نوعَ موافقة مالت إليها ظانَّةً أنها هي التي كانت قرينتها، فإن كان التشاكل في المعاني كانت صداقة ومودة، وإن كان في معنى يتعلق بالصورة كان عشقًا، وإنما يوجد الملل، والإعراض في بعض الناس؛ لأن التجربة أبانت ارتفاع المجانسة والمناسبة، وأنشدوا في ذلك:

«وقائل كيف تهاجَرْتُما ... فقلت قولًا فيه إنصافُ

لم يكُ من شكلي ففارقتُهُ ... والناسُ أشكالٌ وأُلَّافُ»

عن سهل بن عمرو الفقيمي قال: «قيل لبعض الحكماء: أي الحب أغلب؟ قال: حب متشاكلين».

وعن سويد بن نصر قال: «اشترى ابن المبارك جارية فأحبها فحجَّ فكتب إليها:

هبَّتِ الريحُ من الشْـ ... ـشَرْقِ فجائتني بريحِكْ

فتنشَّقتُ نسيـْ ... ـمَ العيشِ من طيب نفوحِكْ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٦)، ومسلم (٢٦٣٨).

فتوَهَّمْتُــــكِ حَتْــــــــتَى خِلْتُنــي بــين كشــوحِكْ[1]

كَيْـفَ أَنْسَـاكِ وَرُوحِـي صُـنِعَتْ مِـــنْ جِــــنْسِ رُوحِـــكْ

وقال علي بن عبيدة: «المودة: تعاطُفُ القلوب، وائتلاف الأرواح، وحنين النفوس إلى مباثة الأسرار، والاسترواح بالمستكِنَّاتِ في الغرائز، واستيحاش الأشخاص لتباين اللقاء، وظهور السرور بكثرة التزاور، وعلى حسب مشاكلة الجوهر يكون الاتفاق في الخصال».

[التوفيق بين كون الحب من طرف واحد، والقول بأن العشق نوع موافقة في الطباع]

فإن قيل: إذا كان سبب العشق نوع موافقة بين الشخصين في الطباع، فكيف يحب أحدهما صاحبه، والآخر لا يحبه؟

فالجواب: أنه يتفق في طبع المعشوق ما يوافق طبع العاشق، ولا يتفق في طبع العاشق ما يلائم طبع المعشوق، وإذا كان سبب العشق اتفاقًا في الطباع بطل قول من قال: إن العشق لا يكون إلا للأشياء المستحسَنة، وإنما يكون العشق لنوع مناسبة وملاءمة، ثم قد يكون الشيء حسنًا عند شخص غير حسن عند آخرَ.

عن أحمد بن بسام قال: «أخبرني بعض أهل الأدب قال: كان إسماعيل بن جامع قد تزوج بالحجاز جارية سوداء مولاة لقوم يقال لها مريم، فلما صار من الرشيد بالموضع الذي صار به اشتاق إلى السوداء، فقال- يذكرها، ويذكر الموضع الذي كان يألفها فيه، ويجتمعان فيه-:

(١) الكَشْحُ: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف، لسان العرب (٢/ ٥٧١).

هل ليلتي بِقَفَا الحَصْحَاصِ عائدةٌ ... في قبة ذات أشراجٍ وأزرارِ[1]

تسمو مجامِرُها بالمندلي كما ... تسمو بحنانةٍ أفواجُ إعصارِ[2]

المسكُ يبدو إلينا من غلائلها ... والعنبرُ الوردُ يُذكيه على النارِ[3]

ومريم بينَ أثوابٍ منعمةٌ ... طورًا وطورًا تُغَنِّيني بأوتارِ

فقال له الرشيد- وقد سمع بشعره-: ويلك من مريمُكَ هذه التي قد وصفتها صفةَ حورِ العين؟ قال: زوجتي فوصفها كلامًا أضعاف ما وصفها شعرًا، فأرسل الرشيد إلى الحجاز حتى حُمِلَتْ، فإذا هي سوداءُ طُمْطُمانية[4] ذاتُ مشافرٍ[5]، فقال له: ويلك هذه مريم التي ملأتَ الدنيا بذكرها! عليك وعليها لعنة الله! فقال: يا سيدي إن عمر بن أبي ربيعة يقول:

فَتَضَاحكن وقد قُلن لها ... حَسَنٌ في كلِّ عينٍ مَن تَوَدّ»[6]

---

(١) الحصحصة: الإسراع في السير، الصحاح (٣/ ١٠٣٣)، وبقفا الحصحاص، أي: في أثر من هو سريع المشي. والأشراج، جمع شَرَج: وهي العُرَى، القاموس المحيط (ص١٩٥)، القبَّة من الخِيام: بيت صغير مستدير، لسان العرب (١/ ٦٥٩).

(٢) المَنْدَلِيُّ مِن العود: أجوده، نسب إلى مندل، وهي بلد بالهند، لسان العرب (١١/ ٦٥٤).

(٣) الغِلالة: الثوب الذي يُلبس تحت الثياب، لسان العرب (١١/ ٥٠٢).

(٤) طُمْطُمانِيٌّ: أي: في لسانه عجمة، القاموس المحيط (ص١١٣٤).

(٥) المِشْفَرُ والمَشْفَرُ للبَعِيرِ: كالشَّفة للإنسان، وقد يقال للإنسان مشافر على الاستعارة، لسان العرب (٤/ ٤١٩).

(٦) والبيت يُفهم بسياقه، وقد ذكره أبو هلال العسكري عن عمر بن أبي ربيعة في ديوان المعاني (١/ ٢٢٨) ضمن مقطوعة، منها:

=

وأنشد أبو بكر محمد بن داود الفقيه:

«حَملتُ جبالَ الحبِّ فيك وإنني ... لأعجزُ عن حمل القميص وأضعفُ

وما الحب من حسنٍ ولا من سماحةٍ ... ولكنه شيء به النفسُ تَكْلَفُ»

[من أسباب العشق: تعرض الإنسان بأسبابه]

وقد يتعرض الإنسان بأسباب العشق فيعشق فإنه قد يرى الشخص فلا توجب رؤيته محبته فيديم النظر والمخالطة، فيقع فيما لم يكن في حسابه، كما قال الشاعر:

تولَّعَ بالعشق حتى عَشِقْ ... فلما استقلَّ به لم يُطِقْ

رأى لُجَّةً ظنها موجةً ... فلمَّا تمكَّنَ منها غَرِقْ

وفي الناس من توجب له الرؤيةُ نوعَ محبة فيُعرض عن المحبوب فيزول ذلك، فإن داوَمَ النظر نَمَت كالجنة إذا زُرعت، فإنها إن أُهملت يبست، وإن سُقيت نَمَتْ.

ويتأكد العشق بإدمان النظر، وكثرة اللقاء، وطول الحديث، فإن انضم إلى

=

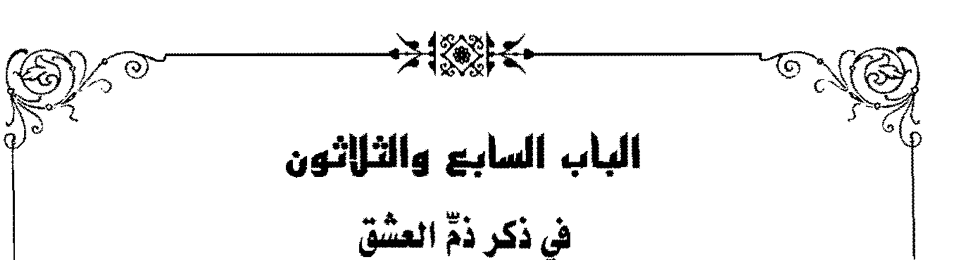
زَعَموها سَأَلَتْ جاراتِها ... وَتَعَرَّتْ ذاتَ يَومٍ تَبْتَرِدْ

أَكَما يَنعَتُني تُبصِرْنَني ... عَمَرَكُنَّ اللهُ أَمْ لا يَقتَصِدْ

فَتَضاحَكْنَ وقَد قُلْنَ لَها ... حَسَنٌ في كُلِّ عَينٍ مَن تَوَدّ

حَسَدٌ حُمِّلْنَهُ مِن أَجْلِها ... وَقَديمًا كانَ في الناسِ الحَسَدْ

ذلك معانقة، أو تقبيل فقد تم استحكامه، وقد ذكر حكماء الأوائل أنه إذا وقعت القُبُلُ بين المتحابين، ووصلت بَلَّةٌ من ريق كل واحد منهما إلى معدة الآخر اختلط ذلك بجميع البدن، ووصل إلى جِرْمِ الكبدِ!



الباب السابع والثلاثون

في ذكر ذمِّ العشق

اختلف الناس في العشق: هل هو ممدوح، أو مذموم؟

فقال قوم: هو ممدوح؛ لأنه لا يكون إلا من لطافة الطبع، ولا يقع عند جامد الطبع حبيسه، ومن لم يجد منه شيئًا فذلك مِن غِلَظِ طبعِهِ، فهو يجلو العقولَ، ويُصفِّي الأذهان ما لم يفرط، فإذا أفرط عاد سمًّا قاتلًا.

وقال آخرون: بل هو مذموم؛ لأنه يستأمر العاشق، ويجعله في مقام المستعبَد.

قلت: وفصلُ الحكم في هذا الفصل أن نقول: أما المحبة والود، والميل إلى الأشياء المستحسَنة، والملائمة فلا يُذَمُّ، ولا يعدم ذلك إلا الحبيسُ من الأشخاص، فأما العشق الذي يزيد على حدِّ الميل والمحبة فيملك العقل، ويصرف صاحبه على غير مقتضى الحكمة، فذلك مذموم، ويتحاشى مِن مثله الحكماء.

وأما القسم الأول فقد وقع فيه خَلْقٌ كثير من الأكابر، ولم يكن عيبًا في حقهم[1].

عن الشعبي أنه كان يقول:

إذا أنت لم تعشق ولم تدرِ ما الهوى فأنــت وَعِيْــرٌ بــالفَلاةِ ســواءُ

وقد روى أبو عبد الله المرزباني: «أن أبا نوفل سئل: هل يسلم أحد من

---

(١) كل صورة ملكت قلبك، وخالطت عقلك، وأفسدت اختيارك فإنها لا تُمدح بحال، فإذا حملتك على ما يحرم فهي محرمة ولا بد.

العشق؟ فقال: نعم الجلف الجافي الذي ليس فيه فضل، ولا عنده فهمٌ، وأما من في طبعه أدنى ظُرف، أو معه دماثةُ أهلِ الحجاز، ورقة أهل العراق فهيهاتَ».

[العشق المذموم]

وأما القسم الثاني من العشق فمذموم لا شك فيه، وبيان ذمِّه أن الشيء إنما يعرف ممدوحًا أو مذمومًا بتأمل ذاته وفوائده وعواقبه، وذات العشق لَهجٌ بصورة، وهذا ليس فيه فضيلة فيمدح، ولا فائدة في العشق للنفس الناطقة، وإنما هو أثر غلبة النفس الشهوانية؛ لأنها لـمَّا قويتْ أحبَّتْ ما يليق بها، ألا ترى أن الصبيان يحبون التماثيل واللعب أكثر من محبتهم للناس لضعفِ نفوسِهم، وكونها مماثلةً للصور لخلوها عن رياضة، فإذا ارتاضت نفوسُهم ارتفعت هِمَمُهُم إلى ما هو أعلى، وهو حبُّ الصور الناطقة، فإذا ارتاضت نفوسهم بالعلوم والمعارف ارتفعت عن حب الذوات ذوات اللحم والدم إلى ما هو أشرف منها.

وأتمُّ أحوال النفس الشهوانية وجودُها مع شهواتها من غير منغِّصٍ.

وأتمُّ أحوال النفس الحيوانية وجودُ غرضها من القهر والرياسة.

وأتمُّ أحوال النفس الناطقة وجودُها مدركةً لحقائق الأشياء بالعلم والمعرفة، وهذه النفس لا يستأسرها الهوى، فإنْ أمالها طبعُها أقامها فِكرُها، وانتاشها[1] من يده عقلُها وفهمها؛ لأنها تتفكر فيما قد نابها فتتلمَّح منتهاه، وترى غايته، وليس من شأنها الوقوف؛ لأنها في السير أبدًا تترقى من علم إلى علم، والعاشق واقف مع صورة جامدة عن التحرك، والعارف بالله سبحانه في السير لا

(١) انتاش الشيء: انتزعه، لسان العرب (٦/ ٣٥٠).

يفتر، ولا يُنْكَرُ أن يقوى طبعُهُ عليه في حال، وتميل به المحبة للصور أحيانًا، غير أنه لا يصير أسيرًا، إنما يميل يسيرًا!

قال بعض الحكماء: «ليس العشق من أدواء الحصفاء إنما هو من أمراض الخلعاء الذين جعلوا دأبهم ولهجهم متابعة النفس، وإرخاء عنان الشهوة، وإمراج[1] النظر في مستحسنات الصور، فهنالك تتقيد النفس ببعض الصور فتأنس، ثم تألف، ثم تتوق، ثم تلمح فيقال: عَشِقَ، وليس هذا من صفات الحكماء؛ لأن الحكيم من استطال رأيه على هواه، وتسلطت حكمته على شهوته، فَرُعُوناتُ طبعه مقيدة أبدًا كصبي بين يدي معلمه، أو عبد بمرأى سيده، وما كان العشق قط إلا لأرعنَ بطَّالٍ، وقلَّ أن يكون لمشغول بصناعة، أو تجارة، فكيف لمشغول بالعلوم والحكم؟! فإنها تصرفه عن ذلك؛ ولهذا لاتكاد تجده في الحكماء».

قيل لرجل من بني عامر: «هل تعرفون فيكم المجنون الذي قتله الحب؟ فقال: إنما يموت من الحب هذه اليمانية الضعاف القلوب».

قال ابن عقيل: «العشق مرض يعتري النفوس العاطلة، والقلوب الفارغة، والمتلمحة للصور لدواعٍ من النفس، ويساعدها إدمان المخالطة، فتتأكد الألفة، ويتمكن الأنس، فيصير بالإدمان شغفًا، وما عشق قط إلا فارغٌ، فهو من علل البطَّالين، وأمراض الفارغين من النظر في دلائل العبر، وطلب الحقائقِ المستَدَلِّ بها على عِظَمِ الخالق؛ ولهذا قَلَّ ما تراه إلا في الرُّعْنِ البَطْرَى[2]، وأرباب

---

(١) مَرَجَ الدابَّة يمرُجُها إذا أرسلها ترعى في المرج، لسان العرب (٢/ ٣٦٤)، وإمراج النظر: إرساله دون ضابط.

(٢) البَطَرُ: الطغيان عند النعمة، لسان العرب (٤/ ٦٩)، ومن فيه بطَر فهو: بَطِر، وجمعها: البَطرَى.

الخلاعة النَّوْكَى[(١)]، وما عشق حكيم قط؛ لأن قلوب الحكماء أشدُّ تمنعًا عن أن تقِفَها صورة من صور الكون، مع شدة تطلبها فهي أبدًا تلحظ وتخطف ولا تقف، وقلَّ أن يحصل عشقٌ من لمحة، وقلَّ أن يضيف حكيم إلى لمحةٍ نظرةً فإنه مارٌّ في طلب المعاني، ومن كان طالبًا لمعرفة الله لاتقفه صورة عن الطلب؛ لأنها تحجبه عن المصوِّر، وحُوشِيَتْ قلوبُ الحكماء الطالبين- فضلًا عن الواصلين العارفين- من أن تحبسهم الصور، أو تفتنهم الأشكال عن الترقي في معارج مقاصدهم، أو تحطهم عن مراكزهم إلى محل الأثقال الراسية، بل هم أبدًا في الترقي هاتِكُون للحُجُبِ والأستار بقوة النظر».

وقد بان بما ذكرنا أن مراد النفس الشهوانية اللذة، فلنقدح في اللذات مطلقًا بما يبين به عيب العشق، ثم نخصه بما يليق به، فنقول:

اعلم أن اللذة الحسنة ليست شيئًا مطلوبًا في ذاتها[(٢)]، إنما هي دفعُ حادث مؤذٍ؛ ليعود الإنسان إلى حالته قبل ذلك الحادث، ومثال هذا: كرجل خرج من

---

(١) الأَنوَك: الأحمق، وجمعه النَّوكَى، لسان العرب (١٠/ ٥٠١).

(٢) بل اللذة مطلوبة لذاتها، كما يشهد بذلك الحس وبديهة العقل، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا تبين هذا فاعلم أن اللَّذَّة والسرور أمر مطلوب، بل هو مَقصود كل حي، وكونه أمرًا مَطلوبًا ومقصودًا أمر ضروري من وجود الحي، وهو في المقاصد والغايات بمنزلة الحس والعلوم البديهية فِي المبادئ والمقدمات».. الاستقامة (٢/ ١٤٨).

واللذة تعم اللذات الشهوانية والعقلية والروحية وغيرها، فجنس اللذة لا يذم لذاته، لكن لو ترتب عليها تفويت خير أعظم منها، أو وقوع في مفسدة أعظم من مصلحتها ذُمَّتْ، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي إنما تذم إذا أعقبت ألمًا أعظم منها، أو منعت لذة خيرًا منها، وتحمد إذا أعانت على اللذة المستقرة، وهو نعيم الآخرة التي هي دائمة عظيمة».. الاستقامة (٢/ ١٥١).

مكان ظليل فسار في الشمس فمسَّه الحرُّ، ثم عاد إلى الظل؛ فإنه يلتذُّ بذلك المكان إلى أن يعود إلى حالته الأولى، ثم يفقد الالتذاذ، ويكون اشتداد اللذة على قدر اشتداد بلوغ أذى الحرِّ إليه، وقد يتصور صاحب اللذة أنها حصلت من غير أذى سابق، وليس كذلك؛ إذ لا يمكن أن تقع لذةٌ حسنةٌ إلا بمقدار التأذي بالخروج عن الطبيعة، كما أنه بمقدار أذى الجوع والعطش يكون الالتذاذ بالطعام والشراب، فإذا عاد الجائع والعطشان إلى حالته الأولى كان إكراهه على تناولهما أبلغَ شيء في أذاه، وأرباب الطلب للملذوذ لا يرون إلا صورة بلوغ الغرض، وهم عَمُون بحجاب الهوى- الذي قدَّمنا ذمَّه- عن فهم ما قلنا، غافلون عما تنطوي عليه اللذة من المخاطرة بالنفوس، وانكسار الجاه، وحصول الإثم، وغير ذلك، فلو قد كَشَف فَجرُ التيقظ سِجافَ[1] ليلِ الهوى فرأوا بأعين البصائر ما يحتوي عليه الهوى من الآفات لهان عليهم غرضُهم.

قال سقراط: «اللذة مِشناق من عسل».

وقال غيره: «اللذة مشوبة بالقبح فتفكروا في انقطاع اللذة، وبقاء ذكر القبح».

وقال آخَرُ: «عارُ الفضيحة كَدَّر لذتها».

[عيب لذة العشق]

وإذا ثبت عيب اللذات عند العقول النيرة بما أشرنا إليه فهذا العيب لازم في باب العشق، بل هو به أجدر؛ فإن إعمال البصر في تكرار النظر حَقَنٌ في نفس العاشق طالب الالتذاذ، فكلما نال لذة بنظرة دفع بعض الأذى الذي جلبه لنفسه، إلا

(١) السَّجفُ والسِّجفُ: السِّتر، لسان العرب (٩/ ١٤٤)، والجمع: سِجاف.

أنه يجتلب بتلك النظرة من الشر أضعاف ما دفع، من جهة أن تكرار النظر يقوي القلق إلى الحبيب، ولا شفاء لذلك إلا أن ينتهي إلى غايته المطلوبة من المتعة الدائمة التي تمتد إلى بداية الملل، وبعض ذلك قد يوجب خزي الدنيا والآخرة.

واعلم أن العشاق قد جاوزوا حد البهائم في عدم ملكة النفس في الانقياد إلى الشهوات؛ لأنهم لم يرضوا أن يصيبوا شهوة الوطء، وهي أقبح الشهوات عند النفس الناطقة من أي موضع كان حتى أرادوها من شخص بعينه فضموا شهوة إلى شهوة، وذلوا للهوى ذلًّا على ذلٍّ، والبهيمة إنما تقصد دفع الأذى عنها فحسب، وهؤلاء استخدموا عقولهم في تدبير نيل شهواتهم.

[ضرر العشق في الدين]

فقد بان لك بما ذكرنا عيب اللذات، وعيب العشق من جهة مشابهته للذات، وبيّنا أنه يزيد عيبه على عيب اللذات مطلقًا، ونزيد ذلك شرحًا ههنا، فنقول: العشق بيِّن الضرر في الدين والدنيا، أما في الدين فإن العشق أولًا يشغل القلب عن الفكر فيما خُلق له من معرفة الإله، والخوف منه، والقرب إليه، ثم بقدر ما ينال من موافقة غرضه المحرم يكون خسران آخرته، وتعرضه لعقوبة خالقه فكلما قرب من هواه بَعُدَ من مولاه، ولا يكاد العشق يقع في الحلال المقدور عليه، فإن وقع فيا سرعان زواله!

قال الحكماء: «كل مملوك مملول».

وقال الشاعر:

«وزادني شغفًا بالحب أن مُنِعَتْ ... أحبُّ شيءٍ إلى الإنسانِ ما مُنِعَا»

فإذا كان المعشوق لا يباح اشتدَّ القلق والطلب له، فإن نِيل منه غرض فالعذاب الشديد في مقابلته، على أنَّ بلوغ الغرض يزيده ألـمًا فتُربي مرارةُ الفراق على لذة الوصال، كما قال قائلهم:

«كلُّ شــيءٍ ربحتُــهُ في التلاقِي والتَّـدَانِي خســرْتُهُ في الفِـرَاقِ»

وإن مَنَعه خوف الله تعالى عن نيل غرض فالامتناع عذاب شديد، فهو معذَّب في كل حال.

[ضرر العشق في الدنيا]

وأما ضرر العشق في الدنيا فإنه يورث الهمَّ الدائم، والفكر اللازم، والوسواس، والأرق، وقلة المطعم، وكثرة السهر، ثم يتسلط على الجوارح فتنشأ الصفرة في البدن، والرعدة في الأطراف، واللجلجة في اللسان، والنحول في الجسد، فالرأي عاطل، والقلب غائب عن تدبير مصلحته، والدموع هواطل، والحسرات تتابع، والزفرات تتوالى، والأنفاس لا تمتد، والأحشاء تضطرم، فإذا غُشي على القلب إغشاءً تامًّا أخرجت إلى الجنون، وما أقربه حينئذٍ من التلف.

هذا، وكم يجني من جناية على العِرْضِ، ووهن الجاه بين الخَلق، وربما أوقع في عقوبات البدن، وإقامة الحد، وقد أنشدوا:

وما عاقل في الناس يُحمد أمرُه ويذكر إلا وهو في الحب أحمقُ

وما من فتى قد ذاق بؤسَ معيشةٍ من الناس إلا ذاقها حين يعشقُ

قال جالينوس: «العشق من فعل النفس، وهي كامنة في الدماغ، والقلب،

والكبد، وفي الدماغ ثلاثة مساكن: مسكن للتخيل، وهو في مقدم الرأس، ومسكن للفكر، وهو في وسطه، ومسكن للذكر، وهو في مؤخره، ولا يسمَّى عاشقًا إلا من إذا فارق معشوقه لم يخْلُ من تخيُّلِهِ، فيمتنع عن الطعام والشراب باشتغال الكبد، ومن النوم باشتغال الدماغ بالتخيل والفكر والذكر، فتكون جميع مساكن النفس قد اشتغلت به».

[اعتراف العشاق بما في العشق من سوء]

ولقد وصف الحكماء قبح ما فيه العشاق فأبلغوا، وكانت تأتي على عقلاء العشاق أحيانًا إفاقة فيصفون قبح ما هم فيه!

عن الجاحظ قال: «ذُكر لي عن بعض حكماء الهند أنه قال: إذا ظهر العشق عندنا في رجلٍ أو امرأة غدونا على أهله بالتعزية».

وقال: «وبلغني أن عاشقًا مات بالهند عشقًا فبعث ملك الهند إلى المعشوق يقتله به».

قال الربعي: «وسمعت أعرابية تقول: مسكينٌ العاشق كل شيء عَدُوُّه، هبوب الرياح يقلقه، ولمعان البرق يؤرقه، ورسوم الديار تحرقه، والعذل يؤلمه، والتذكر يُسقِمه، والبعد ينحله، والقرب يهيجه، والليل يضاعف بلاه، والرقاد يهرب منه، ولقد تداويت بالقرب والبعد، فلم ينجح فيه دواء، ولا عزَّى فيه عزاء، ولقد أحسن الذي يقول:

وقد زعموا أن المحبَّ إذا دنا ... يملُّ وأنَّ النأيَ يَشفي مِنَ الوجدِ

بكلٍّ تداوينا فلم يَشْفَ ما بنا ... على أن قُربَ الدارِ خيرٌ من البُعدِ»

[أشعار في ذم العشق]

عن الأصمعي قال: «سئل أعرابيٌ عن الحب، فقال: وما الحب، وما عسى أن يكون، هل هو إلا سحر، أو جنون، ثم أنشأ يقول:

هَلِ الحبُّ إلا زفرةٌ بعد زفرةٍ　　وحَرٌّ على الأحشاءِ ليس له بردُ

وفيضُ دموعٍ من جفونيَ كلَّما　　بدا عَلَمٌ من أرضِكُم لم يكن يبدو»

قال الأصمعي: «وقلت لأعرابيٍّ ما الحب؟ فقال:

الحب مشغلة عن كل صالحةٍ　　وسكرةُ الحب تَنفي سكرةَ الوَسَنِ»

وأنشد الصيدلاني فقال:

«قالت جُننتَ على رأسي فقلتُ لها　　العشقُ أعظمُ مما بالمجانينِ

العشق ليس يُفيقُ الدهرَ صاحبُهُ　　وإنما يُصرَعُ المجنونُ في الحينِ»

وعن محمد بن أحمد اليزيدي قال:

«كيف يطيق الناس وصف الهوى　　وهو جليلٌ ما له قَدْرُ

بل كيف يصفو لحليفِ الهوى　　عيشٌ وفيه البينُ والهجرُ»

وله- أيضًا-:

«والهوى أمرٌ عجيبٌ شأنُهُ　　تارةً يأْسٌ وأحيانًا رَجَا

ليس ممن مات منه عجبٌ　　إنما يُعجَبُ ممن قد نَجَا»

ولابن أبي حصينة:

«والعشق يجتذب النفوسَ إلى الرَّدَى ... بالطبع وَاحَسَدِي لمن لم يَعْشَقِ

طَرَقَ الخيال فهاج لي بطروقِهِ ... ولهًا فليتَ خيالَها لم يَطْرُقِ»

ولابن الرومي:

الحبُّ داءٌ عياءٌ لا دواءَ له ... تضلُّ فيه الأطباءُ النحاريرُ

قد كنتُ أحسبُ أن العاشقين غلَوا ... في وصفِهِ فإذا بالقومِ تقصيرُ

ولصالح بن عبد القدوس:

عاصِ الهوَى إنَّ الهوَى مَرْكبٌ ... يَصعبُ بعد اللِّينِ منه الذليلُ

إنْ يَجلبِ اليومَ الهوى لذَّةً ... ففي غدٍ منه البُكا والعويلُ

وله:

والحب سلطان له عبيدٌ ... مجانٌ لم يُشرَوا بأثمانِ

وقال أبو عبد الله بن الحجاج:

ويحك يا قلب ما أغفلَكْ! ... تَعشقُ مَن يَعشقُ أنْ يقتلَكْ!

وأنت يا طَرْفي أوقعتَنِي ... ويحَكَ يا طرفُ ما لي ولَكْ

قد كان من حقِّ بُكَايَ على ... مَن يُبتَلَى بالحبِّ أنْ يَشغَلَكْ

حتى توصلتَ لقلبي فلا ... كنتَ ولا كان الذي أرسلَكْ

ولأبي بكر هبة الله بن الحسن العلاف:

أقول وقد جدَّ الغرامُ بمهجتي ... وفاضت جفوني بعد أدمعها دَمَا

إذا شئتَ أن تلقى من الناس ميِّتًا ... على صورة الأحياء فَالْقَ مُتيَّمَا

وقال عبد المحسن بن غالب الصوري:

وكان ابتداء الذي بي مُجُونَا ... فلما تمكَّنَ أمسى جُنُونَا

وكنتُ أظن الهوى هَيِّنًا ... فلاقيتُ منه عذابًا مُهِينَا

وله:

كأسُ الهوى والخمرِ واحدةٌ ... كلٌّ مسلطةٌ على العقلِ

وقال آخر:

من كان لم يذقِ الهوى فليأتني ... أُخبِرْهُ مِن طبٍّ به ذواقِ

الحبُّ أولُهُ يلذُّ مذاقُهُ ... فإذا خبرتَ خبرتَ شرَّ مَذَاقِ

وقال آخر:

ما أقتلَ الحبَّ والإنسانُ يجهلُهُ ... وكل ما لم يذقْهُ فهو مجهولُ

راح الرماةُ إلى بعض المها فإذا ... بعضُ الرماةِ ببعضِ الصيدِ مقتولُ



الباب الثامن والثلاثون
في ذكر ثواب من عشق وعفَّ وكتم

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «مَنْ عَشَقَ فَعَفَّ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ»(١).

---

(١) من كان حاله العفاف مع التقوى والصبر فهو مأجور عند الله ﷻ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وهو شبيه بثالث الثلاثة الذين دخلوا الغار فسدَّت عليهم صخرة الباب، فدعوا الله بصالح أعمالهم، ودعا هو بعفته تجاه ابنة عمه، فقال: «**فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا، وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ**»، أخرجه البخاري (٢٢٧٢)، وهو كالذي ذكره رسول الله ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فقال: «**وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ، وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ**»، أخرجه البخاري (٦٦٠).
أما ماذُكِر من طرق للحديث في فضل من عشق وعفَّ وكتم، فكلها مقدوح فيها، كحديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ عَشَقَ فَعَفَّ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ**». فقد أورده ابن القيم في المنار المنيف (٣٢١)، وقال: «موضوع»، وقال في زاد المعاد: «فإن هذا الحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، ولا يجوز أن يكون من كلامه». زاد المعاد (٤/ ٢٥٣).
وقال ابن حجر: «وأما الميت عشقًا فاشتهر من رواية سويد بن سعيد عن علي بن مسهر... وقد أنكره على سويد الأئمة، قاله ابن عدي في كامله، وكذا أنكره البيهقي، وابن طاهر، وقال ابن حبان: من روى مثل هذا عن علي بن مسهر تجب مجانبة روايته، وسويد بن سعيد هذا وإن كان مسلم أخرج له في صحيحه فقد اعتذر مسلم عن ذلك، وقال: إنه لم يأخذ عنه إلا ما كان عاليًا وتُوبِعَ عليه، ولأجل هذا أعرض عن مثل هذا الحديث، وقال أبو حاتم الرازي: صدوق وأكثر ما عيب عليه التدليس والعمى، وقال الدارقطني: كان لما كبر يُقرأ عليه حديث فيه بعض النكارة فيجيزه، وقال عنه يحيى بن معين- لما بلغه أنه روى أحاديث منكرة لُقِّنها بعد عماه فتلقن-: لو كان لي فرس ورمح لكنت أغزو سويد بن سعيد، وقال الحاكم- بعد أن رواه من حديث محمد بن داود بن علي الظاهري عن أبيه عن سويد-: أنا أتعجب من هذا الحديث فإنه لم يحدِّث به غيرُ سويد، وهو وداود وابنه محمد ثقات. انتهى» التلخيص الحبير (٢/ ٢٨٤).

قال ابن المرزبان: «حدثني أبو بكر الأزرق هذا الحديث عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ فعاتبته على ذلك، فأسقط ذكر النبي ﷺ، فعاتبته على ذلك. وكان يُسأل بعد ذلك عن الحديث فلا يرفعه».



الباب التاسع والثلاثون

في ذكر الآفات التي تجري على العاشق من المرض والضنى والجنون، وغير ذلك

عن محمد الفارسي قال: حدثني أبي قال: «كان لكسرى حاجبٌ عشقَ جاريةً فعاتبته يومًا، فلم يدرِ ما يجيبها، وارتجَّ عليه فذهب ليتكلم فلجلج، قال: فما زال بعد ذلك أخرس يُكلَّم فلا يتكلم، فجمع له كسرى الأطباء ليعالجوه، فلم يكن فيه حيلة، وتوفي على ذلك».

وعن محمد بن جعفر بن الزبير قال: «سمعت رجلًا من بني عذرة عند عروة ابن الزبير يحدثه، فقال عروة: يا هذا، بحق أقول لكم: إنكم أرق الناس قلوبًا، فقال: نعم، والله لقد تركت بالحي ثلاثين شابًّا قد خامرهم السُّلُّ ما بهم إلا داء الحب»(١).

وعن عبد الله بن همام قال: «خرجت أريد بعض الحوائج، فإذا أنا بابن أبي مالك، وهو قاعد في الصحراء بين الحيرة والكوفة، فقلت: ما تصنع ههنا؟ فقال: أصنع ما كان صاحبنا يصنع، فقلت: ومن صاحبكم؟ قال: مجنون بني عامر صاحب ليلى، قال: وإلى جانبه حجر فتناوله، وعدا خلفي فتجاوزني الحجر، وعدت فقعدت بعيدًا منه، قال: فقال لي: والله ما أحسن ولا أجمل حيث يقول:

علقتك إذ عيني عليها غشاوة ... فلما انجلت قطَّعتُ نفسي ألومها

---

(١) أخرجه أبو إسحاق الخُتَّلي في المحبة لله (١٦١).

ما له لم يقل كما قلت:

رماني الهوى منه بأعظم شجوة وعسكرَ حولي الهجر دون حبيبي

فصبرًا لعل الدهر يجمع بيننا بإلف حبيب أو بموت رقيب

قال: ثم قال: ألا تقول ما هو أحسن من هذا، لا إله إلا الله الواحد الأحد خلق فقدر، وحكم فعدل».

وعن محمد بن أبي نصر الأزدي قال: «رأيت بالبصرة مجنونًا قاعدًا على ظهر الطريق بالمربد، وكلَّما مر به ركب قال:

ألا أيها الركب اليمانون عرِّجوا علينا فقد أمسى هوانَا يمانِيَا

لنسألكم هل سال نعمانُ بعدنا فحبَّ إلينا بطنُ نعمانَ واديَا

قال: فسألت عنه، فقيل: هذا رجل من البصرة كانت له ابنة عم، وكان يحبها فتزوجها رجل من أهل الطائف، فنقلها فاستَوْلَهَ عليها».

وكان سوار بن عبد الله القاضي قد خامر قلبَهُ شيء من الوجد، فقال:

«سلبتِ عظامي لحمَها فتركْتِها عواريَ في أجلادِها تتكسَّرُ

وأخليتِ منها مخَّها فكأنها قواريرُ في أجوافِها الريحُ تَصْفرُ

خذي بيدي ثم ارفعي الثوبَ فانظري بِلَى جسدي لكنني أَتَسَتَّرُ»

وعن عبيد الله الشروي قهرمان سليمان بن أبي جعفر قال: «دخل هارون الرشيد على سليمان بن أبي جعفر- وكان عليلًا- فرأى عنده جارية له تسمى

ضعيفة في غاية الحسن والجمال والشكل، فوقعت في قلبه، فقال هارون لسليمان: هبها لي، فقال: هي لك يا أمير المؤمنين، فلما أخذها مرض سليمان من شدة حبه لها، فقال سليمان:

أشكو إلى ذي العرشِ ما ... لاقيتُ من أمرِ الخليفَهْ

يسعُ البريةَ عدلُهُ ... ويريد ظلمي في ضعيفَهْ

علق الفؤادُ بحبها ... كالحبرِ يَعلَقُ بالصحيفَهْ»

قال: فبلغ ذلك هارون الرشيد فردها عليه.

وعن محمد بن خلف قال: «ترى العاشق إذا رأى من يحبه، أو سمع بذكره كيف يهرب دمه، ويستحيل لونه، ويخفق فؤاده، وتأخذه الرعدة، وربَّما امتنع من الكلام، ولم يُطِقْ ردَّ الجواب، وقد قال بعض الشعراء:

علامةُ مَن كان الهوى في فؤاده ... إذا ما رأى الأحبابَ أن يتحيَّرَا

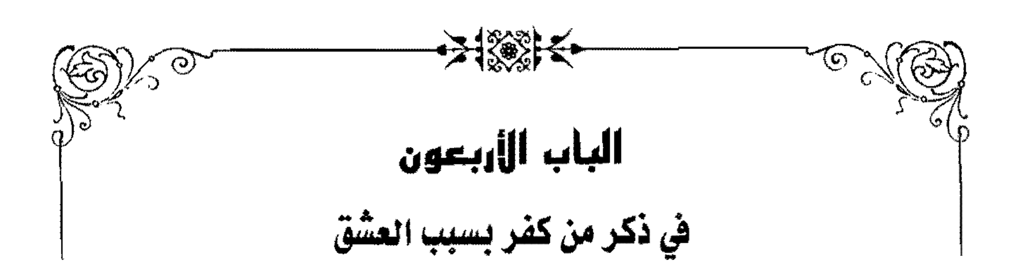
ويصفَرَّ لونُ الوجه بعد احمراره ... وإنْ حرَّكوه للكلام تَثَوَّرَا»

وبلغنا عن مصعب بن الزبير: «أنه لـمَّا خرج من الكوفة فصار على عشرة أميال كتب إلى سكينة بنت الحسين زوجته:

وكان عزيزًا أن أبيتَ وبيننا ... حجابٌ فقد أصبحتِ مني على عشرِ

وأبكَاهما للعَين والله فاعلَمي ... إذا ازددت مثليها صرت على شهرِ

وأبكَى لقلبي منهُما اليومَ أنني ... أخاف بأن لا نلتقي آخِرَ الدهرِ»



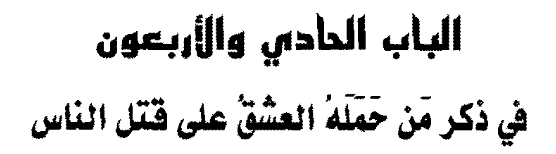
الباب الأربعون

في ذكر من كفر بسبب العشق

عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «كَانَ رَجُلٌ يَعْبُدُ اللهَ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ ثَلاثَمِائَةِ عَامٍ؛ يَصُوْمُ النَّهَارَ، وَيَقُوْمُ اللَّيْلَ، ثُمَّ إِنَّهُ كَفَرَ بِاللهِ الْعَظِيْمِ فِي سَبَبِ امْرَأَةٍ عَشِقَهَا، وَتَرَكَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ، ثُمَّ اسْتَدْرَكَهُ اللهُ بِبَعْضِ مَا كَانَ مِنْهُ فَتَابَ عَلَيْهِ»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٤٥٠).

الباب الحادي والأربعون

في ذكر مَن حَمَلَهُ العشقُ على قتل الناس

عن رجل من بجيلة عن مشيخة قومه: «أن عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله رأى امرأة من تيم الرباب يقال لها قطام، وكانت من أجمل النساء ترى رأي الخوارج، قد قُتل قومُها على هذا الرأي يوم النهروان، فلما أبصرها عشقها فخطبها، فقالت: لا أتزوجك إلا على ثلاثة آلاف، وقتل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فتزوجها على ذلك، فلما بنى بها قالت له: يا هذا، قد فرغت فافرغ، فخرج متلبسًا سلاحه، وخرج قطام فضربت له قبة في المسجد، وخرج علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: الصلاة الصلاة، فأتبعه عبد الرحمن فضربه بالسيف على قرن رأسه، فقال الشاعر:

لم أَرَ مهرًا ساقه ذو سماحة ... كمهر قطام بيننا غير معجمِ

ثلاثةُ آلافٍ وعبدٌ وقينةٌ ... وقتلُ عليٍّ بالحسامِ المصممِ

فلا مهر أغلى من عليٍّ وإنْ غلا ... ولا فَتْكَ إلَّا دون فَتْكِ ابنِ مُلْجِمِ»[1]

وعن نافع: «أن وليدةً كانت بالمدينة في خلافة معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان لها هوى، فقالت: لا أرضى حتى تقتل فلانًا- لسيدها- فقتله، وأعانته على ذلك فأُخذ

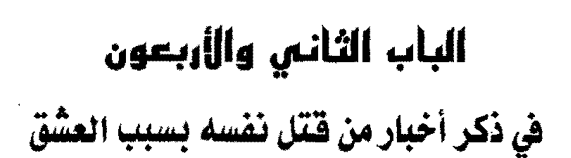
---

(١) البدأ والتاريخ، لابن طاهر المقدسي (٥/ ٢٣٣).

الرجلُ، وأُخذت معه فتحابلت فتركوها قريبًا من ثلاثة أشهر، فلما تبيَّن لهم أنه لا حمل بها قتلوها».

وعن محمد بن حرب قال: «كانت رقاش امرأة من إياد بن نزار، وكان أبوها يحبها حبًّا شديدًا فخطبها رجل من قومها فأعجبت به، ووقع من قلبها، فامتنع أبوها من تزويجه، فسقت أباها شربة، فلما وجد حسَّ الموت قال: يا رقاش قتلتِني لمن هو أبعد مني، وسوف ينالك وبال النقمة، قال: فلما هلك أبوها تزوجت ذلك الرجل، فلم ينشب أن ضربها، فقيل لها: يا رقاش ضربك زوجك، فقالت: مَن قلَّ ناصره اعترف بالذلِّ، ثم لم ينشب أن تزوَّج عليها، فقيل: يا رقاش تزوج عليك زوجك، فلو سألتيه الطلاقَ، قالت: لا أبغي الشرَّ بالشرِّ، وحسبك بالطلاق عيبًا بالحرة».





الباب الثاني والأربعون
في ذكر أخبار من قتل نفسه بسبب العشق

وقد رويت أخبار كثيرة فيمن قتل نفسه بسبب هذا البلاء، فكان من الخاسرين.

[الوعيد من الكتاب والسنة لمن قتل نفسه، أو قتل غيره]

فانظر- وفَّقك الله- إلى ما صنع العشق بهؤلاء المغبونين من بين قاتل لنفسه، وقاتل لغيره.

فأما قتلُ الغير فقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أنه ذكر الموبقاتِ، فعدَّ منهن: قتلَ النفسِ التي حرَّم الله إلا بالحق»[1].

وأما قتل النفس فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَحَسَّىٰ سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّىٰ مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ يَتَرَدَّىٰ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»[١].

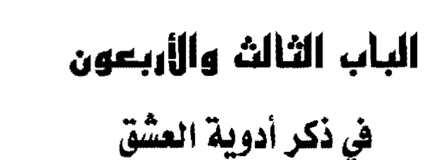
وقوله: «**خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا**» محمول على من يستحِلُّ ذلك.

وفي الصحيحين من حديث جندب بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**كَانَ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ جُرْحٌ فَجَزِعَ، فَأَخَذَ سِكِّينًا، فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ، فَمَا رَقَأَ الدَّمُ حَتَّىٰ مَاتَ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ، حَرَّمْت عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**»[٢].

---

(١) أخرجه أحمد (١٠١٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦٣)، ومسلم (١٨١).

الباب الثالث والأربعون
في ذكر أدوية العشق

الحِمْيَةُ اللازمة في زمان الصحة لا ينبغي أن تُترك، ومتى عُلِمتْ أسبابُ مرض وجب اجتنابها، ومعلوم أن الطباع تتساوى في الميل إلى الهوى فينبغي للحازم اجتنابُ أسبابه، فمتى أصابه شيء من ذلك المرض وجب عليه أن يبادر إلى الطبيب قبل أن يصعبَ التلافي، أو يَحِلَّ التلفُ.

[أسباب الابتلاء بالعشق]

ومن التفريط القبيح الذي جرَّ أصعب الجنايات على النفس: محادثة النساء الأجانب والخلوة بهن، وقد كانت عادةً لجماعة من العرب، يرون أن ذلك ليس بعارٍ، ويثقون من أنفسهم بالامتناع من الزنا، ويقنعون بالنظر والمحادثة، وتلك الأشياء تعمل في الباطن وهم في غفلة عن ذلك إلى أن هلكوا، وهذا هو الذي جنى على مجنون ليلى وغيره ما أخرجهم به إلى الجنون والهلاك.

وكان غلطهم من وجهين:

أحدهما: مخالفة الشرع الذي نهى عن النظر والخلوة.

والثاني: تعريض الطبع لما قد جُبل على الميل إليه، ثم معاناة كفِّهِ عن ذلك؛ فالطبع يغلب، فإن غلب وقعت المعاصي، وإن غلب حصل التلف بمنع العطشان عن تناول الماء.

واعلم أن أمراض العشق تختلف؛ فينبغي لذلك أن يختلف علاجها، فليس

علاج من عنده بداية المرض كعلاج من انتهى به المرض نهايته، وإنما يعالج هذا المرض من لم يَرتَقِ إلى غايته؛ فإنه إذا بلغ الغاية أحدث الجنون والذهول، وتلك حالة لا تَقبل العلاج.

قال بقراط: «قصمت الأدواء بالعقاقير، وأقمتها بإزاء العلل، فأعياني دواءُ الحبِّ بعد تمكُّنه أن أُدركه».

قال البحتري:

«ولقد قال طبيبي وطبيبي ذو احتيالِ
أُشْكُ ما شئتَ سوى الـ ـحبِّ فإني لا أُبالِي
سقمُ الحبِّ رخيصٌ ودواءُ الحبِّ غالِي»

وقال أبو غالب بن بشران:

«ومنتصحٍ قال لي إذ رأى دُمُو عِي قد أقرحَتْ مدمَعِي
متى تستفيق وتسلو الهوى؟ فقلت إذا كان قلبي مَعِي»

وقال غيره:

«دخولك في باب الهوى إن أردتَهُ يسيرٌ ولكنَّ الخروجَ شديدُ»

فإن قال قائل: كيف يذكر للعشق أدوية، وهو قلق لا سكون فيه، وسكر لا صحو معه، فيقال لمن يهوي في الهواء أمسك نفسك؟!

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنا قد قلنا: إنما يداوَى هذا المرضُ قبل بلوغ نهايته، فإنها أحوال

يمكن علاجها.

والثاني: أن لكل شيء سببًا يُضعفه ويقويه، فأنا أعرفك السبب الذي يُضعف العشق ويوهنه، وأحذرك من السبب الذي يزيده قوة، فما قلت لك: امنعِ النارَ أن تَحْرِقَ، وإنما قلت: أَطفئها، ولا قلت: ادفع الماء عن أن يُغرِقَ، وإنما علَّمتُكَ السباحة، وهذا حين شروعنا في ذكر المرض والعلاج، والله الموفق.

[أول العشق من النظر]

اعلم أن بداية العشق في الأغلب تكون عند النظر إلى المحاسن، ولحصول العشق بهذا النظر علامة، وهي أنه إذا وقع النظر إلى المستحسَن خفق القلب خفوقًا يكاد يطير إليه، فإذا ردَّ الإنسان الطرْفَ قلق القلبُ حتى يعودَ، فإذا أُطلقَ، ثم رُدَّ فَكَّ اللجامَ قهرًا، وعاود النظر، فهذه علامة العشق لا تكاد تخطئ، إلا أن في الناس من يتعلق قلبه بالمنظور في بديهة[1] النظر، فإذا ردَّدَ نظره بان له من العيوب ما لم يكن بان، فزال ما كان علق بقلبه؛ لأن النفس تصورت في بداية النظر من الصورة معنًى أعانها عليه تخيُّلُ الشهوة وتَوَهُّمُ اللذة، فزادت الصفة عن مقدار العيان، فإذا تَكرَّر النظر وحُقِّقَ أثبت حقيقة الصورة، فزالت زيادات التخيل وبرخاشات[2] التوهُّم فبرد قلب المحب؛ لزوال التوهُّم، ورُبَّ امرأةٍ تُستَحْسَنُ في نقابها، فإذا أَسفرَتْ لم تُستحسن.

فأما إذا كان النظر عن تثبت وتحقيق وزاد بترداده المرض فذلك العشق

(١) البَديهَةُ: أول كل شيء، وما يفجأ منه، القاموس المحيط (ص١٢٤٣).
(٢) البِرْخَاشُ: وقعوا في خِرْبَاشٍ وبِرْخاشٍ: في اختلاط وصخب، القاموس المحيط (ص٥٨٤).

المتمكن، والواجب على من وقع بصره على مستحسَنٍ فوجد لذة تلك النظرة في قلبه أن يصرف بصره، فمتى ما تثبَّتَ في تلك النظرة، أو عاود وقع في اللوم شرعًا وعقلًا.

فإن قيل: فإن وقع العشق بأول نظرة، فأي لومٍ على الناظر؟

فالجواب: أنه إذا كانت النظرة لمحةً لم تكد تُوجِب عشقًا، إنما يوجبه جمودُ العين على المنظور بقدر ما تثبت فيه، وذلك ممنوع منه، ولو قدَّرْنا وجوده باللمحة فأثَّرَ محبةً سَهُلَ قمعُ ما حَصَلَ.

وعن عبد العزيز بن عمران عمَّن حدَّثه قال: «جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: يا أمير المؤمنين، إني رأيت امرأة جميلة فعشقتها، فقال عمر: ذاك ما لا يُمْلَكُ!».

فإن قيل: فما علاج العشق إذا وقع بأول لمحة؟

قيل: علاجُهُ الإعراضُ عن النظر؛ فإن النظر مثل الحبة تُلقَى في الأرض، فإذا لم يُلتفت إليها يبستْ، وإن سُقيتْ نبتتْ، فكذلك النظرة إذا أُلحقت بمثلها.

[خطورة إتْباع النظرة النظرة]

فإن جرى تفريطٌ بإِتْباعِ نظرةٍ لنظرة فإن الثانية هي التي تُخاف وتُحذر، فلا ينبغي أن تحقر هذه النظرة، فربما أورثت صبابةً صبَّت دمَ الصَّبِّ[1].

وأنشد ابن نحريز البغدادي:

«تولَّع بالعشق حتى عَشِقْ ... فلما استقل به لم يُطِقْ

---

(١) الصَّبَابة: رِقة الشوق وحرارته، ورجل صبٌّ: عاشقٌ مشتاق، الصحاح (١/ ١٦١).

رأى لُــجَّةً ظَنَّهَـا موجــةً فلمـا تمكَّـنَ منهـا غَـرِقْ

ولـمَّا رأى أدمعًـا تستهلْـ ـلُ وأبصـر أحشاءَهُ تحتَرِقْ

تمنَّـى الإفاقـةَ مِـن سُـكرِهِ فلـم يستطعها ولـم يَسـتَفِقْ»

وعلاج هذه النظرة بالنظر فيما تقدَّمَ ذِكرُهُ من الأمر بغضِّ البصر، والتحذير من شر النظر، وخوف العقوبة من الله سبحانه- عاجلًا وآجلًا- والحذر من سوء عاقبتها، وما تجرُّ وتجني، فيتجدد من العزم على الغضِّ معنى يسمَّى اليأسُ، وهو دواء حاسم.

قال الحكماء: «اليأس إحدى الراحتين»[1].

وقال الشاعر:

«حاولت أمرًا فلم يجرِ القضاءُ به ولا أرى أحدًا يعدَى على القَدَرِ

فقد صبرتُ لأمرِ الله محتسبًا واليأسُ مِن أشبه الأشياءِ بالظَّفَرِ»

وليكن لك في هذا الغضِّ عن المشتهى نيةٌ تَحتَسِبُ بها الأجرَ، وتكتسب بها الفضلَ، وتدخل في جملة من نهى النفس عن الهوى، وانظر في باب ثواب من غضَّ بصره عن الحرام فقد تقدَّم.

[مادة العشق الطمع]

فإن كان تكرار النظر قد نقش صورة المحبوب في القلب نقشًا متمكنًا، وعلامة

---

(١) ويروى: اليأس أحد الظَّفَرين.

ذلك: امتلاء القلب بالحبيب، فكأنه يراه حالًّا في الصدر، وكأنه يضمه إليه عند النوم، ويحادثه في الخلوة، فاعلم أن سببَ هذا الطمعُ في نيل المطلوب، وكفى بالطمع مرضًا! وقلَّ أن يقع الفسق إلا في المطموع فيه، فإن الإنسان لو رأى زوجةَ الملك فهويها لم يكدْ قلبه يتعلق بها؛ لأجل اليأس من مثلها، فأمَّا مَن طمع في شيء فإن الطمع يحمله على طلبه، ويعذبه إن لم يدركه، وقد قال الشاعر:

«وما النفسُ إلا حيثُ يجعلُها الفتَى فـإن أُطمِعَـتْ تاقـتْ وإلَّا تَسَـلَّتِ»

وقال آخر:

«فقلـت لهـا يـا عـزُّ كـلُّ مصـيبةٍ إذا وُطِّنت يومًا لها النفسُ ذَلَّتِ»

وعن علي بن سهل قال: «التمستُ الراحةَ فوجدتُها في اليأسِ»[(١)].

وعلاجُ هذا المرضِ: العزمُ القويُّ على البعد عن المحبوب، والقطع والجذم على غضِّ البصر عنه، وهجران الطمع فيه، وتوطين النفس على اليأس منه، والنظر فيما تقدَّم من ذم الهوى، والتحذير من ذلك.

فإن كان تكرار النظر قد مكَّن نقْشَ صورةِ المحبوبِ في القلب، فأثَّرَ ذلك قوةَ الفكر، وزيادة الشهوة، واشتداد القلق، فسبب ذلك زيادةُ الطمع وقوته، وقد أعلمتُكَ: أن المحبة كشجرة، وأن النظرات كماء يجري إليها، فكلَّما سقاها عَتَتْ[(٢)] وعَسَتْ[(٣)] وإنما دخلتْ هذه الآفاتُ من باب إطلاق البصر فيما حظره الشرعُ،

---

(١) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص١٨٩).

(٢) عَتا يَعتُو عُتِيًّا وعِتِيًّا: كَبِر، الصحاح (٦/ ٢٤١٨).

(٣) عسا الشيء يعْسُو عُسُوًّا وعَساءً، أي: يبس واشتد وصلب، الصحاح (٦/ ٢٤٢٥).

فبذلك تمكَّن سلطانُ الهوى من القلب فبثَّ جُنْدَ الفسادِ في رستاقِ[1] البدنِ، وكم قد تمكَّن هذا المرضُ من شخص فلم يؤثر فيه عذْلُ عاذلٍ وضربُ ضاربٍ.

وعن الأصمعي قال: «تزوج أعرابي امرأة من بني عقيل، فسمعها تتمثل ببيت غزل، فقال لها: ما هذا الذي تتمثلين به؟ لعلك عاشق، لئن سمعتك تعودين لمثل هذا لأضربن ظهرك وبطنك فأنشأت تقول:

فإن يضربوا ظهري وبطني كليهما   فليس لقلبٍ بينَ جنبيَّ ضاربُ

فطلَّقَها».

وعلاج هذا المرض من جنس ما تقدم، إلا أنه ينبغي أن يكون أقوى منه، فإنه يفتقر إلى قوة شديدة في العزم على الغض، وهجر المحبوب قطعًا بتًّا ليعود بالغض؛ غض نبات المحبة الذي سُقي بمياه النظرات هشيمًا، وأنت تعلم أنه إذا انقطعت مياه الوادي نسفته الرياح وأنشفته، فعاد كأن لم يكن، ودوام البعد عن المحبوب يعمل في محو ما نُقش في القلب، فيمحو اليسير منه بعد اليسير من حيث لا يعلم، كما أن مرور الزمان يمحو أثر المصيبة من القلب، ومتى اشتدت العزيمة، فقطعتِ الطمعَ، ومكَّنتِ اليأسَ، ثم أُجيل الفكر في خوف العواقب في الدنيا، والعقوبة في الأخرى، وكرر على النفس ما سبق من ذم الهوى، وما فعل بأربابه فأضناهم وأمرضهم، وأذهب دينهم ودنياهم وجاههم بين الناس، فاستغاثوا بعد الفوت، كما قال محمد بن مناذر:

---

(١) الرُّسْداق والرُّزْداق، فَارِسِيٌّ: بيوت مجتمعة، ولا تقل رُستَاق، لسان العرب (١٠/ ١١٦).

«مــن فتًــى أصــبح في الحبْـــ ـــبِ ســقاه الحـــبُّ سُـــمَّا
كلَّمــا أخفــى جــوى الحبْـــ ـــبِ عليـــه الـــدمعُ نَمَّـــا
ســـاهرٌ لا يَطعَـــمُ النَّـــو مَ إذا الليـــــلُ ادْلَـــــهَمَّا
كلَّمـــا راقـــبَ نَجْـــ ـــمًا فهـــوَى راقـــبَ نجْمَـــا
يـــا ثقـــاتي خَطَـــمَ الحبْـــ ـــبُ لكـــم أنفـــي وزَمَّـــا
يـــا أخـــي دائـــي جَـــوَى الحبْـــ ـــبِ وداءُ النـــاسِ جَمَّـــا
لا تَلُـــمْ مفتضـــحًا في الْـــ ـــحُبِّ إنَّ الحـــبَّ أعْمَـــى»

[الدَّاء والدَّواء]

فإن قال قائل: قد كبرت جنايتي على نفسي، وكررت النظر، وانتقشت صورة المحبوب في قلبي، وأورثت القلق الدائم، ورأت النفس أنها تستشفي من هذا المرض بتكرار النظر والزيارة للمحبوب، فلما فعلتُ زاد الأمر بي، وما أقدر أن أصبر عن الحبيب لحظة، فهل لهذا من علاج أتلافى[1] فيه أمري قبل التلف؟

فالجواب: كيف آمُرُكَ بهجر من لا تصبر عنه لحظة، وكيف لا آمُرُكَ وأنت على شفا هلكةٍ، قد لعبت ببدنك ودينك، فأنت كما قال الشاعر:

«كثـــر فيـــك اللُّـــوَمُ وأيـــن ســـمعي وهُـــمُ»

---

(١) ألفيتُ الشيء: وجدته. وتَلَافَيتُه: تداركته، الصحاح (٦/ ٢٤٨٤).

وقال الآخر:

«بكرتْ صبحًا عواذِلُهُ ورسيسُ الحبِّ قاتِلُهُ[1]

هو في وادٍ وليس به والهوى عنهن شاغِلُهُ

يتمنينَ السُّلُوَّ له ومُنَاهُ مَن يواصِلُهُ»

ومع هذا فلا بدَّ لي من نصيحتك، ما دام الكلام يصل إلى سمعك، إن كان التردد إلى محبوبك يتردد في قلبك فلا تأتين إلى واعظ، فلستَ بمنتفع بالعظات، إنما يوصف الدواء لمن يقبل فأمَّا المخلِّط فإن الدواء يضيع عنده، فإن صحَّ عزمك على استعماله فاسمَعْ أصِفْ لك:

اعلم أن الخيال الذي وقع لك من أن التزاور والنظر يشفي بعض المرض خيال فاسد.

فإن قلتَ: فأراني أسكن في تلك الحالة.

فالجواب: أنه إنما يسكن الوجد لمكان القرب، فإذا وقع البعد زادت نار الشوق اشتعالًا، فأنت في ضرب المثل كالعطشان شرب الخمر، فإنه يجد رطوبةَ الرِّيِّ عند تجرُّعِها، ثم تُلهبه فتزيد العطش، فكذلك قرب العاشق من معشوقه يضم جرحًا إلى جرحٍ، وعقرًا إلى عقرٍ، وكلما زادت الأسباب الظاهرة قويتِ المحبة في الآلات الباطنة، فعملت سمومها في المَقَاتِلِ، والمقتُولُ لا يرى القاتلَ، وقال محمد بن أبي أمية الكاتب:

---

(١) رسُّ الحب ورَسِيسُه: بقيَّته وأثره، لسان العرب (٦/ ٩٧- ٩٨).

«يقولـون لـو لاقيتَهـا سكن الـذي ... بقلبك يـا مشـتاقُ وانقطـعَ الحَـزَنْ

فهـا أنـا قـد لاقيتُهـا مثـل قـولهم ... ليسكن قلبـي باللقـاء فمـا سَكَنْ»

وقال ابن الرومي:

«نعمـتْ بهـا عينـي فطـال عـذابُها ... ولكــم عــذابٌ قــد جنـاه نعــيمُ

نظرَتْ فأقصـدَتِ الفـؤادَ بسهمِهَا ... ثــم انثنــتْ نحــوي فكِـدْتُ أهـيمُ

ويلاه إن نظرتْ وإن هي أعرضـتْ ... وَقْــعُ السِّــهَامِ ونَــزْعُهُنَّ ألــيمُ»

وقال أبو عبد الله ابن الحجاج:

«أَقَــرَّ عينِــي ثــم خلَّــفَ لــي ... قلبًــا بشــوقي إليــه قــد جُرِحَــا

ويخــسر القلــب بعــد غيبتِـهِ ... مـا كـان طَـرْفي عليـه قـد رَبِحَـا»

وقال غيره:

«وما في الأرض أشقى من محبٍّ ... وإن وجـد الهـوى عـذبَ المـذاقِ

تــراه باكيًــا في كــلِّ حــينٍ ... مخافــةَ فرقــةٍ أو لِاشــتياقِ

فيبكــي إن نــأوا شــوقًا إلــيهم ... ويبكــي إن دنـوا خــوفَ الفـراقِ

فتســخن عينــه عنــد التنــائي ... وتســخن عينــه عنــد التلاقِــي»

فإذا عرفت غرور الشيطان في زعمه: أن القرب دواء، وأن النظر شفاء بما أوضحتُ لك من أن قوله محال، وأنه أمر تزيد به الحال مع ارتكاب المحظور الذي لا طاقة بعذابه، ولا قوة على عقابه- علمتَ حينئذٍ- أنه لا علاج إلا

بالهجر، وحسم الطبع من غير تردد.

وعن الأصمعي قال: «قلت لأعرابي: صِفِ الحبَّ، فقال: هو نبت بذْرُهُ النظر، وماؤه المزاورة، ونماؤه الوصل، وقلته الهجر، وحصاده التجني».

وسئل أبو علي الروذباري: «لِمَ يلحق الإنسانَ من التعذيب عند لقاء من يحبه أشدُّ من وقت الفراق، فقال: أجيب عنه ببيت شعر:

بكــى عليهــا حتــى إذا حصــلتْ بكــى عليهــا خوفًــا مــن الغِيَــرِ»

[التفكر في عواقب لقاء المحبوب]

وتفكَّرْ في خطواتك إلى لقاء محبوبك، فاعلم أنها- مع ما بيَّنا من ضرر ألم الزيارة- مكتوبة عليك، وأنت مُطالب بها.

وعن مسروق قال: «ما خطا رجل خطوة إلا كُتبتْ عليه حسنة، أو سيئة»[(١)].

وخطب مروان بن الحكم، فقال: «يا أيها الناس لو كان الله تعالى مُغْفِلًا شيئًا من أعمالكم لأغفل هذا الأثر الذي تسفى عليه الرياح، ثم قرأ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يس:١٢]»[(٢)].

[الترهيب من زلَّات اللسان]

وتفكَّرْ في مكالمتِكَ محبوبَكَ فإنك مسئول عما تقول مع إلهاب الكلامِ نارَ الحب.

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ الْعَبْدَ يَتَكَلَّمُ**

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٨٦٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره عن قتادة (١٨٠٤١).

بِالْكَلِمَةِ يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»[١].

وعن بلال بن الحارث قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ ﷻ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللهُ ﷻ بِهَا عَلَيهِ سَخَطَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[٢].

وكان الربيع بن خثيم يقول: «ما من شيء تتكلم به إلا كُتب، قال مجاهد: حتى أنين العبد في مرضه»[٣].

وعن حاتم الأصم قال: «لو أن صاحب خبر جلس إليك ليكتب كلامك لاحترزتَ منه، وكلامك يُعرَضُ على الله فلا تحترز!»[٤].

وعن سفيان الثوري أنه قال: «أخبروني لو كان معكم من يرفعُ الحديثَ إلى السلطان أكنتم تتكلمون بشيء؟ قالوا: لا، قال: فإن معكم من يرفع الحديث إلى الله ﷻ»[٥].

[الحذر من الخلوة]

فإن قويت أسباب الهوى فحمَلَتْكَ على الخلوة بحبيبك فقد تعرَّضْتَ بالأسد في خيسه[٦]، وبعيدٌ سلامةُ مثلِكَ؛ فالهربَ الهربَ؛ فلا نجاةَ في غيره، فإن أمسكَكَ الهوى فاجتذِبْ نفسَكَ من يده بخوف من يراك حين تقومُ، واستحيي

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٧، ٦٤٧٨)، ومسلم (٢٩٨٨).
(٢) أخرجه أحمد (١٥٨٥٢)، والترمذي (٢٣١٩)، وابن ماجه (٣٩٦٩).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠٨٣٠).
(٤) سير أعلام النبلاء (١١/ ٤٨٧).
(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٦٩).
(٦) الخِيسُ: موضع الأسد، لسان العرب (٦/ ٧٥).

من نظره إليك؛ فإنه حاضرٌ معك.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ- ذات يوم-: «**اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ عَجَّلَ حَقَّ الْحَيَاءِ**، قال: قلنا: يا رسول الله، إنا نستحيي والحمد لله، قال: **لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنْ مَنِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ فَلْيَحْفَظِ الرَّأْسَ وَمَا حَوَىٰ، وَالْبَطْنَ وَمَا وَعَىٰ، وَلْيَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَىٰ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ**»(١).

وعن يوسف بن الحسين قال: «عَلِم القوم أن الله يراهم فاستحيوا من نظره أن يُراعوا شيئًا سواه»(٢).

وقال محمد بن علي الترمذي: «اجعل مراقبتك لمن لا يغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع عنك نعمه، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه»(٣).

وقد ذكرنا في باب: من ذكر ربه فترك ذنبه من هذا ما فيه بلاغ.

[ذِكر مرارة الموت]

فأَدِرْ في تلذُّذِك ذِكْرَ مرارة الموت الذي سماه رسول الله ﷺ: «**هَاذِمَ اللَّذَّاتِ**»(٤) وتذكَّر شدة النزع، وتفكَّر في الموتى الذين حُبسوا على أعمالهم ليجازوا بها، فليس فيهم من يقدر على محو خطيئة، ولا على زيادة حسنة فلا

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٧١)، والترمذي (٢٤٥٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٣٩).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٣٥).

(٤) أخرجه أحمد (٧٩٢٥)، والترمذي (٢٣٠٧)، والنسائي (١٨٢٤)، وابن ماجه (٤٢٥٨).

تعثُ يا مطلق.

وعن مخلد بن الحسين قال: «عدت مريضًا فقلت له: كيف تجدك؟ قال: هو الموت، قلت: وكيف علمت أنه الموت؟ قال: أجدني أُجتَذَبُ اجتذابًا، وكأن الخناجر مختلفة في جوفي، وكأن جوفي تَنُّورٌ محمى يتلهَّبُ، قلت: فاعهد، قال: أرى الأمر أعجل من ذلك، فدعا بدواة وصحيفة، فوالله ما أُتي بها حتى شخص بصرُه فمات».

وقال إبراهيم بن يزيد العبدي: «أتاني رياح القيسي، فقال: يا أبا إسحاق، انطلق بنا إلى أهل الآخرة نُحدِثُ بقربهم عهدًا، فانطلقت معه فأتى إلى المقابر فجلسنا إلى بعض تلك القبور، فقال: يا أبا إسحاق، ما ترى هذا متمنيًا لو مُنِّي؟ قلت: أن يرد والله إلى الدنيا فيستمتع من طاعة الله ويصلح، قال: فها نحن، ثم نهض فجدَّ واجتهد، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى مات».

[درء اعتراض الهوى بتصور العرض على الله ﷻ]

وصوِّرْ لنفسك حين اعتراض الهوى عَرْضَكَ على ربك، وتخجيله إياك بمضيض العتاب على فعل ما نهاك عنه.

وعن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ»**(١).

وعن صفوان بن محرز قال: «كنت آخذًا بيد ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذ عرض له رجل، فقال: كيف سمعتَ رسولَ الله ﷺ يقول في النجوى يومَ القيامةِ؟ فقال: سمعتُ

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦).

رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ ﷻ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ مِنَ النَّاس، وَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوْبِهِ، وَيَقُوْلُ لَهُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ حَتَّىٰ إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَىٰ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَقَدْ غَفَرْتُهَا لَكَ الْيَوْمَ»[1].

[احذر شهادة المكان الذي عصيتَ الله فيه]

وتخايل شهادة المكان الذي تعصي فيه عليك يوم القيامة.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة:٤]، فقال: أَتَدْرُوْنَ مَا أَخْبَارُهَا؟ أَنْ تَشْهَدَ عَلَىٰ كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا، أَنْ تَقُوْلَ: عَمِلَ كَذَا وَكَذَا فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا، فَهُوَ أَخْبَارُهَا»[2].

[تمثيل النفس عند زلَلِها كيف يؤمر بها إلى النار]

ومثِّل في نفسك عند بعض زلَلِكَ كيف يؤمر بك إلى النار التي لا طاقة لمخلوق بها، وتصوَّرْ نفادَ اللذة وبقاءَ العار والعذاب، فقد قال الشاعر:

«تفنى اللذاذة ممن نال شهوتَهُ ... من الحرام ويبقَى الإثمُ والعارُ

تبقى عواقبُ سوءٍ في مغبَّتها ... لا خيرَ في لذة من بعدها النارُ»

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «نَارُكُمْ هَذِهِ مَا يُوْقِدُ بَنُو آدَمَ جُزْءٌ وَاحِدٌ مِنْ سَبْعِيْنَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ، قالوا: واللهِ إنْ كانت لكافيةً! قال: إِنَّهَا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

(٢) أخرجه أحمد (٨٨٦٧)، والترمذي (٢٤٢٩).

فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا»(١).

عن قسامة بن زهير قال: «خطَبَنَا أبو موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: يا أيها الناس ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا؛ فإن أهل النار يبكون الدموع حتى تنقطع، ثم يبكون الدماء حتى لو أُرسِلتْ فيها السفن لجَرَتْ»(٢).

وعن وهب بن منبه أنه قال: «إذا سُيِّرتِ الجبالُ فسمعت حسيسَ النار وتغيُّظَها وزفيرَها وشهيقَها صرخت الجبال كما تصرخ النساء، ثم ترجع أوائلها على أواخرها يدقُّ بعضُها بعضًا»(٣).

وعن عبيد بن عمير قال: «إن أهون أهل النار عذابًا رجل له نعلان من نار وشراكان من نار، أضراسه جمرٌ، ومسامعه جمرٌ، أشفار عينيه من لهيب النار، تخرج أحشاؤه من قدميه، وسائرهم كالحَبِّ القليل في الماء الكثير فهي بهم تفور»(٤).

وكان بشر الحافي يقول: «ما ظنُّكم بأقوام وقفوا بين يدي الله تعالى مقدار خمسين ألف سنة، لم يأكلوا ولم يشربوا حتى تقطعت أكبادهم من العطش، وأجوافهم من الجوع، وأعناقهم من التطاول، ورَجَوُا الفرجَ فأمر بهم إلى النار».

[لا علاج كاليأس من المحبوب]

فإن قال قائل: قد عرفتُ صحة ما ذكرتَ كله، وعلمتُ أن لا دواءَ كاليأس، وقد عزمتُ على هجر المحبوب بالكلية، وقطعتُ طمعي منه جزمًا، إلا أنني في

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٣).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (١١٠٣).

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (٢١٨٩).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٤١٣٣).

قلق لا يسكن، وحرقة لا تخبو، ولهيب لا يطفأ فهل لذلك علاج؟

فالجواب: أنه إن كان المحبوب مقدورًا عليه مباحًا كجارية يمكن شراؤها، أو امرأة يمكن أن تُتَزَوَّجَ فلا دواءَ لذلك إلا ذلك، فإن خَلْقًا كثيرًا أضناهم العشقُ، فلما قدروا على المحبوب عاودتهم الصحة سريعًا؛ لأن النكاح يزيل العشق!.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «**لَمْ يُرَ لِلْمُتَحَابِّيْنَ مِثْلُ التَّزَوُّجِ**»(١).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، عندنا يتيمة قد خطبها رجلانِ موسِرٌ ومعسِرٌ، هي تهوى المعسر، ونحن نهوى الموسر، فقال رسول الله ﷺ: **لَمْ يُرَ لِلْمُتَحَابِّيْنَ مِثْلُ النِّكَاحِ**»(٢).

[صدق اللجوء إلى الله في طلب الحلال]

وإن كان حصول المحبوب ممكنًا جائزًا في الشرع إلا أنه تعسَّر فليلجَأِ المحبُّ إلى الله سبحانه في تسهيله، وليعامله بالصبر على ما نهى عنه، فربما عجل له مراده.

وعن محمد بن عبيد الزاهد قال: «كانت عندي جارية فبعتها فتتبَّعتها نفسي، فصرت إلى مولاها مع جماعة من إخواني، فسألته أن يقيلني، ويربح عشرين دينارًا، فأبى عليَّ فانصرفتُ من عنده، فرُمْتُ فطري فلم أقدر عليه فبتُّ ساهرًا لا أدري ما أصنع، فخشي أن أعاوده في غدٍ، فأخرجها إلى المدائن، فلما رأيتُ ما بي من الجهد كتبتُ اسمها في راحتي واستقبلت القبلة فكلما طرقني طارق من

---

(١) أخرجه الحاكم (٢٦٧٧)، والبيهقي في الكبرى (١٣٤٥٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٨٤٧)، والطبراني (١٠٨٩٥)، واللفظ لابن النجار، كما في كنز العمال (٤٥٥٩٧).

ذِكرِها رفعتُ يدي إلى السماء، وقلت: يا سيدي هذه قصتي، حتى إذا كان في السحر من اليوم الثاني إذا أنا برجل يدقُّ عليَّ الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: أنا مولى الجارية فنزلتُ، فإذا أنا به، فقال: خُذِ الجارية بارك الله لك فيها، فقلت: خُذْ دنانيرَكَ والربحَ، فقال: ما كنتُ لآخُذَ منك دينارًا ولا درهمًا، قلت: ولم ذاك؟ قال: لأنه أتاني آتٍ الليلةَ في منامي، فقال لي: رُدَّ الجاريةَ على ابن عبيدٍ، ولك على الله الجنة»[1].

وعن ثابت البناني قال: «أخذ عبيد الله بن زياد ابن أخي صفوان ابن محرز المازني فحبسه، فتحمل صفوان عليه بالناس، فلم يَبْقَ أحد إلا كلَّمه فلم يَرَ لحاجته نُجْحًا[2] فأتاه آتٍ في منامه، فقال: يا صفوان، قم فاطلبْ حاجتك من وجهها فقام وتوضَّأَ وصلى ودعا، قال: فنُبِّه عبيد الله بن زياد لحاجة صفوان في بعض الليل، فقال: عليَّ بابن أخي صفوان، قال: فجاء الحرسُ والشُّرَطُ والنيرانُ، وفتحت السجون حتى استُخرِجَ فجيء به إلى عبيد الله، فقال: أنت ابن أخي صفوان، فقال: نعم، فأرسله فما شعر صفوان حتى ضرب عليه ابن أخيه الباب، قال: من هذا؟ قال: فلان، نُبِّهَ الأمير في بعض الليل، فجاء الحرس والشُّرَطُ، وجيء بالنيران، وفُتحتِ السجون، فجيء بي إليه، فخلَّى عني بغير كفالة»[3].

[لم يُرَ للمتحابين مثلُ النكاح]

سياق ذكر جماعة حصل لهم مرادُهم مِن تزوُّجِ النساء المحبوبات، أو مِلْكِ

---

(١) كتاب المستغيثين بالله تعالى عند المهمَّات والحاجات، لابن بشكوال (ص٢٨).

(٢) النُّجحُ: الظَّفَر بالشيء، القاموس المحيط (ص٢٤٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢١٤- ٢١٥).

الجواري:

عن عبد الله بن أبي مليكة قال: «دخل عبد الله ابن أبي عمار- وهو يومئذٍ فقيه أهل الحجاز- على نخَّاس فعلق فتاة فاشتهر بذكرها حتى مشى إليه عطاء وطاووس ومجاهد يعذلونه، فكان جوابه:

يلـومني فيـكِ أقـوامٌ أجالِسُـهُمْ فمـا أُبـالي أطـارَ اللـومُ أم وقعَـا

فانتهى خبره إلى عبد الله بن جعفر فلم يكن له همة غيره، فحج فبعث إلى مولى الجارية فاشتراها منه بأربعين ألفًا، وأمر قيِّمةَ جواريه أن تزينها وتجلِّيها ففعلتْ، وبلغ الناسَ قدومُهُ فدخلوا عليه، فقال: ما لي لا أرى ابن أبي عمار زائرنا، فأخبر الشيخ فأتاه، فلما أراد أن ينهض استجلسه فقعد، فقال له ابن جعفر: ما فعل حب فلانة؟ فقال: سِيط به لحمي ودمي، وعصبي ومخي وعظامي، قال: فتعرفها إن رأيتها؟ قال: وأعرف غِيرَها، قال: فإني قد اشتريتها، والله ما نظرتُ إليها، وأمر بها فأُخرجتْ فَزُفَّتْ في الحُلِيِّ والحُلَلِ، فقال: أهي هذه؟ قال: نعم- بأبي أنت وأمي-، قال: فخذ بيدها فقد جعلها الله لك، أرضيت؟ قال: إي والله- بأبي أنت وأمي- وفوق الرضا، فقال له ابن جعفر: ولكني والله لا أرضى أن أعطيكها صفرًا، احمل معه يا غلام مائة ألف درهم؛ كيلا يهتم بمؤونتها، قال: فراح بها وبالمال»[1].

وعن الأصمعي قال: «حج يزيد بن عبد الملك في خلافة أخيه سليمان فعُرِضت عليه جارية مغنية جميلة، فأُعجب بها غاية الإعجاب، فاشتراها بأربعة

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٧/ ٢٨٦) بنحوه.

آلاف دينار، وكان اسمها العالية فسماها حبابة، وكان يهواها الحارث بن خالد المخزومي، فقال لـمَّا بلغه خروج يزيد بها:

ظَعَنَ الأميرُ بأحسنِ الخَلْقِ وغدا بِلُبِّكِ مطلعَ الشرقِ

وبلغ سليمانَ خبرُها، فقال: لهممتُ أن أحجر على يزيد، يبتاع جارية بأربعة آلاف دينار، وكان يزيد يهابه ويتقيه، فتأدى إليه قوله فردَّها على مولاها واسترجع منه المال، وباعها مولاها من رجل من أهل مصر بهذا الثمن، ومكث يزيد آسفًا متحسرًا عليها، فلم تمضِ إلا مُديدة حتى تقلَّد يزيد الأمرَ، فبينا هو في بعض الأيام مع امرأته سعدة بنت عمرو بن عثمان؛ إذ قالت له: بقي في نفسك شيء من أمور الدنيا لم تنله؟ قال: نعم حبابة فأمسكت حتى إذا كان من الغد أرسلت بعض ثقاتها إلى مصر ودفعت إليه مالًا، وأمرته بابتياع حبابة، فمضى فما كان بأسرع من أن ورد وهي معه قد اشتراها، فأمرت سعدة قيِّمةَ جواريها أن تصنعها، وكستها من أحسن الثياب، وصاغت لها أفخر الحُلِيِّ، وقالت لها: أمير المؤمنين متحسر عليك، وله اشتريتك فسُرَّت ودعت لها، فلبثت أيامًا تصنعها تلك القيِّمة حتى إذا ذهب عنها وعث السفر قالت سعدة ليزيد: إني أُحب أن تمضي معي إلى بستانك بالغوطة؛ لنتنزه فيه، قال: أفعل، فتقدميني إليه، فمضت وضربت قبةَ وشيٍ ونجَّدتها بالفرش، وجعلت داخلَها كِلَّةَ قصبٍ، وأجلست فيها حبابة، وجاء يزيد فأكلوا وجلسوا على شرابهم، فأعادت سعدة عليه: هل بقي في نفسك من الدنيا شيء لم تبلغه؟ قال: نعم حبابة، قالت: فإني قد اشتريتُ جاريةً ذكرتْ أنها علَّمتها غناءها كله فهي تغني مثلها، فتنشط لاستماعها، قال: إي والله، فجاءت به إلى القبة وجلسا قدامها وقالت: غنِّي يا جارية فغنَّتِ الصوت

الذي غنته ليزيدَ لـمَّا اشتراها هو من شعر كثير:

وبـين التراقـي والفـؤاد حـرارةٌ مكـانَ الشـجا لا تسـتقل فتـبردُ[1]

فقال يزيد: حبابة والله، فقالت سعدة: حبابة والله، لكَ اشتريتها، وقد أهديتها لك، فَسُرَّ سرورًا عظيمًا، وشكرها غاية الشكر، وانصرفت وتركته مع حبابة في البستان، فلما كان بالعشي صعد معها إلى مستشرف في البستان، وأقام معها ثلاثة أيام في البستان، ثم انصرفا وأقامت أيامًا، ثم مرضت وماتت فحزن عليها حزنًا شديدًا، وامتنع عن الطعام والشراب ومرض ومات».

[ما السبيل إذا تعسر الوصول للمحبوب؟]

فإن قال قائل: قد ذكرتَ علاج العاشق بتحصيل المعشوق إن كان مباحًا، ورجَّيتَهُ بأن ذلك يمكن، وقد اتفق لجماعة، فما تقول في عشق مَن لا سبيل إلى تحصيله كذات الزوج، أو محرم على التأبيد كالأمردِ، فهل لهذا الأمر من علاج، مع أنه قد أنحف الجسد، وأدام السهر، وقارب بصاحبه مرتبة الجنون؟

فالجواب: أن العلاج الكلي في جميع أمراض العشق: الحِمْيَة، وإنما تقع الحِمْيَة بالعزم الجازم على هجر المحبوب، فإن حصلت هذه الحِمْيَة حسنت المعالجة، والعلاج حينئذٍ يقع للظاهر والباطن، فليبتدئ المريض باللجوء إلى الله سبحانه، وليكثر من الدعاء؛ فإنه مضطر، وهو يجيب المضطر إذا دعاه، ثم ليتعالج؛ فإن الأسباب لا تنافي التوكل والدعاء.

---

(١) الشَّجَا: ما اعترض في حلق الإنسان والدابة من عظم، أو عود أو غيرهما، لسان العرب (١٤/ ٤٢٢).

فصول في معالجة الظاهر

اعلم أن بدن العاشق إذا نحف أسرعت فيه الحرارة إلهابًا وإحراقًا، فينبغي أن يستعمل الترطيباتِ كشمِّ البنفسج، والليِنوفر[١]، ودخول الحمام من غير طول مكث فيه، والنوم الطويل، والتغذي بالأغذية الرطبة، ولينظر إلى الماء الصافي في الرياض النضيرة، ولْيُحَدَّثْ بالنوادر المضحكة.

[السفر من أدوية العشق]

ومن المعالجات: السفر؛ فإنه بالسفر يتحقق البعد عن المحبوب، وكل بعيد عن البدن يؤثر بعده في القلب، فليصبر على مضض الشوق في بداية السفر صبرَ المصاب في بداية مصيبته، ثم إنَّ مَرَّ الأيام يهوِّن الأمر، قال زهير بن الحباب الكلبي:

«إذا مــا شــئتَ أن تســلو حبيبًــا ... فــأكثر دونــه عَــدَدَ الليــالي

فمــا سَــلَّى حبيبَــكَ غيــرُ نــأيٍ ... ولا أبلــى جديــدَكَ كابتــذَالِ»

وقال امرؤ القيس:

«وإنــك لــم تقطــع لُبَانَــةَ عاشــقٍ ... بمثــلِ غــدوٍّ أو رواحٍ مُــأَوِّبِ»[٢]

ومعنى مأوب: أنه غَذَّ السير حتى يؤوبَ صاحبه عند الليل، يقول: تكون استراحته بالليل.

---

(١) النَّيْلَوفَرُ، ويقال: النَّيْنَوْفَرُ: ضَرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة، القاموس المحيط (ص٤٨٦)، وقيل: اللِّينُوفر تصحيف، كما أشار إلى ذلك النووي في المجموع (٧/ ٢٧٦)، وعزاه إلى كتاب (تثقيف اللسان) للصقلي.

(٢) ديوان امرئ القيس (ص٧٥).

[التشاغل بالأعمال المفيدة من أدوية العشق]

وكذلك كل ما يشغل القلب من المعاش والصناعة؛ فإنه يُسَلِّي لأن العشق شغلُ الفارغِ، فهو يمثل صورة المعشوق في خلوته لشوقه إليها، فيكون تمثيله لها إلقاءً في باطنه، فإذا تشاغل بما يوجب اشتغال القلب بغير المحبوب درس الحبُّ، ودثر العشق، وحصل التناسي.

ومن ذلك: استعراض النساء للتزويج، والجواري للتسري، وليطلب الحسنَ الفائق فإنه يُسلِّي، وقد وصف الحكماء الحسن والملاحة.

وقد قيل: «لا تكون المرأة حسناءَ حتى يَبْيَضَّ منها أربعة، وهي: اللون، وبياض العين، والأسنان، والأظفار، ويسوَدَّ منها أربعة، وهي: شعر الرأس، وشعر الحاجبين، وأشفار العينين، وسواد العين، ويحمَرَّ منها أربعة: اللسان، والشفتان، والوجنات، وثَمَّ، ويتَّسِعَ منها أربعة: الجبهة، والراحتان[١]، والوركان، والصدر، ويَضِيقَ منها أربعة: خرقُ الأنف، وخرقُ الأذنين، وشقُّ الفم، وثَمَّ، ويَطُولَ منها أربعة: القامة، والعنق، والقصب[٢]، والأصابع، ويَضْخُمَ منها أربعة: الساقان، والوركان، والعَجُزُ، والكرب، وهو منبتُ العانةِ، ويَقْصُرَ منها أربعة: خطاها، وطرفها، ولسانها، وذِكرها، وكانت هند بنت عتبة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تقول: «النساء أغلال؛ فليتخيرِ الرجلُ غلًّا ليدِهِ»[٣].

هذا ما ذُكر فيما يتعلق بالحسن، والحسن عند المحب ما يقع بقلبه، فليجهد

---

(١) الراحة: الكفُّ، الصحاح (١/ ٣٦٨).

(٢) القصب من العظام: كل عظم أجوف فيه مخ، لسان العرب (١/ ٦٧٥).

(٣) الكامل، للمبرد (١/ ٢٤٠).

في استعراض النساء، والجواري، فالغالب حصول ما يغلب على ما عنده، فإن لم يحصل له أدام التَّتَبُّعَ؛ فإن النفس لا تقف على شيء، ولاتقيم على حال، فرب ثانٍ محا الأول.

وروى الهيثم بن عدي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «طلَّقَ النمرُ بن تولب امرأةً، ثم جزع عليها حتى خيف على عقله، ومكث أيامًا لا يطعم، ولا ينام، فلامه عشيرته، وصبَّروه، وذكروا له امرأةً يقال لها دعد جميلة، فتزوجها، فشغلته عن ذكر امرأته الأولى، وفيها يقول:

أهيم بِدُعد ما حييتُ فإنْ أَمُتْ ... فياحرَّتَا ممن يهيمُ بها بعدِي»

وبلغنا: أن رجلًا قصد عمر بن أبي ربيعة، فقال له: «قد قلتُ بيتين، فأَجِزْهما:

سألت المحبين الذين تجشَّموا ... أعاجيبَ هذا الحبِّ في سالفِ الدَّهْرِ

فقلتُ لهم ما يُذهِبُ الحبَّ بعدما ... تمكَّن ما بين الجوانحِ والصَّدْرِ؟

فمكث عمرُ أيامًا لا يقدر على إجازته، فرأته وليدة له مهمومًا، فسألته فأخبرها فخطرت، ثم رجعت، وهي تقول:

فقالوا دواءُ الحبِّ حبٌّ تُفيدُهُ ... مِن آخر أو نأيٍ بعيدٍ على الهجْرِ

وإلا فيأسٌ تَصبر النفس بعدما ... رَجَت أملًا واليأسُ عونٌ على الصَّبْرِ

فقال: فرَّجْتِ عني».

[إضعاف الحرارة الغريزية من أدوية العشق]

ومن أدوية **الظاهر**: كثرة الجماع، وإن كان لغير المحبوب، ووجه كونه دواءً

أنه يقلل الحرارة التي منها ينتشر العشق، وإذا ضعفت الحرارة الغريزية حصل الفتور، وبرد القلب، فخمد لهب العشق.

وقد قال ابن الرومي:

«وَطِءُ مَنْ شِيتَ يُغْنِيكَ عَنِ الْحَسْنَاءِ فِي الذِّرْوَهْ»

ومن الأدوية: عيادةُ المرضى، وتشييع الجنائز، وزيارة القبور، والنظر إلى الموتى، والتفكر في الموت وما بعده، فإن ذلك يطفئ نيران الهوى، كما أن سماع الغناء واللَّهو يقويه، فما هو كالضدِّ يُضعفه، وكذلك مواصلة مجالس التذكر، ومجالسة الزهاد، وسماع أخبار الصالحين، والمواعظ، وكل ذلك يخرج الإنسان عن غلبة الشهوة إلى حيز الحزن والفكر، وذلك يضادُّ العشقَ.

وقد ذكر قوم أن المتنزهات المونقة[1]، والمسموعات المطربة تُسَلِّي[2]، وهذه ربما زادت في عشق قوم.

فصول في معالجة الباطن

أولُ علاج الباطن وأنجعُهُ: قطعُ الطمع باليأس، وقوة العزم على قهر الهوى، فمتى تردَّدَ الأمرُ عند النفس، أو ضعف العزم لم ينفع دواءٌ أصلًا.

ومن ذلك: زجرُ الهمَّة الأبية عن مواقف الذلِّ، واكتساب الرَّذائل، وحرمان الفضائل، فمن لم تكن له همة أبية لم يكد يتخلص من هذه البلية، فإن ذا الهمة يأنفُ أن يملِكَ رِقَّهُ شيءٌ، وما زال الهوى يُذِلُّ أهل العزِّ.

---

(١) الأَنَقُ: اطِّراد الخُضرة في عينيك؛ لأنها تُعجب رَائِيَها، وشيء أنيق: حسن مُعجِب، لسان العرب (١٠/ ١٠).

(٢) المقصود ما يباح سماعه من الأصوات المستحسنة.

وعن عبد الله بن الربيع قال: حدَّثنا صاحب لنا قال: «قال هارون الرشيد- في الليل- بيتًا، ورام أن يُشفِعَهُ بآخَرَ فلم يقدر، وامتنع القول عليه، فقال: عليَّ بالعباس ابن الأحنف، فلما طُرِقَ ذُعِرَ، وفَزِعَ أهلُهُ، فلما وقف بين يدي الرشيد قال: وجَّهْتُ إليك لبيتٍ قلتُهُ، ورُمْتُ أن أُشفِعَهُ بمثله، فامتنع القولُ عليَّ، فقال: يا أمير المؤمنين، دعني حتى ترجعَ إليَّ نفسي؛ فإني قد تركتُ عيالي على حالٍ من القلق عظيمة، ونالني من الخوف ما يتجاوز الحدَّ والوصفَ، فانتظَرَ هُنَيَّةً، ثم أنشده البيتَ:

جنـــــانٌ قــــد رأيناهــــا فــلم نَــرَ مثلَـهــا بَشَـــرَا

فقال العباس:

يزيـــــدُكَ وجهُهَـــا حســـنًا إذا مــــا زِدْتَـــــهُ نَظَــــرَا

فقال له الرشيد زدني، فقال:

إذ مــــا الليــــلُ مـــال عليــــ ـــــكَ بــــالإظلامِ واعْتكَــــرَا

ودجَّ فمــــا تَـــرَى قمـــرًا فأبرِزْهَــــا تَـــرَى القَمَـــرَا

فقال له الرشيد: قد ذَعَرْناكَ، وأفزعنا عيالَكَ، فالواجبُ أن نعطيك دَيْنَكَ، فأمر له بعشرة آلاف درهم، وصَرَفَهُ»[1].

وعن المدائني قال: «قال معاوية بن أبي سفيان لعمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما ألذُّ الأشياء؟ قال: يا أمير المؤمنين مُرْ أحداث قريش فليقوموا، فلما قاموا

---

(١) تاريخ دمشق، لابن عساكر (٧٣/ ٣١١- ٣١٢).

قال: إسقاط المروءة»[١].

يريد: أن الرجل إذا لم تُهِمَّهُ مروءَتُهُ فعَلَ ما يهوَى، ولم يبالِ بلومٍ، وهذه صفات البهائم! فأمَّا أربابُ الأنفة فكما قال ابن المعتز:

«وإني وإن حَنَّتْ إليك ضمائري فما قَدْرُ حبِّي أن يَذِلَّ له قَدْرِي».

وقال أبو فراس:

«لقد ضَلَّ مَن تحوي هواه خريدةٌ وقد ذَلَّ مَن تقضِي عليهِ كَعَابُ[٢]

ولكنني والحمدُ لله حازمٌ أعزُّ إذا ذَلَّتْ لهنَّ رقابُ

ولا تملك الحسناءُ قلبي كلَّهُ ولو شملتها رقةٌ وشبابُ

وأَجْرِي ولا أُعطي الهوَى فضْلَ مِقْوَدِي وأهفو ولا يَخْفَى عليَّ صوابُ

صبورٌ ولو لم تَبْقَ مني بقيةٌ قؤولٌ ولو أن السيوفَ جوابُ»

وله:

«وقد رام هذا الحبُّ أن يستَرِقَّني فأنجدني صبرٌ عليَّ جميلُ»

وله:

«لا تحسبي أن نفسي كالنفوسِ إذا حَمَّلْتُها في هواكِ الضيمَ تحتَمِلُ

---

(١) تاريخ دمشق، لابن عساكر (٤٦/ ١٨٨).

(٢) الكَعَابُ- بالفتح-: الكاعِب، وهي الجارية حين يبدو ثَدْيُها للنُّهود، الصحاح (١/ ٢١٣).

وربَّما بعثَ التَّذْكارُ نحوَكُمُ ... دمعِي فتنكِرُهُ الأجفانُ والمُقَلُ

كوني كما شئتِ إنْ هجرًا وإنْ صلةً ... فليسَ تُنكِرُ صبرَ البازلِ الإبلُ[1]

كم ذقت للدهر خَطبًا أنتِ أيسرُهُ ... فما ثنى عِطْفَ حِلمي الحادثُ الجلَلُ»

وله:

«سوايَ الذي ترمِي المطامِعَ نُبْلُهُ ... وغيرُهُ مَن بالحرصِ يسهلُ ذُلُّهُ

ولو كنتُ ممن تقبلُ الضيمَ نفسُهُ ... لجنَّبْتُ هجري مِن مُنَى النفسِ وَصْلُهُ

هوى سمتُ قلبي أن يطاوعَ حُكْمَهُ ... فبادرني قبلَ العواذلِ عذلُهُ

تَوَهَّمَني كالعاشِقِينَ يَرُوعُنِي ... تجنُّبُهُ أو يغتالُ جِدِّي هزلُهُ

وإني لألقاهُ بسلوةِ زاهِدٍ ... وفي يده عَقْدُ الفؤادِ وحَلُّهُ

أُصارِفُ طرفي في تأمُّلِ حسنِهِ ... وأسخطُ ما يُرضِي سوايَ أقلُّهُ

ولا خيرَ فيمن يَمْلِكُ الحبُّ رَأْيَهُ ... وإنْ مَلَكَ القلبَ المتيمَ حَبْلُهُ»

ولأبي علي ابن الشبل:

«وآنَفُ أن تعتاق قلبي خريدةٌ ... بلحظٍ وأن يروي صداي رُضَابُ[2]

---

(١) بَزَلَ البعيرُ: فطر نابُهُ، أي: انشَقَّ، فهو بازِلٌ، ذكرًا كان أو أنثى، وذلك في السنة التاسعة، الصحاح (٤/ ١٦٣٣).

(٢) الصَّدَى: العطش، الصحاح (٦/ ٢٣٩٩)، الرُّضاب: ما يرضبه الإنسان من ريقه كأنه يمتصه، وإذا قبَّل جاريته رَضَب ريقها، لسان العرب (١/ ٤١٨).

وللقلب مني زاجرٌ مِن مروءةٍ ... يُجَنِّبُهُ طُرُقَ الهوى فيُجابُ»

ولمنصور بن الهروي:

«خُلقتُ أبِيَّ النفسِ لا أَتْبَعُ الهوَى ... ولا أستقي إلَّا من المشربِ الأصْفَى

ولا أحملُ الأثقالَ في طلبِ الغِنَى ... ولا أبتغي معروفَ مَن سامَنِي خَسْفَا

ولا أتحرَّى العِزَّ فيما يُذِلُّني ... ولا أخطب الأعمالَ كي لا أرى صرْفَا

ولست على طبعِ الذبابِ متى يُذَدْ ... عن الشيءِ يسقطْ فيه وهو يَرَى الحتْفَا»

وله:

«كفى حزنًا أن زارني مَن أحبُّهُ ... فأعرضتُ عنه لا ملالًا ولا بغْضَا

ولكنَّ نفسي عنه نفسٌ أبيَّةٌ ... إذا لم تَنَلْ كلَّ المُنَى رَدَّتِ البعْضَا»

[تجني المحبوب يُذهِبُ المحبة]

ومما يُذِلُّ العشاقَ: تجني المحبوب، والتجني يحصد المحبة في القلوب التي لها أنفة.

قال الأعشى:

«أرى سفهًا بالمرء تعليقَ قلبِهِ ... بغانيةٍ خودٍ متى يَدْنُ تَبْعُدِ»

وعن أحمد بن حمدون الكاتب قال: «كان بين الواثق وبعض جواريه شر، فخرج كسلانَ، فلم أزل أنا والفتح بن خاقان نحتال لنشاطه، فرآني أضاحِكُ الفتحَ ابنَ خاقان، فقال: قاتل الله العباس بن الأحنف حيث يقول:

عـدل مـن الله أبكـاني وأضـحككم فالحمـد لله عـدلٌ كـلُّ مـا صَـنَعَا

اليـوم أبكـي علـى قلبـي وأندبُـهُ قلـبٌ ألـحَّ عليـه الحـبُّ فانصـدَعَا

للحبِّ في كلِّ عضوٍ لي على حِدَةٍ نوعٌ تفرَّقَ عنه الصبرُ واجتمَعَا»[1]

وقال ابن الدُّمَينَةِ:

«أمـا والله ثـم الله حقًّـا يمينًـا ثـم أُتْبِعُهَـا يمينَـا

لقـد نزلـتْ أميمـةُ مِـن فـؤادِي تِلاعًـا مـا أُبِحْـنَ ولا رُعِينَـا[2]

ولكـنَّ الخليـلَ إذا جفانَـا وآثَـرَ بـالمودَّةِ آخَرِينَـا

صـددتُ تكرُّمًـا عنـه بنفسـي وإن كـان الفـؤادُ بـه ضـنينَا»[3]

ومن الأنفةِ: الأنفَةُ مِن حبِّ مَن طبعُهُ الغدرُ، وهذا أجلُّ طباع النساءِ، وقد ذكرنا في غضون كتابنا مِن غَدْرِهِنَّ طَرَفًا، ومن ذلك: ما ذكرناه في باب الحيل، والمخاطرات في قصة لقمان بن عاد، وذكرناه في باب من قتل معشوقه، وغير ذلك، وقد قال الحكماء: «لا تثق بامرأة».

وقال الشاعر:

«إذا غدَرَتْ حسناءُ أوفَتْ بعهدِهَا ومِن عهدِها أن لا يدومَ لها عهدُ»

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٧٣/ ٣٢٦).

(٢) التِّلاعُ: مسايل الماء، وتلْعة الجبل أن الماء يجيء فيخُدُّ فيه ويحفره، لسان العرب (٨/ ٣٦).

(٣) أمالي القاري (١/ ٢٠٢).

وأنشد أبو محمد التميمي:

«أَفِقْ يا فؤادي من غرامِكَ واستمِعْ ... مقالةَ محزونٍ عليكَ شفيقِ

علقتَ فتاةً قلبُهَا متعَلِّقٌ ... بغيرِكَ فاستوثقْتَ غيرَ وثيقِ

وأصبحتَ موثوقًا وراحتْ طليقةً ... فكم بين موثوقٍ وبين طليقِ»

ومما يداوَى به الباطنُ: أن يعلم الإنسان أن زوجته المحبوبةَ إن مات عنها مالت إلى غيره، ونسيَتْهُ أسرعَ شيءٍ، وإن كانت تحبه؛ لأنه لا وفاءَ للنساء[1].

وعن الزبير بن بكار قال: «كان الحسن بن الحسن خطب إلى عمِّه الحسينِ ابنِ علي، فقال له الحسين: يا ابن أخي قد انتظرتُ هذا منك انطلق معي، فخرج به حتى أدخله منزله، ثم أخرج إليه ابنتيه: فاطمةَ وسكينةَ، فقال: اختر، فاختار فاطمة، فزوَّجَهُ إياها، فكان يقال: فلما حضرتِ الحسنَ الوفاةُ قال لفاطمة: إنك امرأة مرغوب فيكِ، فكأني بعبد الله بن عمرو بن عثمان إذا خرج بجنازتي قد جاء على فرس مُرَجِّلًا جبينه، لابسًا حُلَّتَهُ، يسير في جانب الناس يتعرَّض لك، فانكحي مَن شئتِ سواه، فإني لا أدعُ من الدنيا ورائي همًّا غيرك، فقالت له: آمِنْ مِنْ ذلك، وأثلجَتْهُ بالأيمانِ من العتق والصدقة لا تتزوجه، ومات الحسن بن الحسن، وخرج بجنازته، فوافاها عبد الله بن عمرو بن عثمان في الحال التي وصف الحسن، وكان يقال لعبد الله بن عمرو بن عثمان: الـمُطرَّف[2] من حسنه،

---

(١) ليس الأمر على إطلاقه، وكما يشرع للرجل الزواج بعد وفاة زوجته، يشرع للمرأة الزواج بعد وفاة زوجها.

(٢) الـمُطَرَّفُ من الخيل- بفتح الراء- هو الأبيض الرأس والذَّنَب، وسائر جسده يخالف ذلك، الصحاح (٤/ ١٣٩٥).

فنظر إلى فاطمةَ حاسرةً تضرب وجهَهَا، فأرسل إليها: إنَّ لنا في وجهك حاجةً، فارفقي به، فاسترخَتْ يداها، وعرف ذلك فيها، وخمَّرتْ وجهَهَا، فلما حلَّتْ أرسل إليها فخطبها، فقالت: كيف يميني التي حلفتُ بها؟ قال: فأرسل إليها مكانَ كلِّ مملوكٍ مملوكين، ومكان كل شيء فعوَّضَها مِن يمينها، فنكحته، فولدت له محمدًا الديباجَ، والقاسمَ».

وقال المتوكل الليثي- فيما يتعلق بالسُّلُوِّ عن النساء لغدرهن-:

«وكنا ارتقينا في صعودٍ مِن الهوَى فلما ارتقيناه ثَبتُّ وَزَلَّتِ

وكنا عقدنا عقدةَ الوصلِ بيننا فلما تواثَقْنَا عقدْتُ وحلَّتِ

فإن سأل الواشون فيمَ صَرَمْتَهَا فقل نفسُ حرٍّ سُلِّيَتْ فَتَسَلَّتِ»

[التفكر في عيوب المحبوب علاج للعشق]

ومما يداوَى به الباطنُ: أن تفكِّر فتعلم أن محبوبك ليس كما في نفسك، فأعمِلْ فكركَ في عيوبه تَسْلُ، فإن الآدمي محشوٌّ بالأنجاس والأقذار، وإنما يرى العاشقُ معشوقه في حال الكمال، ولا يصوِّر له الهوى عيبًا؛ لأن الحقائق لا تنكشف إلا مع الاعتدال، وسلطان الهوى حاكم جائر، يغطي المعايب، فيرى العاشقُ القبيحَ من معشوقه حسنًا.

وعن الأصمعي قال: «قال لي الرشيد: ما حدُّ العشق، وصِفته؟ فقلت: أن تكون ريحُ البصلِ من المعشوق أطيبَ عند العاشق من ريح المسك مع غيره!».

وقال الحكماء: «عينُ الهوى عوراءُ»[(١)].

بهذا السبب يُعرِضُ الإنسان عن زوجته، ويؤثر عليها الأجنبية، وقد تكون الزوجةُ أحسنَ، والسبب في ذلك: أن عيوب الأجنبية لم تَبِنْ له، وقد تَكشِفُها المخالطةُ؛ ولهذا إذا خالط هذه المحبوبةَ الجديدة، وكشفتْ له المخالطةُ ما كان مستورًا مَلَّ، وطلب أخرى إلى ما لا نهاية له.

وقد بلغنا عن المتوكل: «أنه خرج يومًا واجمًا[(٢)]، فسأله وزيره عن حاله، فقال: في الدار عشرون ومائة جارية ما فيهن مَن تطلبها نفسي!».

قال المصنف: فاستعمال الفكر في بدن الآدمي، وما يحوي من القذارة، وما تستر الثياب من المستقبح يُهَوِّنُ العشقَ؛ ولهذا قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا أعجبتْ أحدَكُمُ امرأةٌ، فليذكُرْ مناتِنَهَا»[(٣)].

وقال بعض الحكماء: «مَن وجد ريحًا كريهةً من محبوبه سلاه، وكفى بالفكر في هذا الأمر دفعًا للعشق المقلِقِ».

وقال أبو نصر بن نباتة:

«ما كنتُ أعرف عيبَ مَن أحببتُهُ ... حتى سلوتُ فصرتُ لا أشتاقُ

وإذا أفاق الوجدُ واندمَلَ الهوَى ... رأتِ القلوبُ ولم تَرَ الأحداقُ»

ولهذا المعنى الذي أشرتُ إليه شكا خَلْقٌ من العشاق معشوقَهم، ومَلُّوهم

(١) مصارع العشاق (٢/ ٣١).

(٢) الواجِمُ: الذي اشتدَّ حزنه حتى أمسك عن الكلام، الصحاح (٥/ ٢٠٤٩).

(٣) سبق تخريجه (ص ٢١).

وأعرضوا عنهم، وما كان السبب إلا أن المخالطة أظهرتِ المعايبَ الآدميةَ، فنفروا عنهم، ومضى ما مضى من القلق، ووهن الجاه مجانًا.

عن الضحاك: «أن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قدم الشام في تجارة[١]، فرأى هناك امرأةً يقال لها ابنة الجودي على طنفسة[٢] لها ولائد، فأعجبَتْهُ، فقال فيها:

تـذكرتُ ليلـى والسَّـمَاوَةُ بيننـا ... وما لابنةِ الجوديِّ ليلى وما لِيَا[٣]

وأنَّـى تَعَـاطَى ذِكْـرَهُ حارثيـةٌ ... تُدَمِّنُ بُصْرَى أو تحِلُّ الجوانِيَا[٤]

وأنَّـى تَلَاقِيهـا بلـى ولعَلَّهـا ... إنِ الناسُ حَجُّوا قابلًا أنْ تُلَاقِيَا

قال: فلما بعث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جيشه إلى الشام قال لصاحب الجيش: إنْ ظفرتَ بليلى ابنةِ الجوديِّ عَنْوَةً، فادفعها إلى عبد الرحمن بن أبي بكر، فظفر بها فدفعها إلى عبد الرحمن، فأعجب بها، وآثرها على نسائه حتى شكونه إلى عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فعاتبَتْهُ على ذلك، فقال: والله كأني أَرْشُفُ بأنيابها حَبَّ الرُّمَّانِ، فأصابها وجع سقط له فُوهَا، فجفاها حتى شكته إلى عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فقالت له عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: لقد أحببتَ ليلى فأفرطتَ، وأبغضتَهَا فأفرطتَ،

---

(١) وكان هذا في الجاهلية قبل الإسلام.

(٢) الطَّنْفَسَةُ: واحدة الطَّنَافِسِ للبُسط والثياب، والحصير من سَعَفٍ عَرْضُهُ ذِراعٍ، القاموس المحيط (ص٥٥٥).

(٣) السَّماوَةُ: موضع بالبادية ناحية العواصم، لسان العرب (١٤/ ٤٠١)، وبادية السَّماوة: التي هي بين الكوفة والشام قَفرَى، معجم البلدان (٣/ ٢٤٥).

(٤) دَمَّن القومُ الموضعَ: سَوَّدوه وأثَّروا فيه بالدِّمن، والدِّمن: البَعَر، لسان العرب (١٣/ ١٥٧-١٥٨).

فإمَّا أن تُنصِفَها، وإما أن تُجَهِّزَهَا إلى أهلها، فجهَّزَها إلى أهلها»[١].

حدثني بعض إخواني عن صديق له: «أنه عشق امرأة كانت في نهاية الحسن والجمال، وأنه كان يخاطر بنفسه ليجتمع بها، قال: فقال لي يومًا: والله لو اجتمعتُ بها، ثم قُدِّمتُ فضُرِبَتْ عنقي ما باليتُ، ثم إنه تزوَّجها، فمضى عليه قليل، ثم طلَّقَها، قال: فمررتُ يومًا أنا وهو في بعض الطريق بحمأةٍ منتنةٍ، فقال لي: يا فلان، والله إن فلانة اليوم أقبحُ عندي حالًا من هذه الحمأةِ».

وقد يقع السُّلُوُّ بالشيءِ الذي لا يُظَنُّ، مثل: أن يحب الإنسان المرأة، فإذا بها نسبة لصديق من أصدقائه فيحتشم ذلك فيسلوها.

[تقدير موت المحبوب من أدوية العشق]

ومما يداوَىٰ به الباطنُ: تصوير فقدِ المحبوبِ، إما بموته، أو بفراقٍ يحدث عن غير اختيار، أو بنوع ملل، أو بتغير حليته، فيزول ما أوجب المحن الزائدة على الحدِّ التي خسر بها المحبُّ جاه الدين والدنيا، وكم ممن مات في تلك الحال.

وقد حُكي: أن بعض الحكماء قال لغلام له - وكان قد عشق جارية -: «يا فلان، لا بد من فراق هذه؟ قال: لا بد، قال: فاستَعْجِلْهُ، واربح ما بينهما».

وقال كُثَيِّر:

«أَفِقْ قد أفاق العاشقون وفارقوا الْـ ... ـهَوَى واستمرَّتْ بالرجالِ المرائِرُ

وَهَبْهَا كشيءٍ لم يكـنْ أو كنازحٍ ... بـه الـدارُ أو مَـنْ غيَّبَتْـهُ المقـابِرُ»

ومتى صوَّر الإنسان مثل هذه الأشياء، وتلمَّحَ عواقِبَها بفكره سهل عليه

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٥/ ٣٣- ٣٤).

علاجُ ما في قلبه، ومتى مرَّ على وجهه في استلذاذ عشقِهِ هجم عليه من المحن ما يربي على لذته، وربَّما كان سببَ هلكتِهِ.

وعن موسى بن جعفر: «أن يزيد بن عبد الملك بينا هو مع حبابة أَسَرُّ الناس بها حَذَفَها بحبَّةِ رمانٍ، أو بعنبةٍ، وهي تضحكُ، فوقعتْ في فيها فشرِقَتْ، فماتت فأقامت عنده في البيت حتى جَيَّفَتْ، أو كادت تجيف، ثم خرج فدفنها، فأقام أيامًا، ثم خرج حتى وقف على قبرها، فقال:

فإن تسلُ عنك النفسُ أو تَدَعِ الصبا ... فباليأسِ تسلو عنكِ لا بالتجلُّدِ

ثم رجع، فما خرج من منزله حتى خُرج بنعشِهِ».

وعن أبي هفان قال: «كان لأبي دلف العجلي جارية تسمى جنان، وكان يعشقها، وكان لفرط فتونه وظرفه يسميها صديقتي، فمن قوله فيها:

أحبُّكِ يا جنانُ وأنتِ منِّي ... مكانَ الروحِ مِن جسدِ الجبانِ

ولو أنِّي أقولُ مكانَ روحي ... خشيتُ عليكِ بادرةَ الزمانِ

وإقدامي إذا ما الخيلُ كَرَّتْ ... وهابَ كماتُهَا حَرَّ الطِّعَانِ

قال أبو هفان: ثم ماتت، فرثاها بمراثٍ حِسَانٍ».

وعن الأصمعي قال: «كان الرشيد شديدَ الحب لهيلانة، وكانت قبله ليحيى ابن خالد، فدخل يومًا إلى يحيى قبل الخلافة فقال له: أُحِبُّ أن تهب لي فلانة، فوهبها له حتى غلبتْ عليه، وكانت تُكثر أن تقول: هي الآنة، فسماها: هيلانة، فأقامت عنده ثلاث سنين ثم ماتت، فوجد عليها وجدًا شديدًا، وأنشد:

قد قلتُ لما ضمنوكِ الثَّرَى ... وجالَتِ الحسرةُ في صدرِي

اذهـــبْ فـــوالله مـــا سَـــرَّني   بعـــدك شـــيءٌ آخِـــرَ الـــدهرِ»

[التفكر في العواقب من أدوية العشق]

ومن أدوية الباطن: أن يُصوِّرَ الإنسان انقضاء غرضه، أو يمثل غيره في مقامه، ثم يتلمَّح عواقب الحالِ، أفَترى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لو زلَّ مَن كان يكون، أو لم يَبْقَ مدحُهُ لصبره أبدَ الدهرِ، أفتُرى ما سمعتَ بماعز[١]، ولا شكَّ أنه في القيمة معروف، وإن كانت التوبة قد غمرت ذنبه، ولكن تلمَّحْ أنت عواقبَ من صبر ومن لم يصبر، وأعمِل فكرك في الحالتين، لعل هذه العبرة تخرق حجاب الهوى فتدخل على القلب بغير إذن فتكشف هذه الغمة، فالعاقل من وزن ما يحتوي عليه العشق من لذَّةٍ ونغصة، فنُغَصُهُ كثيرة، وأذاه شديد، وهو على الحقيقة يُهينُ النفسَ التي لا قيمةَ لها، وغالبُ لذاته محرَّمٌ، ثم هي مشوبة بالغموم والهموم، وخوف الفراق، وفضيحة الدنيا، وحسرات الآخرة، فيعلم الموازن بين الأمرين أن اللذة مغمورة في جنب الأذى.

قال الببغاء:

«وأفضل الناس من لم يرتكب سببًا   حتـى يُمَيِّـزَ مـا تجنـي عواقبُـهُ»

وقال المتنبي:

«ممـا أضـرَّ بأهـلِ العشـقِ أنهـمُ   هووا وما عرفوا الدنيا ولا فطنُوا

---

(١) هو ماعز بن مالك، اعترف بالزنى عند رسول الله ﷺ، وقال له: طهِّرْني- ثلاث مرات- ورسول الله ﷺ يرده، وفي الرابعة أمر أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فرجموه، والحديث بطوله أخرجه مسلم (١٦٩٥).

تفنـى عيـونُهُمُ دمعًـا وأنفسُـهُمْ ... في إثـرِ كـلِّ قبيحٍ وجهُـهُ حَسَـنُ

تحمَّلـوا حَمَلَـتْكُم كـلُّ ناجيـةٍ ... فكـلُّ بَـينٍ علـيَّ اليـوم مؤتَـمَنُ

ما في هوادِجِكم من مهجتي عِوَضٌ ... إنْ مِـتُّ شـوقًا ولا فيهـا لهـا ثَمَـنُ

سـهرتُ بعـد رحيلي وحشـةً لكـمُ ... ثم استمرَّ مريري وارْعَوَى الوَسَنُ»

[الابتلاء تمحيص للرجال]

ومن أدوية الباطن: أن يعلم أن الابتلاء لظهور جواهر الرجال، فربما كان ابتلاؤك لِيَنظُر إلى صبرك، فإن صبرتَ، فربَّما نقلك إلى محبته.

قال أبو طالب المكي: «قال مريد لأستاذه: قد طُولِعْتُ بشيء من المحبة، قال: يا بني هل ابتلاك بمحبوب سواه، فآثرتَهُ عليه؟ قال: لا، قال: فلا تطمَعْ في المحبة، فإنه لا يعطيها عبدًا حتى يبتلِيَهُ»(١).

وقد قال الشافعي: «لا يكون التمكين إلا بعد المحبة، فإذا امتُحن الإنسان فصَبرَ مُكِّنَ، ألا ترى أن الله تعالى امتحن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم مكَّنه، وامتحن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم مَكَّن له، فقال: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ [الأنبياء:٨٤]، وامتحن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم آتاه ملكًا، وكذلك يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ»(٢).

قلت: فمن نظر في هذا فليعلم أن مدة هذا البلاء خطواتٌ في ميدان معاملة، ويا قرب النهاية، فليصابر هجير الصبر، فما أسرع انقضاء اليوم!، وليحذر من الخسران في موسم البلاء!، فربما ذهب أصل البضاعة، وليتخايل عند صبره

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٨٨).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٢٦).

خيلاء فخره، فليَزْهُ بها، فما يوازن صبره عمل عابد، ولا زهد زاهد، وربما نظر إليه في تلك الحالة نظرة رضا كانت غنى الأبد، وهذا كلُّه في الصدمة الأولى، فإنه ربما وقع ملل أو سلو.

[التفكر فيما يفوِّته العشقُ من الفضائل]

ومن أدوية الباطن: أن يتفكر الإنسان فيما يُفوِّتُه تشاغلُهُ بالمعشوق من الفضائل، فإن أرباب اليقظة عشقُهم للفضائل من العلوم والفقه والصيانة والكرم، وغير ذلك من الخلال الممدوحة- أوفى مِن ميلِهم إلى شهوات الحسِّ؛ لأن شهوات الحس حظُّ النفس، وتلك الخلال حظُّ العقل، والنفس الناطقة الفاضلة إلى ما يؤثره العقل أَمْيَلُ، وإن جرَّها الطبعُ إلى الشهوات الحسيات.

ومن أعجب ما نُقل إلينا من ذلك: عن أبي بكر بن الأنباري: «أنه مضى يومًا في النخَّاسين، وجارية تُعرَض حسنة كاملة الوصف، قال: فوقعت في قلبي، ثم مضيتُ إلى دار أمير المؤمنين الراضي، فقال لي: أين كنتَ إلى الساعة؟ فعرَّفتُهُ، فأمر بعض أسبابه فمضى، فاشتراها وحملها إلى منزلي، فجئت فوجدتها، فعلمتُ الأمر كيف جرى، فقلت لها: كوني فوق إلى أن أَستبرِئَكِ، وكنتُ أطلب مسألة قد اختلَّتْ عليَّ فاشتغل قلبي، فقلت للخادم: خذها، وامضِ بها إلى النخَّاس، فليس قدرها أن تشغل قلبي عن علمي، فأخذها الغلام، فقالت: دعني أكلمه بحرفين، فقالت: أنت رجل لك محل وعقل، وإذا أخرجتني ولم تبين لي ذنبي لم آمن أن يظن الناس بي ظنًّا قبيحًا، فَعَرِّفْنِيهِ قبلَ أن تُخرِجَني، فقلت لها: ما لك عندي عيب غير أنك شغلتني عن علمي، فقالت: هذا أسهلُ عندي، قال: فبلغ الراضي أمره، فقال: لا ينبغي أن يكون العلم في قلب أحد أحلى منه في

صدر هذا الرجل!»[(١)].

وعن أبي الحسن العروضي قال: «اجتمعتُ أنا وهو عند الراضي على الطعام، وكان قد عرف الطباخُ ما يأكل أبو بكر، فكان يشوي له قلية يابسة، فأكلنا نحن من ألوان الطعام وأطيابه، وهو يعالج تلك القلية، ثم فرغنا وأُتِينا بحلواء، فلم يأكل منها، وقام وقمنا إلى الخيش[(٢)]، فنام بين الخيشين، ونمنا نحن في خيش ننافس فيه، فلم يشرب ماء إلى العصر، فلما كان بعد العصر قال لغلام: الوظيفة، فجاءه بماءٍ من الحبِّ، وترك الماء المزمل بالثلج، فغاظني أمرُهُ، فصحتُ: نصيحة، فأمر أمير المؤمنين بإحضاري، وقال: ما نصيحتك؟ فأخبرته، وقلت: هذا يا أمير المؤمنين يحتاج أن يحال بينه وبين تدبير نفسه؛ لأنه يقتلها، ولا يحسن عشرتها، فضحك، وقال: في هذا لذة، وقد صار إلفًا، فلن يضره، ثم قلت: يا أبا بكر لِمَ تفعل هذا بنفسك، قال: أُبقِي على حفظي، قلت له: قد أكثر الناسُ في حفظك، فكم؟ قال: أحفظ ثلاثةَ عشرَ صندوقًا، قال محمد بن جعفر: ولـمَّا وقع في علة الموت أكل كل شيء كان يشتهي، وقال: هي علة الموت».

قلت: وفي هذا المعنى الذي ذكرناه قال أبو علي الحسن بن أحمد المنطقي:

«غيري يَشُوقُ فؤادَهُ حدقُ المَهَا ... ويروقه روضُ الخدودِ بوردِهِ

وإذا تثنى خوطُ بانٍ لم أكنْ ... ممن يقد حشاه مرهفُ قَدِّهِ»[(٣)]

(١) تاريخ بغداد، لابن عساكر (٤/ ٢٩٩).

(٢) الخَيْشُ: ثياب من أردأ الكتَّان، الصحاح (٣/ ١٠٠٥).

(٣) الخُوطُ: الغصن الناعم، وقيل: الغصن لسنة، لسان العرب (٧/ ٢٩٧)، البان: ضرب من الشجر، واحدتها بانة، ومنه: دُهن البان، لسان العرب (١٣/ ٦١).

لا أن طَبْعِـــي مسَّـــهُ طَبَـــعٌ ولا أني صَفَا ينبو الهـوى عـن صَـلْدِهِ[(١)]

لكـــنَّ كُنهــي للمســاعي عــاقني عن عسف قلبي في الحسان وكَدِّهِ[(٢)]

وإذا ابــن عــزمٍ لــم يقــم متجــرِّدًا للحادثـــات فصـــارمٌ في غمـــدِهِ

والسـيفُ سُـمِّيَ في النوائـب عـدةً لمضـــائِهِ فـــيهن لا لفرنـــدِهِ»[(٣)]

[استشعار الأنفة]

ومن أدوية الباطن: أنفة النفس الأبية أن تكون مقهورة، فإن العاشق ذليل مقهور، وكل موافقٍ للهوى يقع عليه فترةٌ سببها أنه قُهِرَ، وقد ذكرنا في باب الافتخار بالعفاف من هذا طرفًا، فليطالَعْ مِن هناك.

[الإصغاء إلى سماع موعظة العقل]

ومن أعظم أدوية الباطن: إعمالُ الفكر في قبح هذه الحال، والإصغاء إلى سماع العظة من واعظ القلب، فإنه من لم يكن له من قلبه واعظ لم تنفعه المواعظ، ومن الناس من يسمع موعظة فيرعوي، ومنهم من يرى غيره فينتهي، ومنهم من يرى طاقة شيب فينزع، وقد قدمنا بابًا فيمن ذكر ربه، فترك ذنبه، فليُطالَعْ، ومنهم من يُنَبَّهُ بمنام فينتبه.

وعن أبي سلمة الغنوي قال: «قلت لأبي العتاهية: ما الذي صرفك عن قول الغزل إلى قول الزهد؟ قال: إذن- والله- أخبرك: إني لـمَّا قلتُ:

---

(١) الصَّفاة: الحجر الصَّلد الضَّخم الذي لا يُنبت شيئًا، وجمعُ الصَّفاة: صَفَوات وصفا، لسان العرب (١٤/ ٤٦٤).

(٢) كُنْهُ كل شيء: قَدرُه ونهايته وغايته، لسان العرب (١٣/ ٥٣٦).

(٣) الفِرِندُ: وَشيُ السيف، وهو ما يُلمح في صفحته من أثر تموُّج الضوء، لسان العرب (٣/ ٣٣٤).

الله بينـــي وبـــين مـــولاتِي   أهـدتْ لـي الصـدودَ والمـلالاتِ

منحتُهَـــا مهجتـــي وخالصـــتي   فكـــان هجرانهـــا مكافـــاتِي

هيَّمنـــي حبُّهـــا وصـــيَّرني   أحدوثـــةً في جميـــعِ جـــاراتِي

رأيت في المنام تلك الليلة كأن آتيًا أتاني، فقال: ما أصبتَ أحدًا تدخله بينك، وبين عتبة يحكم لك عليها بالمعصية إلَّا الله تعالى، فانتبهتُ مذعورًا، وتبتُ إلى الله تعالى من ساعتي من قول الغزل».

فإن قال قائل: فما تقول فيمن صبر عن حبيبه، وبالغ في استعمال الصبر غير أن خيال الحبيب في القلب لا يزول، ووسواس النفس به لا ينقطع؟

فالجواب: أنه إذا كففتَ جوارحَكَ، فقد قطعتَ موارد الماء الجاري، وسينضب ما حصل في الوادي مع الزمان، خصوصًا إن طلعت عليه شمس صيف الخوف، ومرَّت به سَمُومُ المراقبة لمن يرى الباطن، فما أعجل ذهابه!، ثم استغث بمن صبرتَ لأجله، وقل: إلهي، فعلتُ ما أطقتُ، فاحفظ لي ما لا طاقة لي بحفظه.

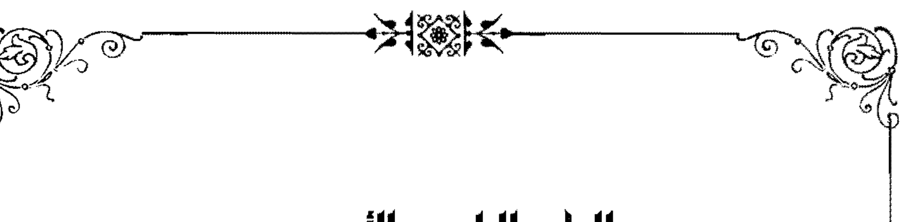
وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ ﷻ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا، أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ**»[١].

وعن الجنيد قال: «الإنسان لا يعاب بما في طبعه، إنما يعاب إذا فعل بما في طبعه»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٦٤)، ومسلم (١٢٧).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٦٩).



الباب الرابع والأربعون

فيه وصايا ومواعظ وزواجر

عن يحيى بن أبي كثير: «أن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يقول في خطبته: أين الوضاة الحسنة وجوههم؟ أين المعجبون بشبابهم؟ أين الملوك الذين بنوُا المدائنَ، وحصَّنوها بالحيطان؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب؟ قد تضعضع بهم الدهر، فأصبحوا في ظلمات القبور، الوَحا الوَحا[1]، النجا النجا»[2].

وعن ابن حجيرة عن أبيه عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يقول: «إنكم في ممر الليل والنهار في آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، فمن زرع خيرًا فيوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شرًّا فيوشك أن يحصد ندامة، ولكلِّ زارعٍ ما زرعَ»[3].

وعن أبي زكريا التيمي قال: «بينا سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام إذ أُتي بحجر منقور، فطلب من يقرأه، فأُتي بوهب بن منبه، فقرأه، فإذا فيه: ابن آدم، إنك لو رأيتَ قرب ما بقي من أجلك لزهدتَ في طويل أملك، ولرغبتَ في

---

(١) الوَحا: العجلة، يقولون: الوحا الوحا، لسان العرب (١٥/ ٣٨١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٤٦).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٠٥).

الزيادة من عملك، ولقصَّرتَ من حرصك وحِيَلك، وإنما يلقاك ندمُكَ لو قد زلَّتْ بك قدمُكَ، وأسلمك أهلك وحشمك، فبان منك الوالد والقريب، ورفضك الولد والنسيب، فلا أنت إلى دنياك عائد، ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة، والندامة».

وعن يحيى بن عبد الملك قال: «كتب الأوزاعي إلى أخ له: أما بعد، فإنه قد أُحِيطَ بك من كل جانب، واعلم أنه يُسَارُ بك في كل يوم وليلة، فاحذَرِ اللهَ والقيامَ بين يديه، وأن يكون آخر عهدك به، والسلام»[(١)].

وعن الفضيل بن عياض قال: «بلغني أن رجلًا كتب إلى داودَ الطائيِّ أنْ عِظْنِي بموعظة، قال: فكتب إليه: أما بعد؛ فاجعَلِ الدنيا كيومٍ صُمْتَهُ عن شهوتك، واجعل فطرَكَ الموتَ، فكأنْ قَدِ، والسلام.

قال: فكتب إليه زدني، فكتب إليه: أما بعد؛ فارضَ من الدنيا باليسير مع سلامة دينك، كما رضي أقوام بالكثير مع ذهاب دينهم، والسلام»[(٢)].

وعن النعمان بن عبد السلام عن سفيان قال: «أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران: إنه ليست عقوبتي لمن عرفني واجترأ عليَّ، كمن لم يعرفني».

وعن محمد بن حاتم الترمذي قال: «رأس مالك قلبك ووقتك، وقد شغلتَ قلبك بهواجس الظنون، وضيعتَ أوقاتك بارتكاب ما لا يعنيك، فمتى يربح مَن خسر رأسَ مالِهِ؟!»[(٣)].

وعن إبراهيم بن بشار قال: «مررتُ أنا وأبو يوسف الغسولي في طريق

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ١٤٠).

(٢) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٢٨٢).

(٣) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص٢١٩).

الشام، فوثب إليه رجل، فسلَّم عليه، ثم قال: يا أبا يوسف عِظْني بموعظة أحفظها عنك، قال: فبكى، ثم قال: اعلم يا أخي أن اختلاف الليل والنهار، وممرَّهما يسرعان في هدمِ بدنك، وفناء عمرك، وانقضاء أجلك؛ فينبغي لك يا أخي أن لا تطمئِنَّ حتى تعلمَ أين مستقرُّكَ، ومصيرُكَ، وساخطٌ ربُّك عليك بمعصيتك وغفلتك، أو راضٍ عنك بفضله ورحمته، ابنُ آدمَ الضعيفُ نطفةٌ بالأمس، وجيفةٌ غدًا، فإن كنتَ لا ترضى بهذا، فستردُ وتعلَمُ، وتندمُ في وقت لا ينفعُكَ الندمُ، قال: وبكى أبو يوسف وبكى الرجل، وبكيتُ لبكائهما، ووقَعا مغشيًّا عليهِما»(١).

ووعظ أعرابي ولده، فقال: «لا الدهر يعظُكَ، ولا الأيام تنذِرُكَ، والساعات تُعَدُّ عليك، والأنفاسُ تُعَدُّ منك، وأَحبُّ أمرَيك إليك أعوَدُهُما بالضُّرِّ عليك».

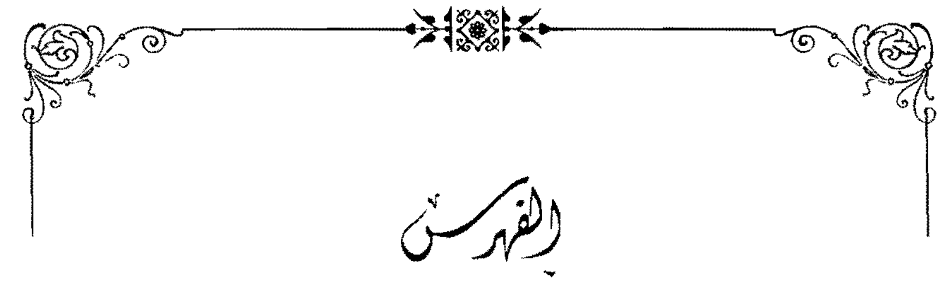
وكتب بعضُ الحكماء إلى أخ له: «أما بعد؛ فإن الدنيا حلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، ونحن في أضغاث أحلام، والسلام»(٢).

آخر الكتاب، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلواته على سيدنا محمد ﷺ، وحسبنا الله ونعم الوكيل، سمع هذا الكتابَ من لفظي سوى جزء من أوله، فإنه قرأه عليّ، فتمَّ له جميعُ الكتاب سماعًا صاحبُهُ الشيخ الأجلُّ السيد العالم صلاح الدين أبو علي الحسن بن سيف بن الحسن الشهراباني، وكتب عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي ابن الجوزي في شعبان سنة ست وستين وخمسمائة، حامدًا الله، ومصليًا على رسوله محمدٍ، وآلِهِ الطَّاهرين.

---

(١) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٥١٣).

(٢) العاقبة في ذكر الموت، لابن الخراط (ص٨٣).



الفهرس

تم بحمد الله


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com





اعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلًا، وإن كانت سببًا للألم والأذى في العاجل، ومنعِ لذاتٍ في الآجل.

فأما العاقل فإنه ينهى نفسه عن لذةٍ تُعقِبُ ألمًا، وشهوةٍ تُورِث ندمًا، وكفى بهذا القدر مدحًا للعقل، وذمًّا للهوى.

فإن قال قائل: فكيف يتخلص من هذا من قد نشب فيه؟ قيل له: بالعزم القوي في هجران ما يؤذي، والتدرج في تركِ ما لا يُؤمن أذاه، وهذا يفتقر إلى صبرٍ ومجاهدة.

فبادر - يا أخي، وفَّقنا الله وإياك لمراضيه، وعصمنا وإياك عن معاصيه - إلى استعمال الدواء، وبالغ في ملازمة الحمية، وقد رجوتُ لك العافية.

واعلم أني قد نزلتُ - لأجلك - في هذا الكتاب عن يفاع الوقار، إلى حضيض الترخُّص فيما أُورد؛ اجتذابًا لسلامتك، واجتلابًا لعافيتك، فليكن هذا الكتاب سميرك، واستعمال ما آمُرك به فيه شُغُلك، والله وليُّ صلاحك؛ فإنه لا عاصم إلا من رحم.

ابن الجوزي رحمه الله






9 789777 940429